شارل وعبد الرحمن

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثامنة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن فتوح العرب في بلاد فرنسا الى ضفاف نهر لوار
بجوار تورس . وما كان من تكاتف الافرنج
هناك على دفعهم بقيادة شارل مارتل
والاسباب التي دعت الى فشل
العرب ونجاة أوربا منهم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

« الطبعة الثالثة »

مطبعة الهلال
بمصر سنة ١٩٢٠

شارل وعبد الرحمن

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثامنة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام
تتضمن فتوح العرب في بلاد فرنسا الى ضفاف نهر لوار
بجوار تورس . وما كان من تكاتف الافرنج
هناك على دفعهم بقيادة شارل مارتل
والاسباب التي دعت الى فشل
العرب ونجاة اوربا منهم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الطبعة الثالثة

مطبعة الهلال بشارع نوبار بمصر
سنة ١٩٢٠

مقدمة

الطبعة الثانية

هذه الحلقة الثامنة من روايات تاريخ الاسلام التي اخذنا على عاتقنا تأليفها ونشرها بين قراء العربية . ويسرنا أن نرى ثمار هذا المسعى قد أخذت في النضج نعني تشويق الناس الى مطالعة التاريخ الاسلامي — وهو تاريخ الشرق وآدابه وعلومه بعد عصر الرومان . والفضل في ذلك التشويق راجع الى سبك التاريخ في قالب الرواية على نحو ما نفعله في رواياتنا التاريخية . اذ يقدم القارىء على مطالعة الروايات لما فيها من الحوادث الغرامية المشوقة فلا يفرغ من تلاوتها الا وهو مطلع على حادثة تاريخية مهمة بتفصيل وايضاح لا يجدها في كتب التاريخ . لاننا نمثل في سياق القصة كثيراً من عادات أهل ذلك الزمان واخلاقهم وآدابهم الاجتماعية وسائر احوال معائشهم — ناهيك بما يتخلل حوادث الرواية من الحكمة والعبرة ونقد الاخلاق ونحو ذلك مما لا يتعرض له التاريخ الا باختصار

وموضوع هذه الرواية زحف العرب على فرنسا في اوائل القرن الثاني للهجرة وما الذي حملهم على ذلك وما كان من فوزهم حتى قطعوا اكيتانيا كلها الى ضفاف نهر لوار بجوار مدينة تورس

حيث لقيهم شارل مارتل جد شارلمان العظيم وتفصيل المعركة التي انشبت بين الافرنج والعرب هناك والاسباب التي دعت الى فشل العرب وكلها مسندة الى شواهد تاريخية وادلة عقلية . ويتخلل ذلك شرح داخلية بلاد الافرنج وعلاقة الشعب بالاكليروس وعلاقة كليهما بالحكام . وقد بسطنا ذلك على وجه يمثل الحقيقة تمثيلاً صحيحاً لم نخرج في اساسه عن الحقائق التاريخية الثابتة مع تقييد الحوادث بالزمان والمكان

وقد طبعت هذه الرواية للمرة الاولى سنة ١٩٠٤ ونفدت نسخها فاعدنا طبعها ثانية — ونطلب اليه تعالى أن يأخذ بيدنا لاتمام هذا المشروع وهو حسبنا ونعم الوكيل

وهذه الطبعة الثالثة

الفصل الاول

فتوح العرب في بلاد الافرنج

فتح المسلمون اسبانيا سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بقيادة طارق بن زياد البربري كما بينا ذلك في رواية « فتح الاندلس » . وكان طارق من موالي موسى بن نصير عامل بني أمية على أفريقية أي من اتباعه وموسى يومئذ شيخ قد ناهز الثمانين من عمره . فلما فتحت الاندلس أصبحت من توابع تلك الولاية أو فرعاً من فروعها . وعامل أفريقية يقيم في القيروان وهو الذي يولي عمال الاندلس . وما زال ذلك شأن الاندلس حتى استقلت على عهد الدولة الاموية الاندلسية بعد ظهور العباسيين في المشرق

فلما تهيأت أسباب الفتح لموسى وهو في أفريقية استشار الخليفة في ذلك فوافقه وحذره فلم يشأ موسى أن يفرط في جند العرب وهم يومئذ قليلون بالنظر الى أهل البلاد الاصليين في معظم البلاد التي فتحوها وخصوصاً في أفريقية فأنفذ في تلك المهمة حملة اكثرها من البربر سكان أفريقية الاصليين وقائدهم مولاه طارق . فلما حصلت الواقعة بين طارق ورودريك في فحص شريش وقتل رودريك سنة ٩٢ هـ أصبح فتح الاندلس أمراً مقضياً ولم تمض سنة حتى فتحت قرطبة ومالقة وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس العظمى وتأيدت شوكة المسلمين هناك

فلما بلغ خبر ذلك النصر السريع الى موسى تمنى أن تكون له يدٌ فيه فكتب الى طارق أن يتوقف ريثما يأتيه هو وجند جنداً آخر من العرب والبربر وقدم الى أسبانيا من جهة أخرى ففتح مريدة وسرقوسة وغيرها . ولما رأى سهولة الفتح عليه أوغل في أسبانيا حتى تجاوز جبال البيرينه الى فرنسا فغزا بلاداً منها الى نربونة وقد عزم على مواصلة الفتح في بلاد أوربا حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية [1] فيتم له فتح العالم المعمور يومئذ ولم يكن

(١) المقري ج ١

يكن باقياً منه الى ذلك الحين غير أوربا وكانت في غاية الاضطراب والانقسام كما سيأتي :

فوقع في أثناء تلك الحروب خلاف بين موسى وطارق واستفحل حتى اضطر الخليفة في دمشق الى استقدامهما اليه للنظر في أمرهما فشخصا الى الشام وولى موسى على أسبانيا ابنه عبد العزيز فجعل قصبته أشبيلية . أما موسى فانه أتى دمشق ومعه من الغنائم والسبايا ما لا يحصى وجاء طارق أيضاً (سنة ٩٤هـ) وتحاكم الاثنان الى الخليفة الوليد . فتوفي الوليد في أثناء المحاكمة فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ . وكانت بينه وبين موسى ضغائن فشدد النكير عليه وعلى أولاده فأوعز الى بعض الامراء في الاندلس أن يقتلوا عبد العزيز فقتلوه وحملوا رأسه محنطاً الى دمشق . وكان موسى في السجن فاستقدمه سليمان وأراه رأس ابنه وسأله هل يعرفه فدعا موسى على قاتله وأثر ذلك المشهد فيه فمات بعد قليل . ولا ندري ما انتهى اليه أمر طارق

ذهب موسى وطارق ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربا فكانوا يرقبون الفرص ويحول دون مرادهم ما أنتشب من الخصام بين قبائلهم . على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر فأنفذ الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصرها . وطال حصارها حتى توفي سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فاسترجع الجند وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق فعادوا الى السعي فيه بطريق الاندلس

وتوالى على الاندلس عدة أمراء فتحوا مدناً كثيرة من جنوبي فرنسا لم تثبت أقدامهم الا في قليل منها . ثم أفضت الامارة الى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠م) وكان رجلاً حازماً تقياً محترماً غيوراً على الاسلام والمسلمين فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح أوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فالمانيا فالمملكة الرومانية الى الشام وكانت قصبة الاندلس يومئذ قد انتقلت الى قرطبة فأخذ عبد الرحمن في اعداد الجند للخروج على بلاد الافرنج وكانوا يسمونها يومئذ الارض الكبرى . وكان عبد الرحمن حذوراً نخاف الفشل في مهمته

كما فشل سلفاؤه وكان قد عرف علة فشلهم فعمد الى تلافيها فطاف أسبانيا بنفسه وتعهد أحكامها فعزل الضعفاء وأهل المطامع من أمرائها وأبدلهم برجال ذوي دراية وحلم ليحسنوا سياسة الناس من أهل الذمة وأنصف هؤلاء فردّ اليهم ما كان سلفاؤه قد اغتصبوه من كنائسهم وأملاكهم (١) وأعادهم الى ما كانوا عليه من العهود من زمن موسى بن نصير لعلمه انه لا يفوز في مهمته الا اذا أحسن سياسة الرعيـة وعاملهم بالحق والرفق والا فانهم يكونون عوناً عليه . وكان عبـد الرحمن وهو في ذلك الطواف يخطب المسلمين في المساجد ويحرضهم على الجهـاد في سبيل الله لفتح غاليا وما وراءها حتى يعم الاسلام كل العالم (٢)

وكان لكلامه تأثير عظيم في المسلمين العرب وغيرهم فتقاطروا من أفريقية ومصر والشام والحجاز واليمن وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل والشعوب وقد تكاتفوا وقاموا جهـاداً في سبيل الدين اجابة لدعوة عبد الرحمن وهم انما وثقوا به لمـا اشتهر من حزمه وكرم أخلاقه وعدله وصدق اسلامه وتألفوا حوله فرقاً باعتبار قبائلهم وأجناسهم وهو أميرهم الاكبر

الفصل الثانى

فتح بوردو

وكانت فرنسا في ذلك الحين تسمى بلاد الغـال أو غاليا وكانت الدولة الرومانية قد تقلص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجرمان يسميها المؤرخون ميروفنجيان أول ملوكها كلوفس (Clovis) حكمها سنة ٤٨١م وتتابع الحكم في أولاده الى أوائل القرن الثامن وقد ضعف أمرهم وانقسمت مملكتهم وأفضى النفوذ الى رجال دولتهم شأن الدول في أدوار انحطاطها . وكان وزير الملك في ذلك الحين رجل اسمه شارل من قبيلة الافرنج وكانت غاليا تقسم الى

(١) رينو (عن ابزيدور الباجي) (٢) روى ج ٣

يكن باقياً منه الى ذلك الحين غير أوربا وكانت في غاية الاضطراب والانقسام كما سيأتي :

فوقع في أثناء تلك الحروب خلاف بين موسى وطارق واستفحل حتى اضطر الخليفة في دمشق الى استقدامهما اليه للنظر في أمرها فشخصا الى الشام وولى موسى على أسبانيا ابنه عبد العزيز فجعل قصبته أشبيلية . أما موسى فانه أتى دمشق ومعه من الغنائم والسبايا ما لا يحصى وجاء طارق أيضاً (سنة ٩٤هـ) وتحاكم الاثنان الى الخليفة الوليد . فتوفي الوليد في أثناء المحاكمة فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ . وكانت بينه وبين موسى ضغائن فشدد النكير عليه وعلى أولاده فأوعز الى بعض الامراء في الاندلس أن يقتلوا عبد العزيز فقتلوه وحملوا رأسه محنطاً الى دمشق . وكان موسى في السجن فاستقدمه سليمان وأراه رأس ابنه وسأله هل يعرفه فدعا موسى على قاتله وأثر ذلك المشهد فيه فمات بعد قليل . ولا ندري ما انتهى اليه أمر طارق

ذهب موسى وطارق ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربا فكانوا يرقبون الفرص ويحول دون مرادهم ما انتشب من الخصام بين قبائلهم . على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر فأنفذ الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصرها . وطال حصارها حتى توفي سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فاسترجع الجند وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق فعادوا الى السعي فيه بطريق الاندلس

وتوالى على الاندلس عدة أمراء فتحوا مدناً كثيرة من جنوبي فرنسا لم تثبت أقدامهم الا في قليل منها . ثم أفضت الامارة الى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠م) وكان رجلاً حازماً تقياً محترماً غيوراً على الاسلام والمسلمين فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح أوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فالمانيا فالمملكة الرومانية الى الشام وكانت قصبة الاندلس يومئذ قد انتقلت الى قرطبة فأخذ عبد الرحمن في اعداد الجند للخروج على بلاد الافرنج وكانوا يسمونها يومئذ الارض الكبرى . وكان عبد الرحمن حذوراً نخاف الفشل في مهمته

كما فشل سلفاؤه وكان قد عرف علة فشلهم فعمد الى تلافيها فطاف أسبانيا بنفسه وتعهد أحكامها فعزل الضعفاء وأهل المطامع من أمرائها وأبدلهم برجال ذوي دراية وحلم ليحسنوا سياسة الناس من أهل الذمة وأنصف هؤلاء فردّ اليهم ما كان سلفاؤه قد اغتصبوه من كنائسهم وأملاكهم (١) وأعادهم الى ما كانوا عليه من العهود من زمن موسى بن نصير لعلمه انه لا يفوز في مهمته الا اذا أحسن سياسة الرعيـة وعاملهم بالحق والرفق والا فانهم يكونون عوناً عليه . وكان عبـد الرحمن وهو في ذلك الطواف يخطب المسلمين في المساجد ويحرضهم على الجهـاد في سبيل الله لفتح غاليا وما وراءها حتى يعم الاسلام كل العالم (٢)

وكان لكلامه تأثير عظيم في المسلمين العرب وغيرهم فتقاطروا من أفريقية ومصر والشام والحجاز واليمن وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل والشعوب وقد تكاثفوا وقاموا جهـاداً في سبيل الدين اجابة لدعوة عبد الرحمن وهم انما وثقوا به لمـا اشتهر من حزمه وكـرم أخلاقه وعدله وصدق اسلامه وتألفوا حوله فرقاً باعتبار قبائلهم وأجناسهم وهو أميرهم الاكبر

الفصل الثانى

فتح بوردو

وكانت فرنسا في ذلك الحين تسمى بلاد الغـال أو غاليا وكانت الدولة الرومانية قد تقلص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجرمان يسميها المؤرخون ميروفنجيان أول ملوكها كلوفس (Clovis) حكمها سنة ٤٨١م وتتابع الحـكم في أولاده الى أوائل القرن الثامن وقد ضعف أمرهم وانقسمت مملـكتهم وأفضى النفوذ الى رجال دولتهم شأن الدول في أدوار انحطاطها . وكان وزير الملك في ذلك الحين رجل اسمه شارل من قبيلة الافرنج وكانت غاليا تقسم الى

(١) رينو (عن ايزيدور الباجي) (٢) رومى ج ٣

مقاطعات كانوا يسمون الجنوبية منها سبتمانيا قصبتها نربونة وكانت قد دخلت في حوزة المسلمين يليها من الشمال اكيتانيا وقصبتها طولوزة وهي مقاطعة كبيرة حاكمها أمير أفرنجي اسمه أود وحدودها من الشمال نهر اللوار ومن الشرق نهر الرون ومن الجنوب جبال البيرينه ومن الغرب الاوقيانوس. ويلي اكيتانيا من الشمال مقاطعة نوستريا ووراءها أوستراسيا وحاكمها شارل المذكور فضلاً عن أقسام أخرى وكان كل دوق أو حاكم يريد الاستئثار بالسلطة العامة لنفسه وكان عبد الرحمن قد أدرك اختلال أمورهم أو جاءه البشير بذلك فعزم على فتح بلادهم

فأمر عبد الرحمن بالرحيل للجهاد فبلغه وهو في الطريق ان أحد قواد المسلمين على الحدود الشرقية في جبال البرينه مخالف لذلك الرأي . وكان الامير المذكور قائداً بربرياً يسمي المنيذر (١) وكان شجاعاً باسلاً غير انه كان قليل الاتحاد بالعرب ينظر الى أمرائهم نظر الحسد مثل اكثر قواد البربر . وكان المنيذر قد أبرز عهداً مع أود دوق اكيتانيا فأزوجه أود ابنة له جميلة اسمها لمباجة (٢) فلما علم عبد الرحمن بتلك المعاهدة أوجس خيفة من المنيذر فبدأ به فبغته في أمارته وقتله وقبض على أمواله ونسائه وأمر بارسال لمباجة الى الخليفة في الشام

فلما اطمأن بال عبد الرحمن من المنيذر وأمن على الاندلس حمل برجاله وقواده على بلاد الافرنج فاخترقها شمالاً وجنده يفتحون البلاد ويحرزون الغنائم وليس من يدفعهم . وقد استولى الرعب على الافرنج وخافوا على بلادهم وأود لا يقوي عليهم حتى وصلوا مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها ففتحوها بالسيف وقبضوا على الكونت حاكمها وهم يحسبونه اود نفسه فقطع رأسه ليرسلوه الى الخليفة في الشام على جاري العادة

وبوردو كان اسمها يومئذ بورديغاليا وهي واقعة عند نهر غارون على

(١) سماه ايزيدور (Nunuza) وظنه رومي المؤرخ « ابو نسعه » وهو عثمان اللخمي وعندنا انها تحريف المنيذر لانه افريقي واما ابو نسعة فانه لخمي أي من العرب (٢) رينو

ضفته اليسرى وكانت من المدن الحصينة يحيط بها سور مربع الشكل عليه الابراج العالية . وكان الرومانيون يعدونها من اكثر مدن غاليا علماً وأدباً وفيها امفيتياتر روماني عظيم كانوا يسمونه امفيتياتر غاليوس وكنيسة كبرى اسمها كنيسة الصليب ولا تزال آثار هذين البنائين باقية الى اليوم

فلما جاء المسلمون خيموا في ظاهرها ثم فتحوها عنوة وامعنوا فيها نهباً وسلباً فلما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والاسرى والسبايا الى ساحة كبيرة أمام المعسكر فامر عبد الرحمن اميراً من امرائه اسمه هانىء كان قائداً لفرقة الفرسان وهي اهم فرق الجند عندهم — لان مهارة العرب في الفروسية كانت من جملة ما ساعدهم على الفتح وخصوصاً في بلاد الافرنج

وكان هانىء شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره اشتهر في معسكر عبد الرحمن بالبسالة وشدة البطش وقد شب على ظهور الخيل فاذا ركب لا يبالي من يلاقي ولو كانوا مئات . وكان عبد الرحمن يحبه حباً شديداً ويقدمه على سائر القواد مع صغر سنه ومع كونه من غير قبيلته . لان عبد الرحمن من قبيلة بني غافق وهي من القبائل اليمنية (١) وهانىء من قيس وهي من قبائل الحجاز وكان التنافر متمكناً يومئذ بين اليمنية والقيسية فلم يبال عبد الرحمن بذلك . وكان هانىء من الجهة الاخرى يحب عبد الرحمن ويحترمه احتراماً شديداً لكرم اخلاقه وسعة صدره وكانا قد تحالفا سراً على الاتحاد المتين في اثناء هذه الحرب حتى يفرغا منها لعلمهما ان الذين حاولوا فتح اوربا قبلهما انما كان سبب فشلهما الانقسام . فكان عبد الرحمن بالنظر الى ثقته بهانىء يعهد اليه بكل ما يفتقر الى الثقة وحسن الظن ومن هذا القبيل اعتماده عليه بعد فتح بوردو بقسمة الغنائم وتدبير امر الاسرى

وكانوا يومئذ في اوائل الخريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) وضواحي بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت اعنابها وكان هانىء قد ابلى في ذلك الفتح

(١) نهاية الارب في قبائل العرب (خط)

بلاء حسناً حتى بهر الناس ولم يتحول عن جواده طول ذلك اليوم وهو يجول ذاهباً وجائياً يحرض رجاله ويستحث القواد على الثبات والصبر ولم يكن في امراء ذلك الجند من لا يحب هانئاً ويعجب ببسالته واقدامه الا من حسده لتقربه من الامير الكبير مع صغر سنه لكن حساده لم يجدوا سبيلاً الى اذيته بسبب شدة محبة عبد الرحمن له . وكان هانىء طويل القامة عريض الصدر اذا مشى عرفه الناس من طوله وعرض كتفيه واذا اقبل اليك توسمت مناقبه مصورة في محياه فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامح بارز الحاجبين والوجنتين حاد العينين صغير الانف والفم بارز الذقن خفيف العارضين اسود الشعر لا ينفك وجهه باسماً مع وقار . وركب في ذلك اليوم على جواد ادهم لا يحب الركوب على سواه لخفة حركته وجمال مشيته وصبره في ساحة الوغى وقد توسم فيه الخير لانه لم يركبه في قتال الا عاد منصوراً وما في معسكر عبد الرحمن من لا يعرف تعلق هانىء بادهمه حتى توهموا انه شغل به عن ملاذ الدنيا وبالحقيقة انه لم يكن همه الا مراعاة ذلك الجواد واتقان عدته حتى البسه لجاماً مذهباً وسلسلة وركابين من فضة وعلق على جبهته لؤلؤة كبيرة عثر عليها في بعض غزواته في غاليا فصاغها في شكل نجمة وعلقها هناك وكان الادهم شديد التعلق بصاحبه اذا ناداه أتاه صاغراً واذا استحثه في ساحة الوغى اسرع حتى تظنه طائراً فاذا استوقفه وقف بغتة

الفصل الثالث

الغنائم والسبايا

فاقبل هانىء في اصيل ذلك اليوم على ادهمه كأنه جبل يسعى قد تعمم بعمامة حمراء وتزمل بعباءة حمراء وتقلد حسامه وقد نقش اسمه على نصاله ورصع قبضته بالحجارة الكريمة وأمر بعض رجاله ان يفرزوا الغنائم كل صنف منها على حدة فجعلوا الاسرى في جانب والسبايا من النساء والاطفال في جانب والغنائم من الاسلحة والآنية والاموال والمجوهرات في جانب . واستدعى

هانيء امراء الجند وهم جماعة كبيرة وفيهم البربر من أهل افريقية وهؤلاء كثيرون لان العرب كان معتمدهم في حروبهم بالاندلس وفرنسا عليهم وكان هؤلاء أهل بطش وشدة ولكنهم لم يكونوا على قلب واحد في نصرة الاسلام لما كان من امتهان العرب يومئذ لغير العرب ولو كانوا مسلمين (١) فكان البربر يصحبون العرب في حروبهم رغبة في الغنيمة اكثر مما في نصرة الاسلام . على ان بعض قبائلهم كانوا يرافقون العرب في الجهاد وما هم من الاسلام على شيء او ربما تظاهروا به وهم يهود او وثنيون . ويقال نحو ذلك في سائر فرق الجند غير العرب . فقد كان في جملة رجال هذه الحملة اناس من الاسرى او العبيد اشتراهم العرب وربوهم في حجر الاسلام وهم في الاصل من الصقالبة (السلاف) او من الافرنج او الروم او غيرهم (٢)

فلما اجتمع القواد على خيولهم بين يدي هانيء امر بالغنائم من الآنية والاموال فجيء بها فامر بالخمس وهو حق بيت المال فافرزه جانباً وفرق ما بقي على الامراء باعتبار تعداد رجال كل منهم . وكان اذا رأى اختلافاً بينهم على قسمة بذل من سهمه واسهم رجاله في سبيل التوفيق

وبعد الفراغ من قسمة الغنائم تحولوا الى جهة الاسرى وكانوا عديدين وقد شدوهم بعضهم الى بعض بالحبال أو السلاسل وساقوهم سوق الاغنام وجاؤا بهم حتى أوقفوهم بين يدي هانيء فالتفت هانيء الى القواد وقال لهم « ان هؤلاء الاسرى من جملة الغنائم واقتسامهم لا يمكن فاعرضوهم للبيع . أين التجار ؟ » . ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان وقرطبة وغيرها من مدن الاسلام كانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من أمثال هذه التجارة واليهود لا تفوتهم هذه الفرص . فلما حضروا تقدم واحد منهم وعلى رأسه عمامة سوداء واسعة ولحيته مسترسلة على صدره وانفه اعقف كبير وعليه قباء واسع ووراءه أحمال من الدراهم والدنانير . فقال له هانيء « بكم تشتري هؤلاء الاسرى يا هرون »

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ (٢) رومي ج ٣

قال « بالذي يأمر به مولاي »

فقال « لولا عزمنا على السفر الى الحرب ما بعناهم بل كنا نستخدمهم في منازلنا أو نتوقع الفداء من أهلهم اذ ربما كان بينهم من أولاد الاغنياء من يفتديه أهله بالاموال الطائلة ولكننا على أهبة المسير للحرب ولا وقت لنا فاشتر » قال هانىء ذلك عن بساطة وانفة ولكن هرون تمسك بقوله وصمم على الاحتيال للابتياع بأقل الأثمان فقال « صدق مولاي ولكن ابتياع هذا القدر من الناس خطر علينا اذ لا ندري كيف ننقلهم الى اسبانيا أو الى افريقية أو الى الشام حيث يعرضون للبيع وفي ذلك من مشقة والنفقة ما فيه . . »

فضجر هانىء من المطاولة وهو يودّ الفراغ من هذه البيعة لامر يهمه في البيعة التالية بيعة السبايا — فقال « اشتر الاسير بدينار كباراً مع صغار على ان تكون اسلابهم لنا غير ما يكسو عوراتهم »

فضحك هرون وهو يمشط لحيته ثم يقبضها بيده ويرسلها على صدره ويتظاهر انه استكثر المبلغ وقال « ألا يكفي ان ادفع اثمان هؤلاء وهم مئات ثم تطالبني باسلابهم وما عليهم منها الا الثياب »

فقال هانىء « قد بعناك فادفع المال الى هذا الكاتب وهو يحصي العدد ويقبض الثمن » قال ذلك وأشار الى كاتبه وساق فرسه الى جانب آخر من تلك الساحة حيث كانت السبايا وفيهم النساء والاطفال فتبعه هرون وهو يقول « لا تبع السبايا لسواي » فاعترضه تاجر آخر شهد بيعة الاسرى وصاح فيه « قد اشتريت الاسرى وحدك فدع السبايا لنا » فأجابه ذاك جواباً جافياً فانتصر بعض الوقوف من اليهود لهرون والبعض الآخر لرفيقه وعلت الضوضاء فسمع هانىء ضوضاءهم فصاح فيهم وقال « لا تغضبوا اننا نقسم البيعة بينكم على السواء »

فلما وصلوا الى موقف السبايا ساق هانىء جواده الى آخر موقفهم وكانوا قد صفوهم صفوفاً نساءً وأطفالاً فمر بهم الهوينا وهو يتفرس في الوجوه كانه يفتش عن ضائع والنساء يتضرعن اليه بالايماء والبكاء لانهنّ لا يعرفن العربية وهو لا يلتفت الى احد حتى وصل الى آخر الصف حيث عثر على ضالته وهي

فتاة لم ير الراؤون اجمل منها وبجانبها امرأة في نحو الاربعين من عمرها والهيبة والجلال ظاهران فيهما . ومع عويل سائر النساء والاطفال فانهما كانتا هادئتين لا تبديان حراكاً وليس في ملامحهما ما يدل على الخوف أو الاضطراب . وكانت المرأة بيضاء اللون شقراء الشعر زرقاء العينين وقد لملمت شعرها وضمته في أعلى رأسها تحت خمار اسود واكتست رداء اسود يجللها كلها حتى يحسبها الناظر اليها من سكان الاديار . وكانت جالسة حينئذ على حجر وقد اطرقت كانها تفكر في أمر ذي بال وفي يدها محفظة من جلد قد حرصت عليها حرصاً شديداً

اما الفتاة فكانت واقفة بجانبها وعليها لباس اسود مثل لباسها وقد اسندت يدها الى كتف المرأة وهي مكشوفة الزندين الى الكوع وقد التف زنداها التفافاً بديعاً . وكانت طويلة القامة على اعتدال ورشاقة وقد بدت الغضاضة في محياها من النشاط ، واذا حزرت عمرها ربما حسبتها في الخامسة والعشرين وهي في الحقيقة دون العشرين . سمراء اللون سوداء العينين كحلاء الجفون حادة البصر مع وداعة ورقة . تدل وقفتها على الصحة والقوة معاً ويتجلى فوق ذلك كله لطف نسائي يسحر الالباب . وكان ثوبها الاسود بسيطاً وقد انفتح الرداء من أعلى الصدر فظهر عنقها الدال على الصحة والقوة بامتلائه واستدارته وضفرت شعرها الكستنائي الجميل ضفيرتين مستطيلتين ارسلتهما الى صدرها من جانبي العنق فبلغتا الى تحت الخصر فوق منطقة من جلد . وغطت رأسها بنقاب اسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها . والناظر الى الفتاة بجانب تلك المرأة يبادر الى ذهنه انها والدتها وان اختلفتا خلقة وشكلاً لان المرأة كانت بيضاء اللون شقراء الشعر والفتاة سمراء كما تقدم

اقبل هانىء اليهما والفتاة تنظر الى والدتها وتخاطبها همساً . فلما وصل اليها رفعت نظرها اليه وتفرست في وجهه وتفرس هو فيها هنيهة لا ندري ما دار في اثنائهما بينهما من حديث العيون . ثم أمر بعض الغلمان ممن في ركابه ان ينقلهما الى مكان منفرد ريثما يفرغ من مهمته . فلم يستغرب احد طلبه لان ذلك من الامور العادية في مثل هذه الحال فالفاتحون يختارون من

غنائمهم ما شاؤا لانفسهم ويبيعون ما شاؤا

ثم عاد هانيء الى أواسط الصف ونادى التجار وقال « كيف تقتسمون هذه السبايا »

فتقدم هرون وقال « لا يمكن الاقتسام في هذا الحال لان ثمن الفتاة أو المرأة يختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وما تستطيعه من الصنائع كالغناء أو الرقص أو الخياطة او الطباخة وباختلاف صحتها وغير ذلك فالاحسن اذا شاء مولاي ان ينتقي كل منا ما شاء من هؤلاء على شرط ان من يختار أولا يدفع الثمن غالياً ثم يقل الثمن في الاختيار الثاني فالثالث »

فاستحسن هانيء هذه الطريقة فقال « ان الذي يتقدم اولا لاختيار من يريد من هؤلاء تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير والغلام بدينار والذي يتقدم ثانية فانه يدفع نصف هذه القيمة » . قال ذلك والتفت الى الكاتب وامره أن يتم البيع ويستولي على الثمن ويقسمه في الجند باعتبار العدد وساق جواده الى السبيتين

الفصل الرابع

بسطام

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وتراجع المسلمون الى مضاربهم وتركوا قسمة الغنائم الى أمرائهم . وكان الامراء في انتظار الفراغ من بيع الاسرى والسبايا حتى يقتسموا ما يجتمع من أثمانها . فجلسوا في خيمة بجانب فسطاط الامير عبد الرحمن لهذه الغاية وكان في جملتهم امير من البرابرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته في الاسلام الا طمعاً في الكسب والنهب من الغنائم ونحوها . وكان قوي البدن فظ الخلق يكاد الناظر اليه يرتعد من منظره لضخامة هامته وسعة وجهه مع عظم انفه وانتفاخ منخريه . وكان في عينيه احمرار وحدة خارقة حتى يوهمك اذا نظر اليك انه يخترق صدرك ببصره . وقد زاد منظره وحشة كثافة حاجبيه وبروزهما بروز الانف واقترانهما كانهما

خطّ واحد غليظ . فضلاً عن لونه الزيتوني وعما يتجلى في مجمل سحنته من القسوة والخشونة وما يدل عليه غلظ شفتيه من الميل الشديد الى الملذات الشهوانية . وكان بسطام رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر فلما سمع بحملة عبد الرحمن الى بلاد الافرنج وكان يسمع بغناها وخيراتها تظاهر بالاسلام وادعى انه انما يريد الجهاد في سبيل الدين ـ ولم يكن حال هذا وأمثاله ليخفى على عبد الرحمن ولكنه كثيراً ماكان يغضي عن ذلك رغبة في اكتساب القوة . لان هؤلاء البرابرة أبلوا في تلك الحروب بلاء حسناً وخصوصاً بسطام فانه كان يهاجم الاسوار ويتلقى السهام ويستقبل الفرسان بقلب لا يعرف الخوف . وكان كلما فرغوا من معركة واقتسموا غنائمها انتخب مايطيب له من السبايا وعبدالرحمن يتساهل في معاملته حذراً من غضبه لئلا تسوقه الحدة والخشونة الى الانقلاب على المسلمين فتنقلب معه قبيلته وقد يقتدي بها غيرها من قبائل البربر أو غيرهم من غير العرب (الموالي) ممن انتظموا في تلك الحملة وفي نفوسهم حسد لما عيز به العرب انفسهم عن سائر المسلمين كالاستئثار بالسلطة واحراز الاموال وكان التحاسد سائداً أيضاً بين العرب انفسهم اليمنية في جانب والحجازية في جانب آخر ناهيك بما بين الامويين والهاشميين من التنازع على الخلافة . على ان المسلمين غير العرب اذا كانوا حسني الاسلام قد يغضون عن هذا التحاسد وخصوصاً في اثناء الجهاد اما الذين كانوا يظهرون الاسلام رغبة في الغنائم فاذا فاتهم المقصود من انضمامهم انقلبوا الى الضد

فاتفق في واقعة بوردو ان بسطاماً جاهد جهاد الابطال وهو الذي هجم بنفسه على المنزل الذي كانت فيه هاتان المرأتان وقبض عليهما وارسلهما مع بعض رجاله الى المعسكر في جملة الغنائم على أمل انه متى عرضت السبايا للبيع طلب الفتاة لنفسه وهو لا يتوقع ان يكون له مزاحم أو معارض في ذلك . .

وكان بسطام في جملة الامراء المجتمعين في ذلك اليوم ينتظرون اقتسام الغنائم وقد اوصى بعض رجاله ان يراقب تلك الفتاة لئلا تخرج من يده . فلما رأى هانئاً افردها مع رفيقتها لم يجسر الرجل على منعه او الاعتراض عليه ولكنه أسرع الى بسطام فأخبره فغضب وصاح فيه « اذهب وقل لذلك

القيسي ان الفتاة للامير بسطام لأنها سبيتي وقد نلتها بحد سيفي »

فظل الرسول واقفاً ولم يبد جواباً فادرك بسطام انه لا يجسر على مخاطبة هانىء بمثل ذلك فقال له « ما بالك لا تمشي ؟ »

فتحول الرسول من الخيمة ومشي الهوينا وهو يغرس أنامله في شعر رأسه المتلبد المتكاثف كالعمامة السوداء ويحكه وقد تأبط جراباً من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من المواد الثمينة التي نهبها في اثناء الواقعة أو التقطها وهم يجمعون الغنائم ولم يكن يرى سبيلاً لحفظها الا ان يحملها معه مع ثقلها عليه – وكذلك كان يفعل اكثرهم وخصوصاً الساعون في الجهاد رغبة في الغنائم – مشى ذلك البربري وهو يتباطأ في مشيته ويهم ان يلتفت الى الوراء كأنه يتوقع من يسترجعه . وكان بسطام ينظر اليه ويراقب مشيته بعينيه الحمراوين وقد حمي غضبه لما في ذلك التردد من الاستخفاف به فصاح فيه فوقف وتراجع فقال له « يظهر انك خائف منه .. لا تكلمه بل اذهب انت ومن شئت من رجالي فأتوني بالفتاة سريعاً »

فمشى الرجل مثل مشيته الاولى فازداد غضب بسطام ووثب وفي يده خنجر روماني كان قد قتل صاحبه طمعاً فيه لاتقان صنعه فاستله وضرب به الرسول فاصابت الضربة ظهره فقتلته . وكان بالقرب من الخيمة جماعة من رجال قبيلته واقفين لبعض الشؤون فصاح بسطام فيهم « هلموا الى غنيمة هذا الجبان فهي وكل ما في خيمته من المنهوبات ملك حلال لكم » فاسرعوا الى جثته وهموا باقتسام ما في جرابه حتى كادوا يختصمون ويتضاربون

اما بسطام فانه رد الخنجر الى مكانه ووثب الى جواده فركبه واستحثه نحو الساحة. وكان قد علم بمكان الفتاة ورفيقها فسار توا اليه ولم يمر بهانىء ولا خاطبه بهذا الشأن . وكان هانىء لايزال الى ذلك الحين مشتغلا ببيع السبايا

فلما فرغ من مساومة اليهود ساق جواده نحو الفتاة وهي على مسافة ميل وبعض الميل منه والشمس قد توارت وراء ابنية بوردو واختلطت اظلال تلك القصور حتى صارت ظلاما خيم على الغالب والمغلوب والقاتل والمقتول — خيم على المسلمين وقد اشتدت عزائمهم بما أوتوه من النصر فاشتغلوا باقتسام غنائمهم .

وعلى الغالبين من أهل بوردو وقد غلبوا على ما في ايديهم فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم ونهبت بيوتهم ومعابدهم ولولا اشتغال هانىء بما جاش في فؤاده من عوامل الغرام وما غشي بصيرته من عواطف الشبيبة لاعتبر بما كسا افق بوردو من الشفق وقد اشتد احمراره حتى يحسبه الناظر اليه رمزاً عن الدماء التي سفكت في ذلك اليوم هناك . ولكنه كان مشتغل الخاطر بشيء لا يعرفه غير الذي يعانيه — وهو الحب — ومن غريب أمر الحب انه يقع على الناس وقوع المسببات من حيث لا يعلمون . وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتى تجيش العواطف وتتجاذب القلوب تجاذباً لا سبيل الى دفعه ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ولا في كل انسان وانما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب . فاذا تفاهمت العينان استيقظ القلبان وتجاذبا كأنهما كانا على موعد وقد تاها وكل منهما يبحث عن رفيقه ثم التقيا بغتة وتعارفا عن طريق النظر

الفصل الخامس

التنازع

كذلك حدث لهانىء ، فأنه لم يكن يعرف تلك الفتاة قبل ذلك اليوم فوقع نظره عليها للمرة الاولى وهو واقف بباب المدينة يراقب اخراج الغنائم والسبايا ويحصيها . وكانت الفتاة في جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام باشارة منه كما تقدم فرآها هانىء تمشي بثوبها ونقابها الاسودين وتحت النقاب ضفيرتاها المرسلتان على صدرها وقد اطرقت لا تلتفت يميناً ولا شمالا ورفيقتها ماشية بجانبها . فلما بلغت الفتاة الى عتبة الباب سمعت هانىء ينادي كاتبه ويسأله عن عدد الذين خرجوا الى ذلك الحين ثم قال له « لا تحص هذه في جملتهم » فوقع صوته في اذنها وقوع السهم في قلبها . فلم تتمالك ان رفعت بصرها اليه وحدقت به فقرأ في تلك النظرة ما يعجز الخطيب

عن ادائه في خطاب ولا يستطيع الكاتب التعبير عنه في كتاب ـ قرأ فيها الاستعطاف والاستنصار والحب والاستسلام مع الانفة وعزة النفس فاجابها بنظرة قرأت فيها جواباً صريحاً على ما يتمناه قلبها فاطمأن بالها ـ حدث ذلك كله في لحظة والناس حولها في غفلة بين باك ونادب وراج وخائف ـ اما هانىء فحالما وقع نظره عليها صمم على ان يستأثر بها لنفسه . ثم اكبر ان يتخذها سبية لما آنس من هيبتها وجمالها فعزم ان يقترن بها . ولم يكن قد تزوج ولا حدثته نفسه بالزواج الى ذلك الحين لاشتغاله بالجهاد منذ نعومة اظفاره في بلاد الافرنج التماساً لفتح أوربا . ولذلك فلما دعاه عبد الرحمن الى تلك الحرب لبي سريعاً . فلما احس بحرك قلبه لم يتمالك عن التفكير بالزواج — والغالب في طالبي الزواج ان يلتمسوه على هذه الصورة . فربما قضى أحدهم الاعوام الطوال وهو لا يري الزواج ولا يسعى فيه فاذا تحرك قلبه بنظرة او كلمة بذل جهده في سبيله — ولذلك فان هانئاً افرد الفتاة وبعد الفراغ من البيع سار الى استلامها بنفسه . ولم يعهد بذلك الى احد من رجاله مبالغة في الحرص عليها

فلما ثنى عنان جواده نحو ذلك المكان رأى بالقرب منه فارساً عرف بنور الشفق من شكل الفرس وعدته انه بربري فاستحث جواده وهو مطمئن الخاطر على حبيبته لعلمه أنه ليس في جند المسلمين من يجسر على مخاطبتها بعد ان امر هو بافرادها . ولكن الغيرة من اقوى ظواهر الحب ومن اكبر الادلة عليه . وهي عمياء صماء لا تذعن للعقل ولا تصغي لنصحه ـ فاركض هانىء فرسه وقلبه يخفق غيرة وما لبث ان رأى الفارس قد وقف بجانب الفتاة وسمعه يهدد ويتوعد فساق جواده حتى تطايرت اطراف عباءته في الهواء وقبل الوصول اليهم عرف الفارس فناداه « بسطام » فالتفت بسطام وعيناه تقدحان شرراً وهو يقول « ما بالك أيها الامير . . . ؟ »

قال « تنحَّ عن هاتين فاني فرزتهما لنفسي »

قال « وكيف تفعل ذلك وهما غنيمتي . . »

ولو لم يكن هانىء قد علق بالفتاة وتعشقها لما جادله عليها ولكنه توقع ان يسترضي بسطاماً من باب آخر لعلمه بشره هؤلاء البرابرة للمال والغنائم

فابتسم وهو يقول « هب أنهما غنيمتك وقد رأيتني افردتهما لنفسي فتجاوز عنهما لي ولك عليَّ ما تطلبه من سهمي في الغنائم . . » قال ذلك وهو يتشاغل بتسوية عرف ادهمه اظهاراً للاستخفاف بالمسألة واخفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة

فاجابه بسطام وهو لا يقوى على كظم ما في نفسه « ذلك لا يمكنني واذا كان لا بد لك من مقاسمتي في هذه الغنيمة فانهما امرأتان خذ تلك وانا آخذ هذه » قال ذلك وأشار باصبعه اولاً الى الكبيرة ثم الى الفتاة

وكانت الفتاة واقفة بالقرب من رفيقتها وكلاهما صامتتان تنظران عاقبة ذلك الجدال ومن الغريب انه لم يبد في وجه تلك الفتاة شيء من امارات الخوف كانها وثقت بفوز حبيبها . ولكنها كانت اذا وقع بصره عليها ابتسمت وفي ابتسامها اطراء وتشجيع فاذا حولت بصرها نحو بسطام قرأ هانيء في شفتيها كل ملامح الاستخفاف والبغض — وقد ادرك هانيء ذلك منها رغم ما تقاطر من جيوش الظلام . فلما سمع بسطاماً يعرض المقاسمة على هذه الصورة اعظم استخفافه به فاجابه بصوت هادىء ولكن ملئه التهديد وقال « لا احب المقاسمة وانما هذه الفتاة لي فارجع الى معسكرك وخذ سهمك مما بعناء من الغنائم والاسرى والسبايا »

فازداد بسطام هياجاً ووقف على الركاب بغتة حتى اجفل جواده وصاح قائلاً « لا يمكن لاحد ان يأخذ غنيمتي مني ولو كان الامير عبد الله نفسه . . اما كفاكم معاشر العرب ما تسوموننا من الخسف فتستأثرون بكل شيء دوننا كأن غير العرب ليسو مسلمين — وأنت تعلم اني قادر على ان اعرقل مسعاكم وارجعكم على اعقابكم فلا تفتحون بلداً ولا تكسبون غنيمة . . »

فلما سمع هانيء ذلك التهديد كبر عليه أمره ولكنه تصور ما يترتب على مجافاته من الضرر . وهو يعلم ان بسطاماً لا يهمه الاسلام ولا المسلمين فاذا غضب وغضبت قبيلته تضعضع الجند وهذا ما لا يرضاه هانيء ولا عبد الرحمن على ان حدة الشباب غلبت عليه وانحى بين يدي حبيبته فلم يتمالك ان هم بسيفه فاستله وهجم على بسطام لا يبالي أي عضو يصيب منه . فاذا بالمرأة تقدمت

بثوبها الاسود وامسكت بعنان فرسه وخاطبته بالعربية قائلة « لا تقتتلا فما نحن غنيمة أحد وكفى خصاماً .. قالت ذلك بلسان اهل اليمن مع شيء من العجمة. فبغت الاميران وتعجبا لما سمعاه بالعربية

اما بسطام فانه ما زال مصمماً على طلبه وخصوصاً بعد ان سمع تهديد هانيء له بين يدي تلك الفتاة وهي تفهم العربية فقال لها « بل انما غنيمتي . . واذا شئت الانحياز الى هذا الامير فلا بأس واما هذه فانها لي . . » قال ذلك وانحنى عن سرجه وتطاول ومد يده الى الفتاة وهم ان يمسكها فتباعدت وهي تنظر اليه شزراً ولم تضطرب . فتبعها بفرسه فلما رأى هانيء تلك الجسارة لم يعد يتمالك عن الغضب وقد سره تباعد الفتاة لان في تباعدها تصريحاً بتفضيلها اياه ونفورها من بسطام . فاحس ان تعقله وكظمه لا ينفعان مع هذا البربري شيئاً فهمز جواده والسيف لا يزال مسلولا في يده فوثب الجواد وصهل كانه شارك فارسه بعواطفه وتباعدت المرأة وقلبها يختلج وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حوافر جواد يعدو نحوهم من جهة المعسكر وصوتاً ينادي « هانيء هانيء اغمد سيفك » فالتفتوا فاذا بالفارس قد اقبل حتى دنا منهم وقبل ان يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه انه الامير عبد الرحمن . فاستغربوا قدومه في تلك الساعة على حين غفلة وبغتوا ولم يفه احد منهم بكلمة ولم يتمالك هانيء عن اغماد سيفه

الفصل السادس

مريم

وكان عبد الرحمن ربع القامة جليل الطلعة صبوح الوجه عريض اللحية والجبهة قد خالط شعره بياض . وكان كبير العينين مع حدة وذكاء بغير جحوظ اقنى الانف وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة . فلما وصل استولى السكوت على الجميع فالتفت الى هانيء وقال « أراكم تختصمون وتفترقون وكان قلبي دلني على ذلك مذ سمعت بسطاماً يخاطب

رسوله في خيمتي نخفت النزاع بين أمراء هذا الجند ونحن في اشد الحاجة الى الاجتماع فرأيت رجوع بسطام فلما ابطأ اسرعت اليكم فاحمد الله على ذلك »

فاعجب الجميع لسهر هـذا الامير على مصلحة جنده وسعيه في جمع كلمته واحس هانئ بتوبيخ ضميره لانه تعاهد هو وعبد الرحمن على الاتحاد والاجتماع كما تقدم فقال « لم اكن لاخاصم مسلماً على شيء وان عزّ ولـكن بسطاماً يعترضني في سبية اخترتها من بين مئات بعناهن الآن بيع السلع فلو اتنا بعناها لبعض اولئك اليهود فما الذي كان يفعله . . ؟ »

فاعترضه بسطام قائلاً « كنت افتديها من شاريها بالذي يرضيه »

فتقدمت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجأش رابط وقالت « اظنني واقفة بين يدي عبد الرحمن الغافقي امير هذا الجند ؟ . . »

فاستغرب عبد الرحمن تكلمها بالعربية وقال . نعم اني هو . وكيف عرفت ذلك

قالت « عرفتك من سهرك على اجتماع جنـدك وقد كنت اسمع ذلك عنك — ان الاميرين يختصمان علينا وما نحن لواحد منهما ولـكن لنا امراً نعرضه على الامير »

• فرآها عبد الرحمن تخاطبه بجسارة لا تكون في الاسرى او السبايا فهابها وزاده تهيباً ما آنسه من رزانتها وبساطة لباسها وسواده ووقعت عينه في اثناء ذلك على الفتاة فاعجبه جمالها ومال بكليته الى استطلاع حقيقتها فقال للمرأة « قولي ما بدا لك »

قالت « لا اقول شيئاً الآن وانما اقص حديثي على الامير في خلوة »

وكان في ركاب عبد الرحمن رجلان من خاصته فامرهما ان يأتيا بفرسين يحملان المرأة ورفيقتها الى فسطاطه على انه لم يتمالك وهو ينتظر قدوم الفرسين عن سؤال المرأة عن رفيقتها من هي فقالت « هي ابنتي »

وكان هانئ واقفاً صامتاً وقد وقع في حيرة من امر الفتاة وامها وخاف ان يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها وقد ازداد تعلقاً بها بعد ما عاينه من رغبتها فيه واحسّ انها تحبه حباً شديداً فاغتنم اشتغال الامير بخطاب

المرأة ودنا من الفتاة وأراد ان يسمع حديثها ويستطلع امرها فقال وصوته يدل على هيامه « ما اسمك يا فتية . . ؟ »

فاجابته بصوت دل على لواعج الحب وبلسان عربي فصيح «اسمي مريم» فاعجبته غنة صوتها وزاد افتتانه بها للثغة في لسانها تنطق بها الراء غيناً فكانه سمعها تقول « اسمي مغيم » فقال« وانا اسمي هانئ . هل حفظته كما حفظت اسمك ؟ . »

فادركت مغزاه «وقالت لقد حفظته قبل ان اعرفه فكيف بعد ان عرفته ورأيت منه ما رأيته » ففرح بذكائها وسرعة خاطرها واطمأن باله من نحوها فاجابها وهو يقلد لثغتها تحبباً « اغجو ان تكون معغفة مباغكة »

فابتسمت مريم ابتسامة اخذت بمجامع قلبه وتوردت وجنتاها خجلاً واطرقت اطراق الحياء وتشاغلت باصلاح ذيل منطقتها

اما بسطام فكان يراهما يتكلمان والحنق يكاد يخنقه وهو لا يجسر على الكلام في حضرة الامير ولكنه اضمر لهما الشر . وبعد هنيهة جاء الجوادان فركبت مريم وامها وساقوا الخيول الى المعسكر وكان هانئ لا يرفع نظره عن مريم فرآها امتطت الفرس باسرع من لمح البصر كانها ولدت على ظهور الخيل فازداد هياماً بها . ولكنه ما زال موجساً من تلك الخلوة حتى اذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن وهي اكبر الخيم وفي بابها الاعلام التفت عبد الرحمن الى هانىء وقال « عد الى تدبير امر الجند وكن كعهدي فيك فاننا في بلاد العدو» والتفت الى بسطام وقال « وانت يا بسطام امير ذو بطش فامض الى شأنك وانس ما دار بينك وبين هانئ . اننا مقبلون على فتوح كثيرة وستصيب من الغنائم والسبايا ما يعوض عليك اضعاف هذه الخسارة »

فسار الاميران وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وامها للنزول فنزلتا ودخلتا الخيمة في اثره وفي يد الوالدة تلك المحفظة وقد شدتها الى زندها وقبضت عليها بكفها كانها تخاف ان يختطفها احد من يدها

الفصل السابع

الخلوة

فلما دخلوا الخيمة اشار عبد الرحمن الى من كان فيها من الامراء والحاشية فخرجوا جميعاً وبقي هو والمرأة وابنتها وقد تشوق لاستماع ذلك الحديث فجلس في صدر الخيمة على بساط ثمين كانوا قد خصوه به من غنائم ذلك اليوم واجلسهما بين يديه . فالتفت كل منهما بردائها الاسود والنقاب الاسود على رأسيهما . فنظر عبد الرحمن الى وجه المرأة على نور المصباح فرأى الجمال لا يزال بادياً في وجهها مع تجاوز سن الشباب . ونظر الى مريم فرأى بصره قد علق في عينيها الجذابتين وقد زادها التفكر والاطراق هيبة فسبح الخالق على ذلك الصنع العجيب . ثم غلب شوقه الى استماع تلك القصة فحول نظره الى المرأة فرأى الاهتمام ظاهراً في عينيها وهي تنتظر الاشارة للشروع في الكلام فقال لها عبد الرحمن « ممن انت يا أخية وما خبرك وما هو غرضك ؟ »

قالت « أما خبري فسأطلعك عليه في فرصة أخرى . واما غرضي فهو نصرة هذا الجند حتى تحقق امانيه »

• فلما سمع عبد الرحمن كلامها استغرب تلك الغيرة من امرأة لا يعرف من هي وقد توسم في كلامها وان كان عربياً شيئاً من العجمة . فاراد أن يستطلع حقيقتها فقال لها « ما الذي حملك على هذا الغرض وكلامك يدل على انك غير عربية وقيافتك ولباسك يدلان على انك غير مسلمة فلا يعقل أن يكون هذا هو غرضك فاصدقيني »

فنظرت اليه نظر الاستغراب وقالت « لم امثل بين يدي الامير عبد الرحمن الغافقي لالفق له حديثاً مكذوباً ولا ارى فراسته فيَّ صحيحة لأني وان كنت غير عربية ولا مسلمة فليس ثمة ما يمنع غيرتي على نصرة العرب أو المسلمين . وفي نفس هذه المدينة وفي غيرها من مدن النصارى والافرنج من يؤثر انتصار المسلمين العرب على انتصار النصارى الافرنج لاسباب لم اكن اظنها تخفى على مولاي الامير »

فاطرق عبد الرحمن وقد تضاعف استغرابه ولكنه صبر الى النهاية لعله يستنشق شيئاً في عرض الحديث يكشف له الحقيقة فقال لها « لم افهم مرادك . . . هل يتمنى أهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم ؟ »

قالت « كانوا يتمنون ذلك مذ سمعوا بحال الاسبان بعد دخولهم في حوزة العرب لانهم رأوهم انتقلوا تحت ظل الاسلام من الرق الى الحرية ومن الظلم الى العدالة »

قال « وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأي »

قالت « نعم »

قال « ولماذا . . ؟ ارجو الافصاح »

قالت « لا يخفى على مولاي أن المسلمين لما فتحوا اسبانيا منذ ٢٢ عاماً عاملوا اهلها بالرفق والحق فلم ينهبوا بيعة ولا سفكوا دماً بريئاً ومن اختار البقاء على دينه حافظوا على عهده ومن اعتنق الاسلام وكان عبداً فانه يصير حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم — وكان حكام القوط يعدون رعاياهم ملكاً لهم يستخدمونهم في منازلهم وحقولهم استخدام الارقاء فلما جاء المسلمون وفتحوا بلادهم خيروهم بين الاسلام والجزية وان من اسلم وكان عبداً صار حراً فتهافت جانب عظيم من أولئك الارقاء الى الاسلام استهلاكاً في سبيل الحرية لانها كانت عزيزة عندهم لا ينالها الا افراد قليلون مكافأة على شجاعة عظيمة أو خدمة ذات بال . ومع ذلك فان المعتقين في ايام القوط والرومان لم يكونوا يتمتعون بكل حقوق الاحرار وانما كانوا وسطاً بينهم وبين الارقاء . أما المسلمون فمن اسلم من رعاياهم عاملوه معاملة الاحرار تماماً ومن ظل على النصرانية تركوا له الحرية في معاطاة دينه وعاداته وآدابه وسائر معاملاته حتى الحكومة والقضاء [1] فاحس الاسبانيون أنهم انتقلوا بالفتح الاسلامي من الضيق الى الفرج ومن الرق الى الحرية فشاع ذلك في سائر انحاء هذه البلاد فرأى موسى بن نصير سهولة الفتح عليه لهذا السبب فعزم على اتمامه حتى يعود الى دمشق من طريق القسطنطينية بعد ان يفتح كل أوربا . ولكن المسلمين

---

(١) دوزي ج ٢

عجلوا عليه وعلى ابنه عبد العزيز رحمهما الله بما لا يخفى عليك . ولولا ذلك لتم الفتح للمسلمين من ذلك الحين ولكانت هذه البلاد التي جئتم لفتحها الآن ملكا لهم منذ نيف وعشرين سنة . ولكن الذين خلفوهما على امارة الاندلس كان معظمهم من اهل المطامع فاساؤا الى النصارى والى المسلمين من غير العرب ففسدت النيات وشاع خبر ذلك في هذه البلاد فاصبح فتحها صعباً لان اهلها لا يرون فائدة من الانتقال الى دولة غير دولتهم دينها غير دينهم »

الفصل الثامن

هانىء

ولما بلغت الى هنا توقفت وتنحنحت وتشاغلت بمسح فمها وعبد الرحمن ينظر اليها وهو يستغرب حديثها لما فيه من الحكمة وسعة الاطلاع وجعل يتأمل ملامحها ويفكر في من عسى أن تكون هذه المرأة وصبر لعل في خاتمة حديثها ما يكشف له القناع عن حقيقتها ولكنه اراد أن يستنطقها خلسة فاغتنم سكوتها وقال لها « يظهر لي انك اكثر اطلاعاً على حقيقة الاحوال من معظم رجالنا واشد غيرة على مصلحة المسلمين من المسلمين أنفسهم .. » ثم تنهد وقال « ان الامر الذي ذكرته يا أخية هو الواقع بعينه واظنك سمعت اني استدركته قبل اقدامي على هذا العمل فلم اخرج الى هذه الحرب حتى طفت مدن الاندلس وغيرها مما فتحه المسلمون من بلاد الافرنج (فرنسا) وتعهدت احكامها وعزلت الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابدلتهم برجال من اهل الدراية والحكمة ليحسنوا سياسة الناس على اختلاف النحل ورددت على النصارى كنائس كان بعض الامراء المسلمين قد اغتصبوها منهم وأعدت ما كان لهم من العهود من زمن موسى بن نصير وابنه عبد العزيز(1) ـ وقد بذلت الجهد في هذا السبيل لعلمي أن الاسلام يأمرنا بذلك وان الصحابة الاولين لم

(1) رينو . وروي ج ٣

يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح إلا بما كانوا يتوخونه من الرفق ومعاملة أهل الذمة بالحسنى والعدالة ..»

فقالت وهي تصلح نقابها والتفكير ظاهر في عينيها «قد علمت بكل ما فعلته وما تفعله وكل ما نويته وما تنويه ولذلك كنت اتوقع لك الظفر. ولكنني رأيت خلاف ما سمعته فصرت اخاف فشلك»

فقال وهو يستغرب حريتها وتعقلها «وكيف ذلك ؟ .»

قالت «أظنك تعلم ما اعلمه من هذا القبيل ويكفي ما شاهدته الان بنفسك ما بين هانىء وبسطام ألم يكد يسفك الدم بينهما من اجل هذه الفتاة ..» واشارت الى مريم وكانت جالسة بجانب والدتها تسمع حديثهما باهتمام وشوق كأنها لم تكن تعرف منه شيئاً

فلما سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل باصلاح شاربيه وحك عثنونه بين سبابته وابهامه وظهر التأثير في عينيه وجبينه . والتفت الى المرأة وهو يحاذر أن يتنهد وقال «ان ما رأيته انما هو من قبيل المنافسة بين اميرين على سبية جميلة وما ذلك بالامر الغريب .»

فضحكت ضحكة اغتصابية وقالت «الامير عبد الرحمن الغافقي لا يجهل أن سبب هذه المنافسة انما هو فساد نيات الامراء فيما بينهم لاختلاف اغراضهم في هذه الحملة لان اكثرهم جاءوا للنهب والسلب وخصوصاً البرابرة ومن على شاكلتهم — فهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد أو الفتح ولا يعرفون ما هو الاسلام . لانهم انما انتموا اليه رغبة في الغنائم ومن كان هذا غرضه لا يهمه رضي أهل البلاد أو غضبوا — يدلك على ذلك ما رأيته بنفسي في اثناء هذا الفتح اليوم فان بعض رجالكم لم يميزوا بين المنازل والكنائس ولا بين الرهبان والعامة . فقد نهبوا كنيسة بوردو وهي من اعظم كنائس الغاليين فاصبح هؤلاء فضلاً عن نفورهم من المسلمين يعتقدون أن صاحب هذه الكنيسة سينتقم لهم منكم»

فلم يتمالك عبد الرحمن عن قطع حديثها فقال «نهبوا الكنائس ؟ . نهبوها ؟ . رغم ما اوصيتهم به من المحافظة عليها واستبقاء كرامة القسس والرهبان ؟ . ثم

صفق وصاح « يا غلام » فدخل رجل من غلمانه الذين يقفون ببابه خفيف اللباس خفيف العضل ممن يقتنونهم للمراسلة ونحوها . فابتدره حال دخوله قائلا « ادع الامير هانئاً الساعة »

فاشار الغلام اشارة الطاعة وخرج فعجلت المرأة بالكلام قبل خروجه وقالت للامير « فاتني أن اطلب اليك الافراج عن خادمي فانه أخذ في جملة الاسرى على شيخوخته وعلى كونه عربياً »

فنادى عبد الرحمن الغلام فوقف فقال له « وقل للامير هانیء ان في الاسرى شيخاً » والتفت الى المرأة وقال « وما اسمه » . قالت « اسمه حسان » فقال « قل للامير أن في الاسرى شيخاً عربياً اسمه حسان فليأت به معه »

ولا تسل عن مريم عند ما سمعت اسم هانیء فانها أحست بنبضات قلبها بغتة وكانت جالسة مطرقة فتحركت واعتدلت في مجلسها ولو انتبه عبدالرحمن لوجهها لرأى فيه احمراراً يشف عن شاغل قلبي ظهرت آثاره في بريق عينيها

قضوا مدة غياب الرسول صامتين وخصوصاً عبد الرحمن فانه لبث مطرقاً وهو يلاعب لحيته بين اصابعه ببطء كأنه يخاف العجلة ان تشوش على مجاري افكاره فتقطعها أو تعترضها وسكتت المرأة تهيباً لمنظر عبد الرحمن . وبعد قليل سمعوا وقع حوافر جواد ثم سمعوا صهيله فعرف عبد الرحمن انه صهيل الادهم وان هانئاً قادم . ولم تمض هنيهة حتى دخل ذلك الغلام وقال « ان الامير هانئاً بالباب »

قال عبد الرحمن « يدخل »

وقبل ان يرجع الرسول بالاذن اقبل هانیء كأنه دخل الى بيته نظراً للدالة التي كانت له على الامير وكان لا يزال بثوبه الاحمر وسيفه المرصع وسائر سلاحه . فلما رآه عبد الرحمن داخلا لم يتمالك ان بش ورحب به ودعاه الى القعود بجانبه فقعد وبصره في مريم ووالدتها ولكنه تشاغل بالالتفاف بعباءته وهو يصلح مجلسه . اما مريم فانها اطرقت حياءً وعيناها تسترقان النظر الى هانیء وتراعي كل حركة من حركاته. ودخل في اثر هانیء شيخ طاعن

في السن عليه لباس اهل غاليا وعلى رأسه عمامة صغيرة وقد شاب شعره مع كثاثة واسترسلت لحيته كثيفة وخف عضله وتغضنت جبهته وتجعد خداه ورقبته حتى يتوهم الناظر اليه انه في حدود التسعين واذا تكلم او مشى اوهمك لخفة حركته وشدة عارضته انه في ما دون الستين . فدخل الخيمة وعليه قباء الى الركبة بعضه مبطن بالجلد . واما ساقاه فكانتا عاريتين وقد غشاهما شعر كثيف لا يبان الجلد من تحته وقد شد بقدميه نعلين من صنع بوردو — ووقف الشيخ بباب الفسطاط فلما رآه عبد الرحمن اشار اليه أن يقعد فقعد هناك متأدباً . اما هانئ فلما قعد قال له عبد الرحمن « اظنك تعبت في هذا اليوم يا هانئ »

قال « ما في الحرب من تعب اذا كانت خاتمتها النصر كما كانت خاتمة حربنا مع هذه المدينة بعون الله وسيف الامير عبد الرحمن »

قال « لم يكن لعبد الرحمن يد في هذا النصر وانما تم بك وبرجالك وسائر المسلمين . على اني لم ادعك للبحث في ذلك وانما دعوتك لامر ذي بال فارعني سمعك »

فاصاخ هانئ بسمعه وتطاول بعنقه وقال « قل »

قال « أتعلم السبب الذي ساعد المسلمين على فتح الدنيا من ايام الصحابة الى اليوم . . »

قال « اعلم ان الله نصرهم بالاتحاد والاجتماع وهذا هو الامر الذي نتوخاه في كل حركة من حركاتنا »

قال « انا أعلم ذلك واعتقد انك اكبر مساعد لي في جمع كلمة هذا الجند الكبير المختلف المقاصد والاغراض وتحتمل معي مضض التوفيق بين تلك المختلفات والمتناقضات ولكن هناك سبب آخر ساعد السلف الصالحين على الفتح وايد دولتهم . أتعلم ما هو ؟ »

الفصل التاسع

بسطام

فاطرق هانئ واعمل فكرته وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستعجل جوابه فقال هانئ « الذي اعلمه ان دولة الاسلام تأيدت بالعدل والرفق »

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « ذلك هو بعينه . لان العدل اساس الملك والرفق بالرعية يدعوهم الى الطاعة والمحبة وخصوصاً اهل الذمة من النصارى واليهود وعلى الاخص الرهبان والقسس اصحاب البيع والكنائس – فقد ورد النهي عن اذيتهم في كتاب الله وفي حديث رسول الله ولذلك كان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جنداً الى حرب اوصوهم باهل الذمة خيراً ومنعوهم من اذيتهم وأمروهم بالكف عن الكنائس واصحابها (١) ألا تعلم ذلك . . ؟ »

قال « نعم اعلمه جيداً ونحن طالما تحادثنا في ما فرط من بعض الخلفاء وامراء الاندلس من هذا القبيل وتواثقنا على منعه »

قال « فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو في هذا النهار ونهب آنيتها واذية رهبانها ؟ »

فظهر الغضب في وجه هانئ مع الاستغراب واطرق لحظة ثم هز رأسه وهو يقول « قبح الله بسطاماً ما اطمعه وما اقل طاعته . . اني نهيته بنفسي عن هذا الامر ونحن في اثناء الواقعة بعد ان رأيت منه ومن رجاله ميلاً الى النهب بلا مراعاة وقد علمت بما في كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب فخفت ان تسوقه المطامع وتسوق احداً من قبيلته الى نهبها فاستوقفته في وسط المعركة وقلت له احذر ان يجرأ احد من رجالك على الكنائس او المعابد او القسس ونحوه . فاجابني بالسكوت فظننت من تلك الساعة انه لا ينوي الاجابة لما تعلمه من طمعه وقسوته و . . »

فابتدره عبد الرحمن قائلاً « أتظن تلك فعلة بسطام ؟ »

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٦٧ ج ١

قال « لا اظن أحداً بعواه يجرأ على ذلك بعد ما كان من تشديدنا في منعه . وقد رأيت مع بعض رجاله في اثناء قسمة الغنائم صلباناً من ذهب ومباخر من فضة مما لا يكون في غير الكنائس »

فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل فقال « ادع الامير بسطاماً »

وبعد خروج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانىء وقال « لا تخف من غضب عليه فاني سأخاطبه باللين لما اعلمه من فظاظته وغلظه والا أفسدنا الجند علينا »

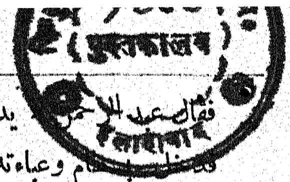
فقالت المرأة « ما بالكم ولهذا النصير الخطير . ما كان أغناكم عنه وعن قبيلته »

فتنهد عبد الرحمن وقال « لو شئنا أن ننقي جندنا من أمثال هؤلاء الغلاظ لاقتضى أن نجرده من أشد رجاله واكثرهم عدداً لان في جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط وانباط وغيرهم وفيهم من لا يزال على اليهودية او النصرانية أو الوثنية أو المجوسية وانما يتظاهرون بالاسلام[1] — والبربر من اشجع الامم لا يهابون الموت ولا يخافون العدد — والحق يقال انهم هم الذين فتحوا لنا اسبانيا وسلموها الينا ولو أردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هذا الفتح لان العرب لا يزالون الى اليوم قليلي العدد بالنظر الى مثل هذا المشروع العظيم . فاستخدام البربر في هذه الحروب يفيدنا كثيراً وانما يطلب منا ان نحسن السياسة في معاملتهم لئلا نغضبهم وهم انما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها وهذا أمر ميسور لهم لاننا كثيراً ما نتنازل لهم عن الغنيمة لنطمعهم في الجهاد لمصلحة المسلمين وان لم يكونوا كلهم مسلمين في قلوبهم »

فاعجبت تلك المرأة بتعقل عبد الرحمن وسعة صدره وقالت له « اخلق بجند أنت قائده أن يعود ظافراً منصوراً »

فلما سمع ذلك الاطناب مال بيمناه الى هانىء والقى يده على كتفه وقال « هذا هو يدنا اليمنى لانه قائد فرساننا » فخجل هانىء لهذا الاطراء واراد أن يعتذر واذا بالرسول قد دخل وهو يقول « الامير بسطام في الباب »

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١



فقال عبد الرحمن « يدخل »

فدخل بسطام وعباءته مطلقة من الامام وسيفه يجر وراءه وعمامته مع صغرها منحرفة من جانب رأسه الى الاذن وفي يده عنقود من العنب كان يأكله في اثناء الطريق فلما رأى نفسه في حضرة الامير تراجع ورمى تلك البقية وعاد وفي مشيته ومجمل منظره تيه واعجاب . ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع مخاطبة عبد الرحمن الا بالاحترام لانه على كونه اميره لم يكن يسمع منه الا كل ما يطيب خاطره ويدعوه الى احترامه لما قدمناه من حسن سياسة عبد الرحمن ورقة جانبه — وربما توهم بعضهم ان الرئاسة انما يتأيد نفوذ صاحبها بالغلظة والكبرياء وشدة الوطأة ولكن ذلك من الاوهام الباطلة لان الرئيس الشديد الوطأة قد يملك السنة مرؤوسيه واما الوديع الرقيق الجانب فانه يملك قلوبهم ورقابهم — فلما دخل بسطام حيًّا فبش له عبد الرحمن ودعاه للقعود فقعد وهو يجيل نظره في اطراف الخيمة فرأى مريم وهانئاً فتوهم لاول وهلة انه دعي لامر يتعلق بهما ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه قائلاً « دعوناك يا أمير لنسألك عن امر يهمك كما يهمنا لان المصلحة واحدة وهي رفع منار الاسلام وتأييد كلمة الله . . »

فانشرح قلب بسطام لهذا الاطناب لان البربر لم يكن العرب يعاملهم الا معاملة الموالي كما تقدم فلما سمع بسطام ذلك الكلام قال « يأمر الامير بما يشاء وله ما يرضيه مني فاني اطوع له من بنانه »

قال « بورك فيك نفع المسلمين بسيفك . . أما الامر الذي استقدمناك لاجله فهو ان بعض نصارى هذه المدينة يشكون مما أصاب بيعتهم من النهب وهم كما لا يخفى عليك أهل كتاب قد اوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم وبيعهم وخصوصاً اننا في احوال تقضي علينا بمحاسنة اهل هذه البلاد حتى يهون علينا الفتح ونحن سائرون الى بلاد امنع ورجال أشد من أهل هذا البلد . فاذا اعتقدوا فينا الرفق والعدل ساعدونا ـ ولذلك كنت كثيراً ما اوصيكم بالاغضاء عن اماكن العبادة على يد اخينا الامير هانىء . فاذا كنت على بينة من امر تلك البيعة ونهبها ارجو ان تسعى في رد ما نهب من آنيتها وادواتها . . »

الفصل العاشر

العرب في أسر الافرنج

فقال بسطام « لا انكر على الامير سداد رأيه في هذا الشأن وقد كنا الى اليوم ونحن نراعي هذه القاعدة ونحترم البيع حتى رأيت في هذا الصباح أمراً اقشعر له بدني ولم اتمالك عن الانتقام بنهب تلك الكنيسة ـ رأيت في بعض منازل هذه المدينة رجال من المسلمين وغلماناً ونساء يستخدمهم اهلها استخدام العبيد الارقاء ... نعم لا انكر حقهم في ذلك لاننا نفعل باسرائهم مثل هذا الفعل . ولكنني رأيت بعض الاسرى المسلمين مقيدين بالاغلال الحديد في ارجلهم والاحمال الثقيلة على ظهورهم وقد ساقوهم الى العمل في الكروم سوق الدواب [1] فلم اتمالك عند مشاهدتي هذه القسوة من الانتقام بنهب كل ما تقع يديّ عليه ـ لم استثن كنيسة ولا ديراً . . »

فلما بلغ بسطام الى هذا الحد التفت عبد الرحمن الى المرأة كأنه يستفتيها في ذلك فقالت « لا انكر على مولاي ان معاملة الافرنج لاسراهم من العرب اكثر شدة من معاملة المسلمين لاسراهم من الافرنج وان تساوى الفريقان من اعتبار الاسرى ملكاً للغالبين يبيعونهم بيع السلع ومتى دخل الاسير في حوزة مالكه استعمله في ما ينفعه من فلاحة او زراعة او خدمة في شيء ولا يزالون عبيداً هم واولادهم الى سلالات عديدة حتى يفتديهم اهلهم او اصدقاؤهم بالمال او غيره . أما المسلمون فان رجوع الاسرى الى الحرية عندهم اسهل مما عند الافرنج وأما تقيدهم بالسلاسل فالغرض منه على ما اظن منعهم من الفرار وربما حاولوه مرة ولم يظفروا فاثقلوهم بالاغلال ليمنعوهم منه »

فقطع عبد الرحمن كلامها ووجه خطابه الى بسطام قائلا « هب انهم فعلوا ما تقول فالعبرة في النتيجة واذا كنا نأتي مثل ما اتاه هؤلاء فاي فضل لنا وبماذا نتوقع النصر في الدنيا والنعيم في الاخرة . فالذي يهمنا أن نعمل بمقتضى

(١) رينو

الكتاب والسنة ونقتدي بالسلف الصالحين . وزد على ذلك أن طمعنا بالقليل من الغنائم قد يأول الى فشلنا ويقف في سبيل الفتح فنخسر اضعاف تلك الغنائم ناهيك بالفشل وما قد يلحقنا بسببه من العار» ثم وجه خطابه الى هانىء وقد بدا الاهتمام بين حاجبيه وقال « لا يخفى عليكم اننا ساعون في عمل اثمن كثيراً من الذهب والفضة والآنية واعظم من ان يُماس بالحطام الفانية . نحن ساعون في فتح هذا العالم الكبير — فاذا وفقنا في فتحه كسبنا الاموال والارواح ونشرنا الاسلام في قبائل من النصرانية والوثنية لا يحصيها الا الله فنملك المدن والرقاب وتخفق رايتنا على رومية والقسطنطينية وغيرهما من عواصم النصرانية ويصير صعلوكنا اميراً وفقيرنا غنياً فتحرز يا هانىء ما شئت من الذهب والفضة والجوهر وتملك ما تريده من الجواري والغلمان . واذا كنت مخطئاً في قولي فنبهوني »

فادرك هانىء ان عبد الرحمن انما ينتظر الجواب من بسطام احتيالاً عليه في اجابة الطلب فقال بسطام وقد سحر بلطف عبد الرحمن وتخيته « انك مصيب كل الاصابة والحق يقال ان البربر وغيرهم من الموالي لم ينتصفوا في حقوقهم بازاء العرب مثل انتصافهم في ايامك . لقد كان اسلافك ولا يزال كثيرون من امراء العرب الى اليوم يعدون المسلمين من غير العرب عبيداً فاذا حاربوا معهم في واقعة لا يقاسمونهم الغنائم كما يقاسمون العرب[1] فلا تظننا غافلين عن هذا الفضل »

فقطع عبد الرحمن حديثه قائلاً « لم اعامل غير العرب الا بالعدل لان المسلمين اخوة . والآن اسرع الى الغنيمة قبل اقتسامها ومعك الامير هانىء فاستخرجوا آنية الكنيسة واحملوها الينا لننظر في اعادتها الى اصحابها »

خرج بسطام وهو منتفخ الصدر بما آنسه من الرعاية والاطراء ونسي ما كان في نفسه على هانىء بشأن مريم — واهل الفظاظة والخشونة من اقرب

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

الناس الى المصافاة لخلو قلوبهم من نتائج الكظم فاذا ساءهم احد بعمل جاهروا بما في نفوسهم عليه فهم لا يحقدون . وخصوصاً في حال مثل حال بسطام بالنظر الى مريم فانه كان يطلبها لانه استلطفها ووعد نفسه بها ولكنه لم يعاق بحبها كما فعل هانئ . اما هذا فانه سار في اثر بسطام وظل قلبه في ذلك الفسطاط او لعله استعاض منه بقلب مريم لانها احست عند خروجه كأن قلبها اقتلع من صدرها وخافت الفضيحة لظهور اثر ذلك على وجهها فتشاغلت باصلاح الخمار الاسود

فلما خرج الاميران التفتت المرأة الى عبد الرحمن وقالت يأذن مولاي الامير بارسال فتاتي هذه مع هذا الشيخ الى مقر تقيم فيه تحت حمايتك ريثما اتم حديثي معك ونرى ما يكون »

فصفق عبد الرحمن وصاح « يا غلام » فدخل احد الغلمان فقال « شيع هذا الشيخ وهذه الفتاة الى خباء نسائي واوص قيمة الخباء باكرامها وان لا تعدها في جملة الجواري وانما هي ضيفة علينا اكرامها ورعايتها »

فاستحسنت المرأة ذلك والتفتت الى حسان وقالت « سر يا عماه مع مريم في حياطة مولانا الامير وكن معها حتى آتيك »

فاشار مطيعاً وخرج وهو يتوكأ على عكازه .وخرجت مريم في اثره والغلام امامهما

الفصل الحادي عشر

بعض السر

فلما رأى عبد الرحمن من تلك المرأة التماس الخلوة توهم انها ستطلعه على سرها فلما خلوا بادأها هو بالكلام قائلاً « اطلعيني يا اخية على اسمك قبل كل شيء . لاناديك به على الاقل »

قالت « اذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمي فنادني سالمة »

قال « لقد ادهشني يا سالمة ما رأيته من غريب شأنك واراني كلما سمعت

حديثك أزداد رغبة في استطلاع حقيقة امرك . وكاني بك قد التمست الخلوة رغبة في مكاشفتي بسرك »

فاصلحت سالمة من شأنها والتفت بثوبها وأخفت يديها في كمها وفيه المحفظة ونظرت الى عبد الرحمن والاهتمام باد في عينيها وقالت « اعلم ايها الامير انك تخاطب امرأة غير عربية وغير مسلمة ولكنها من أشد الناس غيرة على العرب وعلى المسلمين . واستأذن مولاي الامير بالاقتصار على ما عرفه من امري لاسباب ستبدو له قريباً ان شاء الله . وأما الآن فاني اهب نفسي لخدمة المشروع الذي قمتم لاجله فابذل ما في وسعي في سبيله »

فاستغرب عبد الرحمن تسترها وخاف أن يكون من ورائه خديعة أو دسيسة فقال لها « ومن يضمن لنا انك تقولين الصدق ؟ »

قالت « لقد اعجبني سوء ظنك فيَّ . ولو لم يبد ذلك منك لاستضعفتك لان من كان قائداً لمثل هذا الجند الكبير لا ينجو من أهل الخداع والدسائس فان لم يسيء الظن في كل أحد بات في خطر من دسائسهم . اما دعواي فلو صرحت لك بامري لهان عليك تصديقها وأما الآن فيكفي دليلاً على صدق ما اقول ان اجعل ابنتي ووحيدتي رهناً بين يديك فان بدرت مني بادرة تدل على الخيانة او الغدر افعل بها ما شئت »

وكأن كلام سالمة نبهه الى ما يحدق به من اسباب الخداع والمكر فبالغ في اساءة الظن بها فقال لها « ومن يؤكد لنا انها ابنتك فان الشبه بعيد بينكما . ويظهر انها عربية وما انت كذلك »

فاطرقت سالمة هنيهة ثم قالت « اما هذا فلا سبيل الى اثباته بغير الاستفهام من الفتاة نفسها والخادم الشيخ فانه عربي مسلم وهو وحده المطلع على سري ولكنه لا يبوح به الا في حينه فاسألوه . قالت ذلك ودلائل الاخلاص وصدق اللهجة يتجليان في عينيها وبما بدا في وجهها من امارات الحياء والاهتمام

فتحقق عبد الرحمن بفراسته انها تقول الصدق فاكتفى بقولها وقال « لقد صدقتك يا سالمة فاخبريني متى يأذن كشف سرك »

قالت « وكشف هذا السر غير مقيد بزمان وانما هو مرهون بحادث لا يجوز كشفه الا بعد حدوثه »

قال « وما هو ذلك الحادث »

قالت « لا اقوله الان وانما يقربنا منه صدق النية في فتح هذه البلاد وسرعة النجاز وهذا هو الامر الذي وهبت نفسي له فاذا اذن مولاي أن اساعده فيه فعلت »

فلبث عبد الرحمن ساكتاً وهو مطرق يفكر في ما سمعه ويحلله في ذهنه فرأى مفتاح السر كله في معرفة والد الفتاة مريم فرفع بصره الى سالمة وقال وهو يلاعب أطراف حمائل السيف بين أنامله « لا بأس من تأجيل خبرك وانما التمس منك أمراً هل تصدقينني فيه . . »

قالت « اذا استطعت ذلك فعلته »

قال « اريد منك فقط أن تخبريني من هو والد هذه الفتاة وأين هو ؟ »

فلما سمعت سؤاله بغتت وتصاعد الدم الى وجهها وتغيرت سحنتها وبدت الـكآبة في جبينها وحول فمها واطرقت مدة لا تتكلم ثم رفعت بصرها اليه وقد أبرقت عيناها بما غشاها من الدمع وقالت « تسألني عن مكان ابيها وأنت تراني في هذا الثوب الاسود ؟ » . قالت ذلك وأمسكت طرف الخمار بين الابهام والسبابة وقد غصت بريقها

فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان فقال « لم يكن مرادي تذكيرك بمصابك بوفاة زوجك وانما أردت معرفة اسمه — ولا أرى مانعاً من اطلاعي عليه ونحن في خلوة ليس فيها ثالث واعاهدك على كتمان ذلك عن كل انسان . لا اطلب منك الاطلاع على سرك وانما اريد معرفة زوجك » قال ذلك وهو يتوقع اجابته على سؤاله

أما هي فلما رأت الحاحه في معرفة اسم زوجها بدا الغضب في وجهها وقالت « يظهر اني اخطأت في عرض نفسي لخدمتكم حتى لاقيت ما اراه من الالحاح عليَّ والضغط على افكاري . لو كان التصريح باسم ذلك المسكين ممكناً

لفعلت ولم اكلفك هذا العناء في السؤال ثم اني لا ارى فائدة من ذكره الآن وسيأتي وقت تعرف فيه كل شيء »

فاستغرب عبد الرحمن تكتمها وازداد رغبة في معرفة سرها ولكنه لم يرَ الزامها ذلك قهراً مراعاة لحاساتها وطمعاً في الانتفاع من خدمتها فجاءها من جهة أخرى فقال « حسناً بقي سؤال واحد ارجو أن لا يكون حظي في الجواب عليه مثل حظي في سواه ـ هل اقوله ؟ »

قالت « قل ما بدا لك »

قال « أرى ابنتك من الجمال في ما ليس بعده غاية وهي في سن الزواج وانت وحيدة فلماذا لم تزوجيها بشاب تعيشين في حمايته . ولا ريب عندي انك تجدين من الطلاب من تقر به عينك لما هي عليه من الجمال والهيبة »

فالتفتت سالمة وقد انقشعت علامات الكآبة عن محياها وتحول انقباضها الى الانبساط وقالت « اما هذا السؤال فلا بأس من الجواب عليه »

فاستبشر عبد الرحمن وقال « وما هو »

قالت « ان الابنة مخطوبة منذ طفولتها »

قال « لمن »

قالت « لرجل مسلم يغار على الاسلام والمسلمين ويكره الظلم والظالمين باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس »

قال « وما اسمه »

قالت « لست على يقين من معرفة اسمه الآن »

قال « وهل تعرفه ابنتك »

قال « لا اعرفه انا ولا تعرفه هي ولا يعرفه أحد سوانا »

فدهش عبد الرحمن لتلك المعميات وقال « كيف يكون ذلك يا سالمة . يظهر انك تمزحين أو تدافعين بالباطل »

قالت « اقسم بالرب المعبود اني اقول الصدق »

فقال « وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسما ولا لقباً »

قالت « اما لقبه فاننا نعرفه »

قال « وما هو »

قالت « يلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف . ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل »

ففهم عبد الرحمن انها تريده هو اذ لا يصدق ذلك اللقب على سواه ولذلك اراد أن يتحقق ظنه فقال وهو يتجاهل مرادها « ومتى يكون الاقتران واين »

قالت « يجوز الاقتران في اي وقت اراده الخطيب ولكنه لا يكون الا وراء نهر لوار » قالت ذلك وهي تنظر في عيني عبد الرحمن نظر مستفهم كأنها تقول له « هل فهمت من هو »

الفصل الثاني عشر

نهر لوار

فادرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الاقتران بذلك المكان تعجيل الفتح حتى يقطع المسلمون نهر لوار وهو آخر حدود اكيتانيا من جهة الشمال في الطريق الذي هم سائرون فيه . فثار في خاطره حب الفتح واحس من تلك الساعة بميل الى مريم بنت سالمة وكان قد استلطفها منذ شاهدها في ذلك المساء وهو في شاغل من امر الحرب والنصر وتنظيم الشؤون فلما سمع ما قالته سالمة وتذكر الفتاة وما في عينيها من الجواذب فشعر بميل اليها احياه فيه الامل بالحصول عليها — وذلك طبيعيٌ في الناس في مثل هذه الحال فقد يرى احدهم الفتاة مراراً ويستلطفها ولكنه لسبب من الاسباب لا يرجو الحصول عليها فاذا تنسم خبراً ينبه فيه عاطفة الامل بالحصول عليها يشعر للحال بانعطاف ينمو فيه حتى يصير شغفاً . ولا تنحصر هذه القاعدة في الحب ونحوه بل هي تطلق على سائر مطامع بني الانسان باعتبار اميالهم . فقد يكون احدهم محباً للسلطة مثلاً ولا يكون له مطمع فيها لتقاصره عنها بضعفه او فقره فاذا ظهر له من

بعض ثقاته اعتقاد امكان ذلك له شغف به وبذل نفسه في الحصول عليه — وقد اصاب عبد الرحمن الغرضين معاً لان عبارة سالمة نشطته لتمام الفتح واحيت فيه الميل الى مريم فاكتفى بما دار من هذا القبيل لئلا تظهر منه خفة في هذا الموضوع . فتجاهل وعاد الى مجاراتها في كتمان اسم زوجها وغرضها من الاستهلاك في مساعدتهم على امل استطلاع ذلك في فرصة اخرى وقال لها « دعينا الآن من هذا واخبريني ما الذي تنوين مساعدتنا فيه من اسباب هذا الفتح »

قالت « ليس لي سيف اناضل به عنكم او اشترك فيه معكم ولكنني خبرت طبيعة هذه البلاد وعرفت من احوالها ما لو عرفه المسلمون لفتحوها على اهون سبيل »

فقال « وما ذاك »

قالت « هل يخفى على الامير عبد الرحمن ان الغاليين اهل هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليمنعوكم منها ؟ . وان الدوق اود حاكم اكيتانيا هذه وجنده ليسوا اقرب الى قلوب الغاليين من قائد جند المسلمين ورجاله ؟ » .

قال « وكيف ذلك ؟ »

قالت « ان سكان هذه البلاد اخلاط من الروم والغال . ومعنى ذلك ان الغاليين اهل هذه البلاد الاصليين كانوا أمة كبيرة ظلوا في حال البداوة والاستقلال حتى جاءهم الروم في القرن الاول قبل الميلاد ففتحوها على يد يوليوس قيصر القائد الشهير وما زالت في حوزتهم نحو خمسة قرون وقد تضعضعت دولة الروم فهاجمتها قبائل الجرمان من الشمال كما هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب . الافرنج احدى قبائل الجرمان فتحوا غاليا هذه واستولوا عليها ويعرف حكامهم بعائلة ميروفي نسبة الى اول من تولاها منهم . وتوالى الحكم في هذه العائلة الى الامس وقد افضى الامر الى ملوك ضعفاء طمع فيهم وزراؤهم وامراؤهم فاقتسموا البلاد بينهم . ومن اقسامها اكتانيا التي نحن فيها وآخر حدودها من الشمال نهر لوار ويحكمها الدوق اود صاحبكم

ثم اوستراسيا وراءهذا النهر وحاكمها شارل (قارله) وزير آخر ملوك الميروفية وكلاهما من قبائل الفرنك . ولكن كلاً منهما ينظر الى الآخر بعين الحذر والاهالي ينظرون الى كليهما بعين المقت لعلمهم انما يرغبون في فتح بلادهم للتمتع بها - ثم جئتم انتم والفتح اما لكم واما لهم . فالغاليون محكومون في الحالين ولا يهمهم لمن تكون الغلبة من الجندين الا اذا رأوا في أحدهما مزية على الآخر بالنظر الى مصلحتهم وراحتهم »

فلم يتمالك عبدالرحمن أن قطع حديثها بقوله « وبالطبع هم يفضلون الافرنج لأنهم نصارى مثلهم »

فابتسمت سالمة وقالت « ليس الامر كذلك يا مولاي . ان الدين لا دخل له في هذه الحرب وانما ساق قبائل الافرنج الى هذا الفتح حب السلطة والطمع في الكسب ولذلك فانهم انقسموا فيما بينهم فان اود حاكم اكيتانيا التي نحن فيها الآن يحاذر من شارل حاكم أوستراسيا كما قدمت ويخاف سلطانه وكل منهما يجتهد في تبغيض الآخر الى الاهالي - وهؤلاء يبغضون كليهما لانهم لم يروا من معاملتهم ما يبشرهم براحة لما تعلمونه من عادتهم في استعباد الرعية وابتزاز اموالهم وسائر قواهم - خلافاً للعرب عند اول الفتح فأنهم لما فتحوا اسبانيا تركوا لاهلها الحرية في كل معاملاتهم ولم يتعرضوا لهم في شيء من دينهم وأفضل امراء المسلمين في ذلك موسى بن نصير وأبنه عبد العزيز وخصوصاً هذا الاخير ولو لم يعجلوا عليه رحمه الله لفتحت هذه البلاد على يده. اذ احس الاسبان في ايامه انهم انتقلوا من الضيق الى الفرج ولكنهم ما لبثوا ان ذاقوا مرارة الظلم من بعض الذين خلفوه من امراء المسلمين ثم افضت الامارة اليكم . وبلغني انكم سائرون على خطة ذلك الفاتح العظيم في محاسنة الناس وانصاف أهل الذمة ورعاية العهود معهم فيما يتعلق بكنائسهم ودياناتهم وقد تحقق لي ذلك الآن — فالغاليون اذا ضمنوا سلامتهم وسلامة أهلهم ومعائشهم على يد المسلمين فانهم يكونون عوناً لهم على الفتح . ولا تنس اليهود فانهم نصراؤكم في كل فتوحكم من اول ظهور الاسلام . فهؤلاء انما نصروكم لما تحققوا ما تنوونه من اسباب الراحة لهم وكذلك النصارى وغيرهم من اهل هذه البلاد . واما

ما يبدو لكم من شارات النصرانية والغيرة عليها فمحصور في طائفة الاكليروس ومن يهمهم نصرة الكنيسة من بقايا الرومان ومن انتمى اليهم من الغالين . اما قبائل الافرنج فبينهم من اتخذ الدين ذريعة للسلطة وكسب الاموال كما فعل بعض قبائل البربر وغيرهم من جنودكم »

فلما سمع عبد الرحمن قولها تحقق سداد رأيه في ما شرع فيه من محاسنة اهل الذمة وتوخي العدل والانصاف وقال « انت تعلمين اني فاعل ذلك من تلقاء نفسي فما الذي تفعلينه انتِ في هذا السبيل ؟ »

قالت « اني اقدم نفسي للذهاب في اي مهمة تفرضونها والافضل على ما ارى ان اتقدمكم في البلاد التي تنوون المسير لفتحها فاغرس في قلوب اهلها الاطمئنان للمسلمين وسلطانهم ويساعدني على ذلك مبالغتكم في اكرام نصارى بوردو وطمأنة قلوبهم ومحاسنتهم واحترام شعائر دينهم والمحافظة على اعراضهم وارواحهم فاذا فعلتم ذلك هان عليَّ اقناع اولئك ان المسلمين الفاتحين اهل حرمة وذمام يخافون الله ويعملون بالعدل وليس كما يتوهمهم بعض ذوي الاغراض ان المسلمين قساة القلوب لا دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات ولا حنان في قلوبهم يمنعهم من الظلم والعسف (١) — وقد حمل الناس على تصديق ذلك ما كان يرتكبه بعض الذين كانوا يرافقون جند المسلمين لمجرد الرغبة في النهب والقتل ولم يكن اميرهم حكيماً عاقلاً مثل عبد الرحمن ليصلح ما يفسدونه مما رأيناه منه في هذا المساء»

فازداد عبد الرحمن اعجاباً بتعقل تلك المرأة وغيرتها على المسلمين وقال « افعلي ما يتراءى لك واني فاعل بنصارى بوردو ما تريدينه فما الذي يرضيهم ؟ »

فقالت انما يرضيهم في الدرجة الاولى المحافظة على شعائرهم الدينية واستبقاء كنائسهم ومعابدهم ثم رد اسراهم بالافتداء على جاري العادة . وهناك امر ذو بال اوجه التفاتكم اليه وذلك ان بيع اسرى النصارى الى اليهود مما يسوء

---

(١) رومي ج ٣ رينو

النصارى لما تعلمه من الضغائن بين الطائفتين وخصوصاً بعد ما ظهر من ممالأة اليهود لكم وتسهيل الفتح عليكم »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلاً « ولكن اليهود تجار نبيعهم الاسرى بالمال فمن اراد من اهل البلاد ان يفتدي اسيره افتداه منهم بالمال »

قالت « ولكن بعض اليهود يبتاعون الاسرى للتنكيل بهم تشفياً مما كان النصارى يسومونهم اياه من قبل وكثيراً ما كان اليهود يبتاعون الاسرى النصارى ويذبحونهم صبراً (١) فتجنب هذا الامر مستحسن في كل حال »

الفصل الثالث عشر

الآنية

ولم تتم سالمة كلامها حتى سمعوا قرقعة وضوضاء خارج الفسطاط ثم دخل بعض الغلمان وهو يقول الامير هانيء بالباب ومعه اناس يحملون اكياساً »

ثم دخل هانيء ووراءه عبيد يحملون اكياساً وادوات وهو يقول « هذه ادوات الكنيسة لم نقدر على جمعها الا بعد شق الأنفس لانها كانت قد تفرقت في اصحاب الغنائم » قال ذلك وأمر الرجال أن يفرغوا ما في الاكياس بين يدي الامير ولم تمض لحظة حتى امتلأ البساط بالشمعدانات والصلبان والكؤوس وفيها الفضة والذهب فضلاً عن اصناف من المعالق والصحون والصور المذهبة والمفضضة وقطع من الذهب اقتلعوها عن الصور الكبرى التي لم يستطيعوا حملها وعن جدران الهيكل واساطينه

فلما خرج الحملة ولم يبق في الخيمة الا عبد الرحمن وهانيء وسالمة التفت عبد الرحمن الى سالمة وقال لها « هذه هي الآنية فماذا نفعل بها ؟ »

قالت « أرى ان ترسلها الى أسقف الكنيسة في بوردو مع رجل يخبره أن نهب هذه الكنيسة وقع بغير ارادتك . ثم يعتذر له عن ذلك ويخبره بان الاسرى باقون الى مساء الغد في هذا المعسكر فمن اراد أن يفتدي اسيره افتداه

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١

ولا حرج عليه . وبعد رجوع الرسول اذهب انا الى الاسقف فاغتنم اعجابه برفق المسلمين وعدلهم واطلب اليه المساعدة في اقناع أهل البلاد الاخرى الواقعة في طريقكم الى نهر لوار بالمراسلة أن المسلمين ارفق بهم من الافرنج بل هم يكونون في حوزة المسلمين احراراً في دياناتهم وعاداتهم وحكومتهم وقضائهم وسائر احوالهم كما كان أهل الاندلس في أول الفتح »

فلم يستطع عبد الرحمن أن يزيد على رأي سالمة كلمة واحدة ولم يزدد الا اعجاباً بسداد رأيها وسعة اطلاعها فقال لها « فليكن كما تقولين وبالطبع يجب ان يبقى كل ما دار بيننا مكتوماً عن كل انسان غيرنا لئلا يفسدوا سعينا علينا والتفت الى هانيء وقال له « أعهد الى رجل من خاصتك تثق بعقله وحسن اسلوبه ان يوصل هذه الآنية الى الاسقف ويبلغه هذه الرسالة »

ولم يكن هانيء أقل اعجاباً بسالمة من عبد الرحمن بل هو يفضله في ذلك بما في خاطره من امر ابنتها التي ملكت لبه من اول نظرة فلما سمع رأيها استحسنه وزاد احترامه لها وحبه لابنتها وبادر في الحال الى رجال حملهم الانية وخرج لانجاز تلك المهمة

ثم نهضت سالمة والتمست من عبد الرحمن ان يرسلها الى مقر ابنتها لتبيت هناك الى الصباح ثم تخرج لمهمتها فاراد عبد الرحمن المبالغة في اكرامها فاسترجع هانئاً وقال « ادع لي رجلا من خاصتك يشيع سالمة الى خباء النساء حيث تقيم ابنتها »

فعد هانئ تلك المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال « ومثل هذه الفاضلة لا يليق في خدمتها غير الامراء . اني ذاهب الى قرب ذلك الخباء فانا اشيعها اليه »

فاستحسن عبد الرحمن شعور هانئ في احترام سالمة تشجيعاً لها فابتسم وقال « بورك فيك . انها أهل لاكثر من ذلك »

فمشت سالمة في اثر هانئ وظل عبد الرحمن وحده وقد بهره ما شاهده في ذلك المساء من الغرائب وتوسم خيراً بنجاح حملته وزاد رغبة في تفقد جنده والسهر على جمع كلمته

الفصل الرابع عشر

الخباء

اما مريم فانها خرجت مع خادمها حسان من خيمة الامير عبد الرحمن والغلام دليلهما الى الخباء كما تقدم . وكان الليل قد نصب سرادقه فمكثت مريم وفكرها مشتغل بهانيء

واحست بجاذب يجذبها نحوه لا تدري ما هو . وقد ذهب من خاطرها ما كانت تسمعه من والدتها عن اهمية مستقبلها وكانت في الواقع لم تسمع منها شيئاً صريحاً بهذا الشأن ولكنها تحملها على اتقان التلفظ باللغة العربية وتعليمها ركوب الخيل وفنون الفروسية ولسائر الالعاب الرياضية حتى تخشنت عظامها وقوي عضلها وشبت على الحمية وعزة النفس والشجاعة ولكن اللطف النسائي ما زال غالباً على طبيعتها وانما زادتها تلك الرياضة صحة واكتسب وجهها رونقاً واشراقاً

مشت في اثر الغلام وبجانبها حسان يتوكأ على عكازه بنشاط وخفة وقد تزمل بقبائه وعلى رأسه قبعة (طاقية) قد لصقت من كل اجزائها برأسه وكان رأسه حليقاً فظهرت كانها جلداً ثانياً له فمروا في اثناء الطريق بجماعات من الرجال كل جماعة من قبيلة بعضهم في الخيام والبعض الآخر في ما بينها وقد علت الضوضاء . واكثر ما يسمع من اصوات الرجال عبارات الاختصام على قسمة الغنائم وخصوصاً ما كان ثميناً من الاثواب الموشاة او الانية الذهب او الفضة او الادراع او الطنافس فربما افضى الخصام في بعضها الى تجزئتها الى قطع وتفريقها في المختصمين واجزاؤها لا تفيدهم شيئاً . وكانت مريم تسمع اصوات الامراء يهددون رجالهم او يوبخونهم ولا تسل عن قلبها لما سمعت صوت هانيء في خيمته على بضع خطوات منها وهو يحاسن بعض الناس لاقناعهم بتسليم آنية الكنيسة عملاً باشارة عبد الرحمن . فلما سمعت صوته اختلج قلبها في صدرها وودت لو انها تقف هناك برهة لتسمع حديث حبيبها

وتستأنس بصوته وتمنت لو ان الخبـاء على مقربة لعلها اذا خرج هانئ من هناك يمر بها . فنادت الغلام وسألته عن موقع الخباء فقال « انه خارج هـذا المعسكر يا مولاتي »

قالت « وهل هو بعيد من هنا »

فتطاول الغلام بعنقه وهو ينظر نحو الافق ثم قال ان « الخباء يا سيدتي بقرب هذه النار » واشار باصبعه الى نار موقدة وراء حدود المعسكر

فنظرت مريم فاذا هي لا تزال بعيدة عن المـكان فقالت « ولماذا جعلوا الخباء بعيداً بهذا المقدار ؟ »

قال « لانه دار النساء والعادة في هذه الدور ان تقام خارج المعسكر ومتى وصلنا الى هناك ترين اخبية عديدة لنساء الامراء والقواد وغيرهم من رجال الجند ولولا من يقوم بخدمتهن من الخدم والخصيان والعبيد لحسبت نفسك في مدينة من النساء »

فصبرت مريم نفسها وسكتت وهي تجدّ في المشي وحسان ماش وهو ساكت كأنه استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة حتى اذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم أصواتاً آتية من اطراف المعسكر تشبه أن تكون تهديدية فاجفلت وتراجعت فطمأنها حسان وهي أول مرة نطق بهـا في أثناء الطريق فقال « لا تخافي يا بنية ان خفراء الجند يطلبون منا شعار الليل فاذا لم نجبهم به استغشونا »

فقالت « وكيف ذلك . ؟ وما هو الجواب »

قال « هو عند هذا الغلام » والتفت اليه ليسأله فاذا به يقول بصوت عال جواباً على ما قاله الخفراء « طليطلة وقرطبة » فتحول حسان نحو مريم وقال « هذا هو شعارهم الذي يتعارفون به اليوم » فسكت الخفراء ومشت مريم وحسان في اثر الغلام حتى انتهوا الى الاخبية فسمعوا من خفرائهـا مثل ذلك النداء فاجابوا عليه مثل ذلك الجواب . وتحول بهم الغلام الى خباء منفرد امامه نار عظيمة فعلمت مريم انه الخباء الذي هي آتية اليه . فلما دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البيض من الصقالبة الذين يباعون في تلك البلاد والسود الزنوج

الذين رافقوا الحملة من أفريقيا وأكثرهم من الخصيان . ولما أقبلت مريم على الخباء تأملت في بنائه فاذا هو عبارة عن بناء من نسيج أحمر متين مربع الشكل قائم على اعمدة من الخشب محيطة بالقماش . وربما بلغت مساحة الخباء خمسين ذراعاً في خمسين يكتنفه سور من ذلك النسيج مسند بالاعمدة ومشدود الى الارض بالاوتاد والامراس . وسقف الخباء عبارة عن قبة كبيرة من ذلك النسيج قائمة على عمد متينة وقد قسم الخباء داخل السور الى غرف وافنية يفصل بينها جدران من نسيج أخضر مسندة بالعمد أيضاً

وهي تتأمل في ذلك البناء اقبل عليهم رجل من خصيان الخباء ابيض اللون عرفت مريم من سحنته انه صقلي فاستقبله الغلام وتعارفا وتفاهما . وكان الغلام افهم الخصي المهمة التي هو قادم بشأنها فتركه وهو يقول بلسان عربي تخالطه عجمة « اني ذاهب الى القهرمانة قيمة الخباء استقدمها لاستقبالها » ومضى حتى دخل الخباء فوقفت مريم وحسان والغلام في انتظاره ثم عاد وهو يقول « تفضلي يا مولاتي بالدخول ويبقى خادماك معنا في اكرام ورعاية »

فمشت مريم وقد التفت بثوبها الاسود وأصلحت نقابها الاسود وتعهدت شعرها استعداداً لاستقبال القهرمانة قيمة الخباء . فدخلت باب الخباء في أثر الخصي فرأت نفسها في دهليز انتهت منه الى شبه قاعة فيها مصباح منار بالزيت قد علقوه بحبل في سقف الخباء بين عامودين من أعمدته لم تشك مريم انه من مصابيح بعض الكنائس في البلاد التي فتحوها . وأرض الخباء مفروشة بابسطة ثمينة وفيها معظم مايحتاجون اليه من الآنية الضرورية كأن أهله مقيمون هناك منذ أعوام

فلما دخلت القاعة سبقها الخصي واخبر القهرمانة فتقدمت لاستقبال ضيفتها. وكانت القهرمانة كبيرة الجثة ثقيلة الحركة عريضة الوجه كبيرة العينين خشنة الصوت متدلية الخدين من الكبر غليظة الشفتين قد نبت على شفتها العليا وحول ذقنها شعر متفرق مستطيل وقد غطت صدرها وعنقها بالقلائد والعقود وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع وحول زنديها الاساور والدمالج وفي اذنيها الاقراط وفي رجليها الخلاخل حتى يكاد الناظر اليها وهي تمشي وتتوكأ

على وركيها يتوهم انها تنوء تحت أثقال تلك الحلي . مع ان دلائل القوة ظاهرة في كبر وجهها ووضوح تقاطيعها . وكان بينها وبين عبد الرحمن قرابة نسائية وقد القى اليها مقاليد خبائه وفوض اليها تدبير شؤون نسائه وجواريه وفيهن القوطيات والصقلبيات والروميات والبربريات وغيرهن . فلما رأت مريم وما هي فيـه من الجمال والهيبة احبتها واستخفت روحها فاستقبلتها ورحبت بها وخصوصاً بعد ان علمت برغبـة عبد الرحمن في اكرامها . وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك القهرمانة فلما سمعت ترحابها استأنست بها وهمت بتقبيل يدها فامتنعت وقالت لها « اهلا بك يا حبيبتي ما اسمك . . ؟ »

قالت « مريم » ولفظت الراء غيناً

فاستلطفت تلك اللثغة منها ودعتها الى الجلوس على البساط ثم دعت بعض الخـدم فجاؤها بالطعام وكانت لم تذق طعاماً من صباح ذلك اليوم فاكلت ثم جلست والقهرمانة تحادثها وتسألها اسئلة كثيرة ومريم تجيبها وهي مشتغلة البال بما جال في خاطرها من امر هانيء وكلما تذكرته خفق قلبها وتسارعت ضرباته . فلما رأتها القهرمانة قلقة منقبضة حملت ذلك منها محمل الاستيحاش وتذكرت ما اوصى به عبد الرحمن من اكرامها ففكرت في سبيل تستأنس هي به . وبعد اعمال الفكرة مدة ومريم صامتة قالت العجوز « يظهر ان حديث العجائز لم يرق لك وقد اوصاني الامير باكرامك ورعايتك ولعل من اسباب استيحاشك قرب عهدك من الاسر ويسوؤك انك أخذت من اهلك فاعلمي انك تكونين عندنا كانك بين اهلك . واني داعية لك نساء هذا الخباء امرأة اصلها من اهل هذه البلاد وقد تعلمت العربية وهي بارعة في الجمال ولها منزلة رفيعة عنـد الامير فاظنك اذا لقيتها استأنست بها » قالت ذلك وصفقت فدخـل خصيّ من الصقالبة وتأدب في موقفه فقالت له «قل لميمونة ان القهرمانة تدعوك اليها» فخرج الخصي فالتفتت القهرمانة الى مريم وقالت « اظنك تستأنسين بميمونة لانها من اعز اهل هذا الخباء على الامير وهي في الاصل من جواري لمباجة بنت الدوق اود صاحب هذه البلاد . أظنك تعرفين حكايته مع المنيذر الافريقي احد امراء المسلمين الذي كان والياً في الجبال على حـدود اسبانيا وكان قد

ابرم مع الدوق اود معاهدة لا تعرف فحواها ولكننا علمنا ان اود ازوج ابنته للمنيذر المذكور فخاف أميرنا عبد الرحمن من خفايا ذلك الاتفاق فلما مر بالجبال وهو قادم لهذا الفتح وقتل المنيذر واغتنم الجند امواله ونساءه وارسلوا امرأته لمباجة الى الخليفة في دمشق . فكان من نصيب الامير عبد الرحمن ميمونة هذه. ويقال أنها كانت اعز جواري لمباجة اليها واشبههن بها جمالاً وقداً وتعقلاً وستريها الساعة »

الفصل الخامس عشر

ميمونة

ولم تتم القهرمانة كلامها حتى دخل الخصي ولم يتكلم فعلمت ان ميمونة قادمة في اثره . ثم دخلت ميمونة وعليها ثوب ارجواني واسع الكمين طويل الاردان يجرّ وراءها مع طول قامتها واعتدالها ولها شعر ذهبي طويل قد ضمته حزمة واحدة وارسلته على ظهرها ولو تأملته جيداً لرأيته ذهبياً ناصعاً واذا تفرست فيه وأنت الى جانبها رأيت فيه ميلاً الى الشقرة اللامعة . ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعتهما طويلة الاهداب سوداءها . وترى في عينيها لمعاناً يدل على الغنج والدهاء اكثر مما يدل على الصدق والوفاء . وكانت صغيرة الانف مطمئنة الفم رقيقة الشفتين بارزة الذقن عريضته بيضاء البشرة وخصوصاً العنق مع صفاء اللون . فلم تتمالك مريم عند وقوع نظرها عليها من الاعجاب بما يتجلى في وجهها من الهيبة والجمال ورأت نفسها مظلمة منقبضة بما التفت به من الكساء الاسود

فلما دخلت ميمونة ووقع نظرها على مريم هشت لها وابتسمت ابتسامة انفتح له قلب الفتاة واحست للحال بأنس انساها ما كانت فيه من القلق واجابتها بابتسامة يتوسم المتفرس فيها غير ما يتوسمه بابتسامة تلك ولا يميز ذلك الا الناقد البصير . دنت ميمونة من مريم وحيتها ورحبت بها كأنها كانت على موعد من لقائها او كأنها كانت تعرفها من زمان طويل . فازدادت مريم استئناساً وطمأنينة ونسيت ما سبق الى ذهنها من التهيب عند مقابلة القهرمانة . أما هذه فانها

حال دخول ميمونة خاطبت مريم قائلة « هذه ميمونة التي اخبرتك عنها الساعة فأرجو ان تستأنسي بها وترتاحي الى مجالستها » وأشارت الى مريم وقالت « وهذه ضيفة الامير عبد الله قد بعث بها الينا وأوصانا برعايتها »

فجلست ميمونة بقرب مريم وهي تقول اهلاً « بالضيفة الكريمة من أين أتيت يا حبيبتي » قالت ذلك بكلام عربي تخالطه لهجة افرنجية فتنسمت مريم من مجمل سحنتها ونسق كلامها انها افرنجية الاصل كما قالت لها القهرمانة فأجابتها « قد كنت في جملة أهل بوردو الذين قضى عليهم بالوقوع في أسر هذا الجند »

قالت « هل قبضوا عليك وحدك وليس معك أحد من اهلك ؟ »

قالت « كلا . ولكنهم قبضوا على والدتي أيضاً وخادم شيخ غادرته مع جملة خدمة هذا الخباء خارجاً »

قالت « أراك تتكلمين العربية جيداً وتقولين انك من أهل بوردو فكيف ذلك ؟ . . »

قالت « لا أدري السبب ولكن هذا هو الواقع » قالت ذلك وهي تعلم أن والدتها لا تريد التصريح باكثر منه

فقالت « وهل قتل ابوك في هذا الفتح ؟ »

قالت « كلا »

فقالت « وهل أسر ؟ أو فرّ ؟ . . »

فسكتت وأومأت برأسها ان « لا هذا ولا ذاك »

فأدركت ميمونة ان والدها ميت من قبل لكنها لم تكتف بذلك فقالت « وما اسم والدتك لعلي أعرفها »

قالت « اسمها سالمة »

قالت « هي اذاً عربية »

قالت « لا أدري »

وكانت ميمونة في اثناء تلك المحادثة تتفرس في وجه تلك الفتاة وتستحث

ذاكرتها لتستحضر صورة مثل صورتها اذ خيل لها أنها تعرفها من قبل واطالت السؤال لعلها تستدل على ذلك من كلامها فلما رأتها قطعت الحديث بقولها « لاأدري » عدلت عن زيادة البحث والتفتت الى القهرمانة فرأتها قد أدلت رأسها على صدرها ونامت وأخذت في الشخير فقالت لمريم « هلم بنا الى غرفتي فتمكثين عندي في اثناء هذه الضيافة »

فأطاعتها مريم ونهضت معها وتحولت الى غرفة من غرف الخباء فجلستا هناك وقد عادت ميمونة الى استحثاث ذاكرتها لعلها تستحضر صورة ذلك الوجه وأين شاهدته ومريم في غفلة عن ذلك وفي شاغل مما عاد الى ذهنها من الهواجس بشأن هانيء وما غادره في فؤادها من لواعج الحب فغلب الانقباض عليها وبدت في وجهها ملامح الاضطراب

ظلتا صامتتين مدة وكل منهما في هاجس واذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهي تنادي « ميمونة . مريم . »

الفصل السادس عشر

سرّان

فذعرتا وخافت ميمونة من غضب القهرمانة لئلا تعد خروجها من عندها على تلك الصورة ذنباً فتشكوها الى الامير أو تسيء معاملتها لانها الآمرة الناهية في أهل ذلك الخباء — وللقهرمانات نفوذ عظيم في بيوت الامراء والخلفاء والسلاطين في كل العصور واذا كان الامير أو الخليفة ضعيفاً أصبحت القهرمانة صاحبة الامر والنهي حتى في أعمال الحكومة تعزل وتولي وتقبض وتطلق كما تشاء — فلما سمعت ميمونة نداءها نهضت للحال فنهضت مريم معها ومشتا نحو القاعة ودخلتا واذا هناك امرأة بلباس أسود يجللها من رأسها الى قدمها فحالما رأتها علمت انها والدتها فتقدمت اليها وسلمت عليها فقبلتها سالمة اما ميمونة فلم تكد تتفرس في وجه سالمة حتى انجلت لها الصورة التي كانت تستحث الذاكرة في استحضارها فبدت في وجهها امارات الاضطراب والبغتة ولكنها تغلبت

على عواطفها وتقدمت للسلام على سالمة وهي تهش لها وترحب بها . أما سالمة فحالما وقع نظرها على ميمونة عرفتها نخفق قلبها دهشة لانها لم تكن تتوقع ان ترى ذلك الوجه هناك ولا في أوربا فردت السلام عليها ببرود وهي تتفرس في وجهها لتتحقق ظنها فيها وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمجاملة والممازحة كقولها « لقد سرني كونك هنا سروراً مزدوجاً لسببين الاول انني استأنست بك وفرحت لفرح حبيبتي مريم بك وان يكن لم يسبق لي حظ بمعرفتك والثاني لان نداء خالتي القهرمانة لم يكن من غضب عليّ » . قالت ذلك وضحكت وتشاغلت باصلاح شعرها هنيهة ثم عادت الى الكلام وهي تلاعب كم ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان وقالت « فرحباً بك لقد أتيت أهلاً فعسى ان نقضي مدة اقامتنا هنا معاً بسرور »

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها اليها وقالت « ولا تلوميني اذا علقت بحب ابنتك من اول نظرة فانها تعشق بما خصها به العناية من اللطف والجمال فلا غرو اذا لاقت من الامير عبد الرحمن هذه العناية والاكرام »

وكانت ميمونة تتكلم وهي تضحك وتتلاطف وسالمة تحدق فيها وتتبين لهجة كلامها وغنة صوتها لتتحقق ظنها في معرفتها واستغرقت في التفكير وتحيرت في الذي تعمله بعد ان علمت حقيقة تلك المرأة التي سمت نفسها ميمونة وليست هي ميمونة وتظاهرت بانها من جملة نساء ذلك الجند الداعيات بدعوة المسلمين وقد تكون بلاء كبيراً على الجند واهله . فتحيرت سالمة بين ان تكشف امرها وتبين لها انها عرفتها او تكتم خبرها وتتجاهل . على انها لحظت من الجهة الاخرى ان ميمونة عرفتها وعرفت حقيقتها فخافت ان تبوح بها الى احد وهي تود بقاء امرها مكتوماً كما علمت فعزمت على التجاهل موقتاً لترى ما يكون فقالت « انه ليسرني ايضاً ان تكون ابنتي في حجر اخت حنونة نظيرك وفي رعاية الخالة ايدها الله » قالت ذلك واشارت الى القهرمانة

فضحكت العجوز حتى بانت لثتها وليس فيها من الاسنان القواطع الا اثنتان واحدة في الاعلى والاخرى في الاسفل وبينهما ثغرة مربعة الشكل

ثم قالت « ان ابنتك يا سالمة ضيفة عنـدي وما للضيف غير الكرامة وليست هي من نساء هذا الخباء او سراريه او جواريه ليجري عليها الامر والنهي »

فقطعت سالمة كلامها قائلة « لا اعدها الا تحت امرك واذا شئت ان تعديها ابنـة لك كان ذلك من زيادة فضلك » فهمت القهرمانة بالوقوف وهي لثقلها لا تستطيع النهوض الا بالاعتماد على يديها والزحير والتوكوء كانها تحمل حملاً أثقل كاهلها . فلما قاربت الوقوف قالت هي ابنتي واعز من ابنتي ولذلك فاني عهدت برعايتها الى احب اهل هذا الخباء الى الامير عبـد الرحمن » واشارت الى ميمونة

فتمت ميمونة عبارتها قائلة « كوني مطمئنة يا سالمة فان مريم تكون عندنا كانها في حجرك ومن يستطيع ان يرى هـذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه . ولا يغرك مجيئها الينا باسم الضيفة فان الامير لا يلبث ان يراها حتى يتعلق بها ويود استبقاءها عنده فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها بيننا » قالت ذلك ونظرت الى مريم وتبسمت

فلما سمعت مريم ذلك بدت البغتة في وجهها وخافت ان يصح قولها فتخسر حبيبها وتضيع آمالها فتصاعد الدم الى وجهها حتى اصطبغ واطرقت فظنت ميمونة انها اطرقت حياء على عادة البنات اذا خوطبن بمثل ذلك

فقطعت القهرمانة كل حديث بقولها « هلم الآن الى الرقاد فقـد مضى معظم الليل » وصفقت فخالط صوت الصفيق خشخشة الاساور والدمالج وجاء احد الخصيان فقالت له « اعدد غرفة خاصة بالضيفتين »

فقـالت ميمونة « اجعليها بقرب غرفتي ان لم تكن هي نفسها لاني قد استأنست بالحبيبـة مريم وهي استأنست بي » فاشارت القهرمانة الى الخصي ان يفعل

الفصل السابع عشر

العقد

وبعدقليل عاد الغلام وقال انه اعـدَّ كل شيء فانصرفوا جميعاً وسارت سالمة ومريم في اثر الغلام نحو الغرفة وقبل ان تصلا اليها سمعتا صهيل فرس اختلج له قلب مريم اختلاجاً متسارعاً لانه يشبه صهيل ادهم هانيء فلم تتمالك ان سألت والدتها قائلة « كاني اسمع صهيل فرس الامير هانيء فهل هو هنا ؟ »

قالت « لقد جاء معي الى هـذا المكان وكنت احسبه عاد حالاً لانه سائر في مهمة ذات بال تتعلق باسقف بوردو فالظاهر انه في شاغل موقت هنا ثم ينصرف »

فتوسمت مريم من بقائه هناك خيراً ودلها قلبها على انه انما بقي لمشاهدتها فاشتغل خاطرها في ذلك وظهر الارتباك في وجهها ولو تفرست امها فيها لرأت في عينيها ارتباكاً وتفكيراً وقلقاً ولكنها لم تتنبه لشيء من ذلك لاشتغالها بامر نفسها واستعدادها للمسير في الغد الى بوردو

أما القهرمانه فلما خلت بنفسها أخرجت من جيبها منديلاً مطوياً على شيء في داخله ومشت نحو المصباح وفتحت المنديل واخرجت منه عقداً من اللؤلؤ باسلاك من الذهب وفي وسط العقد صليب من الذهب مرصع بالياقوت والالماس على شكل بديع فوضعت العقد على كفها تقلبه وهي تبتسم وتقول في نفسها « لابد من غرض لهانيء باهدائه هذا العقد لي والا فليس في وجهي ولا في قامتي ما يدعو الى الشغف او العشق ولا هو يحتاج الى وساطتي لدى عبد الرحمن لانه صاحب الكلمة النافذة عنده » ثم امسكت العقد باحد طرفيه بين اصبعيها ورفعته امام المصباح فابرق بما فيه من الحجارة الكريمة فقالت « لا شك ان هذا العقد من جملة ما اصاب هانيء من الغنائم في واقعة اليوم فلا يهمه خروجه من يده ولكن لا بد له من غرض في اهدائه » ثم انتبهت بغتة وقالت في نفسها

« عرفت غرضه . ولا بأس به » ثم صفقت فدخل غلامها فقالت له « قل للامير هانىء ان يوافيني الى غرفتي من بابها الخارجي ـ خذ بيده الى هناك » قالت ذلك وارجعت العقد الى جيبها ومشت نحو الغرفة وهي تتوكا وتترجرج فوصلت اليها قبل هانىء بقليل فجلست على وسادة بجانب جدار الخباء ثم اقبل هانىء وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ وقد ارخى العباءة فانفتحت عن صدره فبانت الدرع من تحتها وحول خصره حمائل يتدلى منها سيفه المعهود ـ دخل مسرعاً حتى اقترب من القهرمانة وهي جالسة لم تتحرك ولكنها قالت له « مرحباً بالامير هانىء ـ تفضل اجلس »

قال « لا صبر لي على الجلوس يا خالة لاني ذاهب في مهمة مستعجلة وقد احببت ان أراك قبل ذهابي »

قالت « بورك فيك يا بني فهل من حاجة اقضيها لك ؟ »

فتبسم هانىء وقال « لي حاجة سهلة جداً لا اظنك تضنين بها عليّ »

قالت » وما هي »

قال « أرأيت مريم ؟ . احب ان اراها واخاطبها ساعة بحضورك حتى تكوني على بينة من سلامة نيتي »

قالت « الآن ؟ »

قال « كلا غداً صباحاً بعد ذهاب والدتها . لا شك انك تجيبين سؤلي وليس فيه ما يخشى منه »

فتنحنحت القهرمانة وضحكت واشارت بعينيها انها تفعل ما يريده فهمّ بيديها ليقبلها فمنعته فخرج وانصرف

أما مريم فقد تركناها ذاهبة مع والدتها الى المضجع وهي غارقة في بحار الهواجس ووالدتها لا تخاطبها فوصلت الى غرفة هي عبارة عن حجرة جدرانها من القماش وفي أرضها بساط عليه فراش . وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء معلقة بخيط فجلستا على الفراش ومريم لا تزال ساكتة . فلما استقرّ بهما الجلوس قالت سالمة نحمد الله يا بنية على نجاتنا من هذه الواقعة ونجاحنا في اقناع أمير هذا الجند بما نريده وفيه خيره وخير هذه البلاد ـ

فاعلمي يا مريم اني ذاهبة في صباح الغد الى اسقف بوردو وربما ابقى عنده يوماً أو يومين لقضاء بعض المهام فهل يشق عليك هذا الفراق ؟ »

فقالت مريم « ولماذا هذا الغياب وما هي تلك المهام التي تقتضي اياماً للفراغ منها ـ وأنا لم أفارقك قبل اليوم مطلقاً فهل أستطيع البقاء وحدي بين أناس لا أعرفهم فاتركي عندي حساناً فاني استأنس به »

قالت « اني في حاجة اليه بهذه المهمة . . والا فان غيابي يطول كثيراً »

قالت « لقد شغلتِ بالي . . . هل تقولين لي سبب ذلك الغياب ؟ »

قالت « لا أخفي عنك يا بنية اني اتفقت مع الامير عبد الرحمن على أن اكون واسطة بينه وبين الغالبين سكان هذه البلاد الاصليين على شرط أن يعاملهم بالرفق والاحسان كما عامل موسى بن نصير وابنه عبد العزيز نصارى الاندلس عند فتحها وانا ذاهبة في صباح الغد الى أسقف بوردو فالاقيه بعد ان تكون الآنية قد وصلته واعتقد صدق أمير المسلمين فاستعينه واستعين سواه من سراة هذه المدينة في اقناع سراة البلاد الاخرى وأساقفتها وكهنتها ان المسلمين خير لهم من أود وغيره من أمراء الافرنج وأنا اعتقد أنهم اذا وافقوني على ذلك افلحوا . . واعلمي يا مريم اني كاشفتك بسرّ يجب أن يبقى مكتوماً عن كل انسان »

ولم تكن مريم تهتم بهذا الحديث مع أهميته لما جاش في خاطرها من أمر هانىء وودت لو أنها تعود الى ذكره لعلها تستطلع شيئاً من امره . ولكنها لم تستطع ذلك لان والدتها نهضت الى تبديل ثيابها التماساً للرقاد فسايرتها مريم وذهبت الى فراشها ولكنها لم يغمض لها جفن معظم ذلك الليل وهي تتوقع أن يناديها هانىء او يناديها أحد عنه فلما طال انتظارها يئست من ذلك

الفصل الثامن عشر

دسيسة

أما ميمونة فانها ذهبت الى مضجعها بازاء مضجع سالمة لا يفصل بينهما الا الجدار وكانت مشتغلة الخاطر بما شاهدته من سالمة وعلمت أنها لم تدخل ذلك المعسكر الا لامر هام فتظاهرت بالسكون واصغت لما عساه أن يدور من الحديث بين سالمة وابنتها فسمعت ما دار بينهما فلما اطلعت على السر همها امره كثيراً لانه يحول دون الغرض الذي رافقت تلك الحملة من اجله فباتت وهي تدبر الحيل وتهيء نصب الشراك

وقبل أن ينبلج الصباح نهضت ميمونة من فراشها وتزملت بردائها وتظاهرت بالخروج الى خباء بالقرب من خباء الامير وكانت على موعد في كل صباح من ملاقاة رجل من الجند تزعم انه كان من غلمانها يوم كانت بمعية لمباجة في ايام المنيذر الافريقي فرأت في اثناء خروجها فارساً قادماً من المعسكر عرفت من قيافته ولون جواده انه هانيء فاستغربت قدومه في ذلك الصباح فلما توارى عن بصرها ذهبت الى موعدها فمكثت هناك حتى جاءها الرجل وهو بربري عليه ثياب الجند قصير القامة خفيف الشعر خفيف العضل في نحو الثلاثين من عمره وفي عينيه حول شديد فاذا نظر اليك يوهمك انه ينظر الى رجل على مسافة بعيدة منك — فلما اقبل عليها تبسم واشار بحاجبيه وبعينه الشاردة أنه في شوق شديد الى رؤيتها وانه قتيل هواها

فابتسمت ميمونة له واظهرت الدلال وقالت له « يظهر يا عدلان انك نسيت سيدك وتغافلت عن وعدك فان الغنائم شغلتك عن ميمونة وظننتها تنسى مثلك »

فاعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ما له من المنزلة عند تلك الحورية ربة الجمال والغنج — وقد كان مع علمه بما بينه وبينها من البعد الشاسع طامعاً بحبها وانما يقنعه من ذلك الحب أن يسمع مثل تلك العبارة فهو من قبيل

ما يعبرون عنه بأذناب العشاق . لان العشاق ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ القلبين وعويشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته طاقة من الازهار أو عقداً من الجوهر ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له بما وراء ذلك . وذنب العشاق وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروق لديها كايصال كتاب أو ابتياع بعض حاجيات الطعام أو نحو ذلك — وكان عدلان من النوع الثالث وقد جعله يعشقها ويستهلك في خدمتها ما كانت تبديه له من التلطف حتى اطلعته على بعض سرها وماطلته بالرضاء التام حتى يتمم لها خدمة وعدها باتمامها منذ تشتت شملها بقتل المنيذر الافريقي الذي ذكرناه في غير هذا المكان — فلما سمعها تعاتبه وتستعطفه ابتدرها بالجواب وهو ينظر الى وجهها الجميل نظر المحب الولهان وقال « كيف تقولين ذلك يا مولاتي وأنت تعلمين استهلاكي بخدمتك منذ اعوام . وأما الغنائم فلا يخفى عليك ما تركه أولئك العرب منها وخصوصاً اليوم فانهم بعد ان فرقوا الغنائم فينا عادوا فاسترجعوها واهانوا الامير بسطاماً اهانة ليس بعدها اهانة »

قالت « الامير بسطام ؟ وكيف تركته يقبل بذلك ولم تحرضه على المطالبة بحقه . الى متى هذا الذل ؟ »

قال « لقد حرضته ولكن غريمه صعب لا ينال . . . »

قالت « ومن هو غريمه . . »

قال « هو الامير هانىء نفسه وأظنك رأيته قادماً في هذا الصباح الى هذا الخباء . . . »

قالت « نعم رأيته وما غرضه فيه »

قال « ان غرضه تلك الفتاة الجميلة التي بعثها الامير عبد الرحمن اليكم بالامس فانها غنيمة الامير بسطام وقد أخذها الامير هانىء رغم أنفه وساعده الامير عبد الرحمن على ذلك »

فقالت « وهل هي رضيت بهذا العربي وفضلته على ذلك الامير ؟ »

قال « يظهر انها أحبت هانئاً وتعلقت به »

فادركت ميمونة أن الحب قد تمكن بين مريم وهانىء وان هانئاً انما جاء في ذلك الصباح لمقابلتها فرأت أن تغتنم تلك الفرصة وتدس الدسائس وتوقع الخصام بين الاميرين فقالت « وهل رضي بسطام بهذا الذل . كيف يرضى أن تخرج فريسته من بين يديه ويصبر على الهوان ؟ . اذا قبل هو بذلك فانا لا اقبل له به . هل لك أن تخبره اني باذلة اقصى جهدي في ارجاع هذه الفتاة اليه ؟ قل له ذلك كما تعلم من غير أن يشعر هو بما دار بيني وبينك . هل فهمت يا عدلان ؟ انه يسؤني أن يستأثر هؤلاء العرب بالطيبات ويحملوكم الاثقال والاخطار فتفتحون لهم الحصون وتجمعون لهم الغنائم فلا يصيبكم غير التعب والشقاء . ولكن لا بأس سوف ترى مني ما يسرك » ثم رأت وهي تخاطبه فارساً خارجاً من خباء الامير عرفت من سواد ثيابه انها سالمة ذاهبة في مهمتها وتحققت ذلك من مسير حسان في ركابها وهو يعدو بين يديها فعلمت أن هانئاً سيظفر بعد ذهاب سالمة بلقيا مريم فقطعت ميمونة حديثها مع عدلان بقولها « فاذهب أنت الآن بحراسة الله » قالت ذلك وتحولت نحو الخباء على عجل وظل هو واقفاً ينظر الى قامتها ويتمتع بمنظر ذلك الشعر الجميل حتى اذا كادت تتوارى التفتت نحوه وابتسمت فاحس كأنها ملكته الارض وما عليها وخفق قلبه ابتهاجاً وعاد

اما هي فلما ايقنت بوقوع التنافر بين هانىء وبسطام عادت الى اعمال الفكرة للايقاع بين هانىء وعبد الرحمن ليتم لها افساد امر ذلك الجيش الكبير لعلمها ان فوزه انما يقوم باتحاد هذين الاميرين . وكانت قد علمت ان عبد الرحمن انما ارسل مريم الى الخباء لتكون في مأمن من سواه وعلمت ان « حب » هانىء لمريم يسوء عبد الرحمن فعزمت على ايقاد نيران الغيرة بينهما فسارت تواً الى غرفة مريم فلم تجدها وبحثت عن القهرمانة فقيل لها انها في غرفتها فتحقق ظنها فعادت الى غرفتها مسرعة وقد خطرت لها حيلة ظنت انها تنال بها اربها فنادت غلاماً من غلمان الخباء كان في الاصل من غلمان المنيذر الافريقي واخذ في جملة من اخذ من الاسرى وأصله من الافرنج الذين أتوا مع لمباجة بنت اود يوم تزويجها المنيذر ولما أخذت ميمونة ظل هو في جملة الخدم وقد

استبقته هي لاستخدامه في اغراضها عند الحاجة. فلما جاء الغلام قالت له « اسرع يا داود الى الامير عبد الرحمن هل لك اجنحة لتطير بها اليه ؟ »

قال « نعم يا مولاتي »

قالت « طر اليه على عجل وقل له ان ميمونة تقرئك السلام وتقول لك بادر اليها الآن لامر هام تريد ان تطلعك عليه في هذه الساعة »

فقال « حباً وكرامة » وتحول وسار وهو يثب كالغزال النافر يطلب المعسكر وجلست ميمونه في مكان ترى منه كل من يخرج من الخباء

الفصل التاسع عشر

لقاء الحبيبين

أما هانىء فانه جاء الخباء باكراً كما رأيت لشدة شوقه الى لقاء مريم ولا نظنه نام كثيراً في ذلك الليل فوصل غرفة القهرمانة فاستقبلته واستمهلته ريثما تتصرف سالمة وسارت الى سالمة حتى تهيأت للخروج فودعتها فاوصتها سالمة بابنتها خيراً وركبت وسار حسان في ركابها فعادت القهرمانة وقد سرها ان لا تكون ميمونة في الخباء لئلا تطلع على سر تلك المقابلة. فلما مضت سالمة اصطحبت مريم الى غرفتها فمشت معها وهي تفكر في هانىء وبعده عنها فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت وتصاعد الدم الى وجنتيها وغلب الحياء عليها فارسلت خمارها على عينيها وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها. فلم يكن ذلك الا ليزيدها جمالاً ورونقاً في عيني هانىء. أما هو فقد كان في انتظارها في الغرفة على مثل الجمر وقد حسب الساعة التي مضت في أثناء انتظاره عاماً طويلاً. فلما سمع خشخشة الخلاخل والدمالج وراء جدار الغرفة علم أن القهرمانة قادمة ثم ما لبث أن رآها داخلة ومريم في أثرها فلما رأى اصطباغ وجه مريم بالحياء زاد هياماً بها فنهض لاستقبالها فسمع القهرمانة تقول وهي تتظاهر أن وجوده كان هناك اتفاقاً « ما الذي جاء بك في هذا الصباح يا حضرة الامير »

قال « لقد جئت لأري وجهك يا خالة »

فضحكت القهرمانة وقالت « لا أظن وجهي تعجبك تجعداته وكاني علمت بقدومك فاتيت اليك بهذا الوجه فهل تعرفه ؟ »

فابتسم هانيء وقد غلب عليه الغرام وقال « لقد عرفته وكلفت به ولكن هل هو يعرفني ؟ لا ادري »

وكانت مريم مطرقة فلما سمعت كلامه رفعت بصرها ونظرت اليه بعينين قد اذبلهما الغرام وتلألأ فيهما مياه الحب نظرة تغني عن خطاب فلم يتمالك هانيء عند ذلك أن قال « فهمت الجواب »

فضحكت القهرمانة وأمسكت بيد مريم وأجلستها وقالت وهي تحاول الجلوس « ما اسرع ما فهمت جوابها وهي لم تتكلم . . »

فجلس هانيء وهو يلتف بعباءته ويصلح عمامته وكان قد ابدلها من الخوذة في ذلك الصباح وقال « لقد دلني قلبي يا خالة . . ومن القلب الى القلب دليل »

ثم التفت الى مريم وقال « لا تخافي يا مريم اني لم آت لازعجك وانما جئت لاتحقق ما حدثتني نفسي به حتى اذا صدق ظني وخدمني سعدي وقفت نفسي لخدمتك وجعلتك اسعد العالمين — الا اذا كان هذا الخبر يسوءك »

فتنهدت مريم تسكيناً لما جاش في صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل وهمت بالكلام ومنعها الحياء وكانت لا تبالي اذا لقيت الرجال في حومة الوغى فكيف تلعثم لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها ويتوقع كلمة من فيها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة في عنقه — ولكن هو الحب يذل الاسود ويلعثم السنة الفصحاء — وظهر من خلال شفتي مريم مع ذلك انها تكتم امراً تود التصريح به لولا الحياء . فادرك هانيء ذلك فيها فتوجه بكليته نحوها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذاً عظيما « قولي يا مريم لا تخافي ولا تكتمي فان خالتي القهرمانة لا يستحى منها بل هي خزانة اسرارنا قولي . . . هل تحبينني ؟ »

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلاً

وانتم معشر الامراء قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات والحب لا يكون صحيحاً الا اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث »

فبغت هانىء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلاً وقال « لست من هؤلاء يا مريم . وهذه الخالة تعلم اني بلغت هـذا السن ولم اتخذ امرأة ولا اقتنيت جارية ولا سرية . . اسأليها تنبئك فانها مطلعـة على احوال سائر الامراء في هذا الجند فان لـكل واحد منهم خباءً لنسائه وجواريه وأما انا فلا خباء لي ولا أحببت امرأة ولا فتاة ولم يكن يخطر ذلك ببالي قبل أن رأيتك في صباح الامس فعزمت على أن تكوني نصيبي في هذه الدنيا وتأكيداً لذلك فاني اعاهدك من هذه الساعة اني لا التفت الى سواك . . فهل تعاهدينني أنت أيضاً »

فابرقت اسرة مريم وأشرق وجهها وتجلت في عينيها وحول فمها ابتسامة طار عقل هانىء لها وخفق قلبه سروراً وقال ولم ينتظر جوابها « ولـكن لي شرطاً اشرطه عليك وعلى نفسي اني لا اتمم شيئاً قبل الفراغ من هذه الحرب فاذا عدنا منها فائزين ونحن فائزون باذن الله كان ما نتمناه . . فهل تعاهدينني على ذلك ؟ »

فقالت وهي مطرقة حياءً « وذلك هو الشرط الذي اشرطه انا أيضاً لاني اذا فزت بك عند ذلك اكون قد نلت السعادتين . . »

فقال « فانتعاقد اذاً على هذا الشرط » ومد يده نحوها ونظر الى يدها ولسان حاله يقول « مدي يدك » فمدتها نحوه ببطء وهي ترتجف من شدة التأثر فامسكها بيده وضغط عليها فاحس كلاهما بمجرى كهربائي ارتعدت له فرائصهما . ثم نهض هانىء وهو يقول « لا بد لي من الذهاب الساعـة الى المعسكر لنتأهب للقاء العدو وأعدك اني سأبلو في الاعداء بلاء الابطال لعلمي ان ذلك يسرك فادعي لي بالنصر . . »

ثم مد يده الى كمه واستخرج قارورة تفوح منها رائحـة الطيب قوية وقدمها الى مريم وهو يقول « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد في هذا الخباء تطيبي بها وحدك حتى اذا أتيت لزيارتك تنسمت ريحك قبل وصولي اليك فاستدل على وجودك قبل ان أراك وانت ايضاً كلما شممت

رائحة هذا الطيب تتذكرين قتيل هواك .. » قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام ونظر اليها نظر المحب الولهان

فمدت يدها وتناولت القارورة وهي تبتسم ثم تذكرت فراقه لها في تلك الساعة فانقبضت نفسها فالتفتت نحو السماء وترقرت في عينيها العبرات

وكانت القهرمانة في أثناء ذلك الحديث قد استغرقت في النوم وهي جالسة اذ لا يهمها من هذا الاجتماع الا ما نالته من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة . وبينما هي غارقة في احلامها علت الضوضاء خارج الخباء فانتبهت فسمعت قرقعة اللجم ودبدبة الخيل فبغتت وبغت هانئ ومريم . وقبل ان تنهض القهرمانة سمعت بعض الغلمان يصيح من الخارج « اين السيدة القهرمانة

فنهضت القهرمانة وصاحت « من يناديني ؟ » وخرجت فاستقبلها أحد الغلمان وهو يقول « ان الامير عبد الرحمن يدعوك اليه »

فقالت وقد علتها الدهشة « وأين هو .. ؟ » وهرولت نحو القاعة فقال الغلام « هو ينتظرك في القاعة » فعادت الى هانئ وقالت له « اسرع يا مولاي الى جوادك وامض قبل أن يراك الامير هنا فربما رابه أمرك »

فأكبر هانئ أن يخرج خروج الهارب فتجلد وقال « اذهبي أنت اليه ولا تخافي فاني خارج على مهل »

الفصل العشرون

البغتة

فدخلت القهرمانة وقد ارادت ان ترسل مريم من باب آخر يؤدي الى غرفتها وتسير هي توًّا الى القاعة لملاقاة الامير عبد الرحمن

وخرج هانئ من الباب الخارجي وهو رابط الجأش حتى وصل الى أدهمه وهمَّ بأن يركبه فلقي بجانب الجواد رجلا من ملازمي الامير عبد الرحمن وقد أمسك بشكيمته . فلما دنا هانئ منه قال له « ان الامير يتقدم اليك ان توافيه الى خيمته في المعسكر فانه عائد اليها على عجل »

فقال « ومن انبأه اني هنا »

قال « عرف ذلك من جوادك »

أما القهرمانة فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن وكانت مريم قد ازدادت بتلك البغتة احمراراً وتجلت دلائل الحب في عينيها مع ما يغشاها من الدمع فلما رأت الامير عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه

أما هو فلما رآها تذكر والدتها فخاطبها اولاً ولم يلتفت الى القهرمانة وقال « مريم ! اين والدتك هل سافرت »

قالت « نعم يا مولاي سافرت في الصباح باكراً » قالت ذلك بلثغتها المعلومة ولم يكن عبد الرحمن سمعها تتكلم بعد فأعجبته تلك اللثغة وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار البغتة وتذكر انه رأى جواد هانيء بباب غرفة القهرمانة من الخارج فأدرك ان هانئاً كان هناك معها . فتظاهر عبد الرحمن بعدم المبالاة وتأكيداً لعدم مبالاته خاطب القهرمانة ببرود وسذاجة قائلاً « وهل رجع الامير هانيء ؟ »

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه وكاد يرتج عليها لو لم يتدارك الامر هو بقوله « ولكن لا بأس من ذهابه فاني سألاقيه بعد رجوعي » ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانة قائلاً « قد أوصيتك يا خالة باكرام هذه الضيفة وأعيد الوصاية الآن أن تبالغي في رعايتها واكرامها ولا تمنعي عنها شيئاً ولا تدعيها تستوحش في هذا الخباء فانها أعز نسائه عندي »

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها وتبادر الى ذهنها ان عبد الرحمن غافل عما حدث من أمر هانيء ومريم وقالت « اني فاعلة حسب أمر مولاي وبالحقيقة ان مريم لا يراها أحد الا احبها واكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها وهو يقول « أين ميمونة . . هل هي في غرفتها ؟ »

قالت « أظنها هناك » ومشت لتبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن « امكثي هنا مع مريم او امضي بها الى حيث تشائين

وانا اذهب الى ميمونة فاني اعرف مكانها . . »

وكانت ميمونة قد رأت الامير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك وعلمت انه رأى جواد هانىء ورأته يخاطب بعض غلمانه ويشير الى ذلك الجواد فدخلت وجعلت تتنسم ما عساه أن يكون من أمره بعد ان يرى القهرمانة ومريم ومعهما هانىء فشعرت انه لقيهما خارجتين من تلك الحجرة وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلاحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك

أما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهيباً أو يقفون له وقاراً حتى اقترب من باب الحجرة فتظاهرت ميمونة أنها قلقت لابطائه في الوصول اليها فاسرعت الى الباب وجعلت انها كانت في انتظاره على مثل الجمر . فلما اقبل حيته وتأدبت وعيناها تنظران اليه نظر المحب العاشق بلا تصنع مع انها غير عاشقة وانما كان ذلك منظر عينيها لما فيهما من اللمعان مع ما تتكلفه من اظهار الوجد بالابتسام والاطراق فينخدع الناظر اليها ويحسبها متفانية في حبه وخصوصاً اذا كان هو يحبها . أما عبد الرحمن فكان يستلطف ميمونة كثيراً ويحب قربها ولكنه كان ينظر اليها نظره الى بعض جواريه وكان من الجهة الاخرى قد عاهد نفسه أن لا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار فضلاً عن اشتغال خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ومسامرتهن . ولذلك قلما كان يأتي الى الخباء واذا اتاه اظهر لميمونة لطفاً خصوصياً لغرض في نفسه لم يكاشف به احداً . وكانت هي ربما ادركت غرضه وتجاهلت أو انها تظاهرت بما يريده هو وجعلت انها تفعله عفواً ولها من وراء ذلك مآرب لو تصوره عبد الرحمن لعجل بها الى الفناء

الفصل الحادي والعشرون

المكر المتبادل

علمت مما تقدم ان ميمونة سبية افرنجية كانت في جملة خدم لمباجة بنت الكونت اود حاكم تلك المقاطعة في فرنسا وقد سبيت في جملة غنائم المنيذر

الافريقي زوج لمباجة المذكور – وكان اهل الخباء يعتقدون ان ميمونة كانت من خاصة نساء لمباجة واقرب المقربات اليها . فكان عبد الرحمن يرجو الانتفاع من ذلك في بعض المخابرات مع اود أو بعض قواده ولكنه كتم هذا الامر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانىء . فلما بعثت ميمونه اليه في ذلك الصباح اسرع اليها على عجل يتوقع منها خبراً يتعلق بالحرب من قبيل ما تقدم

فلما رأى وقفتها على تلك الصورة خيل له أنها تعشقه وتستهلك في خدمته فسره ذلك على امل استخدامها في غرضه فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وهو يقول « ما الذي تريدينه مني يا ميمونة »

فقالت وهي تحاول القعود بتأدب « اريد اموراً كثيرة يا مولاي لا ادري ايها اقوله اولاً » . قالت ذلك وتنهدت واستنزلت دمعتين رآهما عبد الرحمن تتساقطان على خديها وهي مطرقة تظهر انها استحيت من افتضاح سرها بهما

فانخدع عبد الرحمن ولكنه اجابها على الفور « لا ارى حاجة الى ذلك وانت تعلمين ما عاهدت ربي عليه منذ عزمت على هذه الحرب »

فاسرعت في الجواب كانها تستدرك اصلاح ما تبادر الى ذهنه فهمه خطاء فقالت « لا يتوهم مولاي اني اطمع بغير رؤية هذا الوجه الصبوح . ولكنني مخطئة في التطاول الى ما لا استحقه فان في خباء مولاي الامير عشرات من امثالي وما فيهن من تجرأ على هذه الكلمة . اما انا فلا ادري ما الذي جرأني عليها . فهل دلني قلبي على الصواب او لعله خدعني ؟ لا ادري . وفي كل حال يكفيني ان يكون الامير عالماً بما له في هذا القلب من الحب الشديد على اني لا اكافه مثله او مثل بعضه لان الحب لا يكون قهراً » . قالت ذلك وغصت بريقها وسكتت

وكان عبد الرحمن يعتقد ان ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك العتاب قبلاً فتبادر الى ذهنه انها اندفعت الى العتاب غيرة عليه من مريم والغيرة تفعل العجائب فاراد ان يحقق ظنه فقطع حديثها وقال « هل رأيت الضيفة الجديدة ؟ »

فسرت ميمونة لابتداء عبد الرحمن بذكرها فاجابت على الفور « كيف لم ارها وقد وقفت نفسي لخدمتها من ساعة وصولها لعلمي ان ذلك يرضي الامير . ولم افارقها الا ساعة في هـذا الصباح لاشتغالها في غرفة القهرمانة مع الامير هانىء ؟ » . قالت ذلك وهي تتظاهر أنها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير واصغت بكل جوارحها لما عساه ان يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

اما هو فاحس بشيء من الغيرة وتذكر ان والدة مريم انما اذخرتها له وفكر في اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة فلم يرَ له سبباً غير الحب المتبادل بينهما فحدثته نفسه لاول وهلة أن يمنع هانئاً من ذلك ولكن حبه هانئاً ورغبته في حفظ الوفاق معه الى نهاية تلك الحرب — كما شرطاه على نفسيهما — غلب على ذلك الشعور وتصور ما هم فيه من الامر العظيم والخطر الشديد فأضمر في باطن سره انهم اذا فرغوا من هذه الحرب فائزين وظل هانىء على ما شرطه على نفسه من البسالة والثبات ساعده على نيلها فتجلد عبد الرحمن وأجاب ميمونة وهو يظهر عدم المبالاة « لكن هانئاً خرج الآن من عندها وشاهدت مريم مع القهرمانة وقد سرني ارتياحها للاقامة في الخباء فارجو ان تعيريها التفاتك لاني موصى باكرامها ولي بذلك غرض أرجو أن تساعديني عليه »

فلما سمعت ميمونة قوله استغربت ما يكتمه من امر هذه الفتاة وتأسفت لذهاب سعيها هباءً منثورا ولكنها ارادت تحقق الامر فبالغت في التجاهل واظهار السذاجة وقالت « اكد يامولاي اني فاعلة ما تريده وبالحقيقة ان هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالاً وتعقلاً ورزانة وهي خفيفة على القلب لا يستطيع جليسها الا ان يحبها فاذا كنت لا اكرمها اكراماً لمولاي الامير فاني افعل ذلك حباً بها . ولا بأس اذا احبها الامير . اكثر من سائر نسائه لانها اهل لذلك »

فخاف عبد الرحمن اذا طال الحديث ان يبدو منه ما لا يريد التصريح به فابتدرها قائلاً « لقد خرج بنا الحديث عن اصل الموضوع .. ما الذي دعوتني من اجله الآن ؟ »

فاظهرت الاهتمام وقال « دعوتك لامر هام وكان يجب ان لا اقدم قولاً

عليه وربما كان فيه وحده ما يغنيني عن الادلة على حبي الامير عبد الرحمن وتفانيَّ في خدمته ـ فاعلم يا مولاي اني بثثت العيون من بعض الذين تركتهم لخدمتي لاستطلاع احوال العدو بعد سقوط بوردو فعلمت ان الكونت اود ورجاله متربصون لكم في مضيق دردون (١) على مقربة من هذا المكان . والمضيق في طريقكم الى نهر لوار »

ولم يكن عبد الرحمن غافلاً عن اخبار عدوه لان جواسيسه كانت مبثوثة في كل الانحاء واكثرهم من اهل البلاد الاصليين وخصوصاً اليهود فانهم كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في مساعدة المسلمين انتقاماً من المسيحيين وطمعاً بالغنائم كما تقدم ـ فلم يكن خبر اود ودردون ليخفى على عبد الرحمن ولا كانت ميمونة تجهل اطلاعه عليه ولكنها تجاهلت واظهرت الاهتمام بامر الجند واوهمت انها اطلعت على السر بسعيها الخصوصي ولو علمت انه يجهل ذلك الخبر لبالغت في كتمانه . فسايرها عبد الرحمن واظهر انه فرح بذلك الخبر تنشطاً لها على السعي في خبر آخر فقال لها « بورك فيك يا ميمونة قد تحققت الآن حبك نصرنا وأرجو ان لا تغفلي عن مثل ذلك »

لم تكن ميمونة تجهل اطلاع عبد الرحمن على ذلك الخبر من قبل ولكنها تجاهلت التماساً لما يسوغ لها استقدامه في ذلك الصباح لتطلعه على حب هانىء لمريم ايقاعاً للفتنة بين الاميرين وقد ساءها ان حيلتها لم تأت بالفائدة المطلوبة. ونسبت حبوط مسعاها الى سعة صدر عبد الرحمن وطول اناته فاضمرت ان تحول سهام مساعيها نحو هانىء لانه شاب لا يصبر على الكظم . وغرضها الاول ايقاع الفتنة بين ذينك القائدين وباختصامهما فشل ذلك الجند الكبير فعزمت على تدبير الحيلة في وقت آخر ولما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة العتب والدلال والاستعطاف ولولا رزانة عبدالرحمن وقوة ارادته لخرقت تلك النظرة صدره الى قلبه ولهاجت فيه لواعج الغرام وانسته الجند وارباب لما في عينيها من عوامل الجاذبية وما حول فمها من الملامح الفتانة وما في مجمل ذلك من السحر الآخذ بالالباب ـ ولا غرو اذا عبر الشعراء

(١) رينو

عن تلك الجواذب بالسحر لانها تعمل عملاً لا يمكن تعليله بغير السحر . وربما عبر عنه بعض علماء الطبيعة اليوم بالكهربائية فمن كان حسنه جذاباً قالوا ان كهربائيته قوية ــ وهو عبارة عن تفسير الماء بالماء

الفصل الثاني والعشرون

من شق الحائط

فلما نظرت ميمونة الى عبد الرحمن تلك النظرة فهم أنها تعاتبه على ذلك القول ولسان حالها يقول له « اني قتيلة هواك ومستهلكة في خدمتك » فسره افتتانها به رغبة في استخدامها لما ينفع الجيش فابتسم لها وهشّ وفي عزمه أنه يزيدها بذلك استهلاكاً في خدمته وهي كلما رأت منه انعطافاً بالغت في اظهار الافتتان به . فلما علم عبد الرحمن انها فرغت من الخبر الذي استقدمته لاجله نهض وهمّ بالخروج فنهضت ميمونة وهي تقول « لولا علمي بالمهام الكثيرة التي تتعلق بذهابك ايها الامير لتوسلت اليك ان تبقى هنيهة أخرى . . . فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريباً ؟ . . واذا ذهبت فهل تتركني هنا . . »

فادرك أنها تقول ذلك تدللاً فلم يجبها بغير الابتسام وخرج مسرعاً يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر فمشت ميمونة في أثره حتى اذا اوشك الوصول الى باب الخباء سمعته يقول « مرحباً بالامير هانيء ألا تزال هنا ؟ لماذا لم تدخل الخباء » فازدادت ميمونة استغراباً من ذلك الترحاب

فتقدم هانيء وهو يلتف بعباءته وليس في وجهه وجل ولا خجل وقد اكبر أن يرجع الى المعسكر رجوع الهارب بعد أن علم عبد الرحمن بوجوده هناك — شق عليه أن يفعل ذلك انفة وكبراً وخصوصاً بعد أن علمت مريم به . فلما اوعز اليه غلام عبد الرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله في الركاب لا يتكلم ولا ينتقل . وخيل له أن مريم تنظر اليه وتراقب حركاته

فلبث حيناً واقفاً ثم تحول عن الجواد بغتة ومشي نحو باب الخباء يلتمس ملاقاة عبد الرحمن . فقيل له أنه في خلوة لا يراه فيها أحد فعزم على انتظار خروجه فجعل يخطر امام الخباء وعيناه تراقبه

وكانت مريم لما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التفكر في هانىء وخروجه على تلك الحالة فارادت أن تستطلع امره فتحولت الى جدار الخباء ونظرت من شق فيه فرأت هانئاً تمشى خارجاً وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلاعب شاربيه ولحيته ويتمايل بمشيته كالاسد . فاختلج قلبها في صدرها سروراً بلقياه وودت لو أنها تخاطبه ولكنها خافت من القهرمانة فاكتفت بالنظر اليه وتأمل حركاته على غفلة منها . وبعد قليل سمعت ضجة في الخباء فعلمت أن عبد الرحمن خارج فاحبت أن تعلم ما يكون من امره اذا لقي هانئاً فتحولت بحيث تراهما ولا يراها احد لاشتغال القهرمانة وسائر أهل الخباء بوداع الامير . فرأت هانئاً مشى نحو عبد الرحمن حتى التقيا وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الاخ ويعاتبه على تخلفه وهانىء يدلّ عليه دلال الابن على ابيه وعبد الرحمن يبتسم له ويرحب به وسمعت هانئاً يقول وهو يخطو نحوه « بلغني انك سألت عني .. »

فاجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه « وهل يسأل المرء الا عن أخيه أو حبيبه » قال ذلك وابتسم واهل الخباء يسمعون واكثرهم سروراً بذلك مريم واشدهم غيظاً ميمونة ثم مشي عبد الرحمن ويده بيد هانىء فقدموا لهما الافراس فركبا الى المعسكر وحولهما الخدم والاعوان

وظلت ميمونة ومريم تنظران الي ذلك الركب وكل منهما في ناحية وقلبها في ناحية حتى تواروا فعادت ميمونة الى خلوتها وأعملت فكرتها في حيلة اخرى وقد أسفت اسفاً لا مزيد عليه لفشلها وذهاب سعيها هدراً

الفصل الثالث والعشرون

المكاشفة

أما مريم فانها عادت من وراء ذلك الجدار وقد شبت نيران الحب في قلبها والتمست الخلوة لتراجع في ذهنها ما دار بينها وبين حبيبها استئناساً بذكراه ومخافة أن يكون قد بدر منها عبارة تؤاخذ عليها . جلست في غرفتها هنيهة كأنها في عالم الخيال ثم انتبهت للقارورة وكانت لا تزال في قبضتها فنظرت اليها وفتحتها واشتمت رائحتها فطربت لها واستأنست بها لانها من هانيء ، وصبت قليلاً من الطيب على كفها دهنت به شعرها ووجهها وكفيها ففاحت رائحة ملأت الخباء بطيبها

وبينما هي في خلوتها دخلتْ ميمونة وهي تبتسم ابتسام محب معجب بحبيبه فقابلتها مريم بمثل ابتسامها وقد ارتاحت اليها وتاقت الى مكاشفتها بما شغل خاطرها من الحب ولكنها امسكت نفسها لئلا يكون في ذلك ما يغضب حبيبها على أنها رحبت بميمونة وتحفزت للوقوف احتفاء بها فسبقتها ميمونة الى الحديث فقالت وهي تهش لها « اراك عدت من غرفة القهرمانة وقد زدت طيباً »

وكانت القارورة لا تزال في قبضتها فضحكت وبدا الحياء في وجهها وبادرت الى القارورة تخبأها في جيبها ولم تحر جواباً

فادركت ميمونة ان بين تلك القارورة وهانيء علاقة فعمدت الى استكشاف سرها منها فقالت « لقد زادك الحياء طيباً يا حبيبتي . ألعل الطيب من ضيفك البطل الصنديد الامير هانيء . ارجو أن لا يكون من سواه لانه يليق بك . ولو خيرت أن تنتقي لك حبيباً من بين رجال العالمين لما وقع اختيارك على خير منه »

فادركت مريم اطلاع ميمونة على ذلك السر ولكنها تجاهلت وقالت « كيف تحكمين على الامر قبل التثبت . من أين عرفت ذلك ؟ »

قالت وهي تضحك وتقترب من مريم «عرفته من مصدر وثيق . وتحققته من قرائن الاحوال . واذا كنت تنكرين ذلك عليّ فان ملامحك تشهد عليك . على اني لا ألومك على التستر لان الحب يحلو بالكتمان وقد كان يجدر بي أن اسايرك واظهر اقتناعي بانكارك ولكنني لم أرض بذلك شفقة عليك وحباً بك »

فلما سمعت مريم قولها استغربت تلميحها بالشفقة ولم تفهم مرادها فرفعت بصرها اليها وقالت « لم افهم مرادك من الاشفاق ألعل في حالتي ما يبعث على الشفقة ؟ افصحي .. »

فقالت « لا أقول شيئاً قبل أن تعتقدي حبي لك وغيرتي على مصلحتك . . »

قالت « انت تعلمين اني احببتك وقد وثقت بك من اول نظرة وخصوصاً بعد ما عاينته من حبك لي فلا حاجة بعد ذلك الى برهان »

قالت « صدقت يا حبيبة اني اشعر من قلبي باخلاصك ولكنني اخاف ان أقول لك قولاً ان تحميله على غير محمله ومع ذلك فاني افعل ما تدعوني اليه محبتك . نعم ليس هناك ما يدعو الى القلق الكثير ولكنني اختبرت هؤلاء العرب واطلعت على سجاياهم وفي جملتها انهم يغارون على اعراضهم غيرة شديدة. وانت تعلمين انك هنا في خباء الامير عبد الرحمن وكل من في هذا الخباء من نسائه فيجدر بك ان تحاذري من التظاهر بشدة ميلك الى الامير هانىء في حضرته ـ واظن الامير هانئاً نفسه يتوقع ذلك منك ـ لا تظني اني اقول هذا بناء على قول سمعته فاني اعتقد حب الامير عبد الرحمن لهانىء ومراعاته جانبه حتى انه لا يمنع عنه شيئاً يريده لان عليه معتمده في هذه الحرب وهو يمينه التي يناضل بها . ولكني اردت تنبيهك لعلمي ان هانئاً يريد ذلك منك وان كان لا يظهر لك انفة وترفعاً واما انا فقد خبرت عادات القوم وآدابهم في هذا الشأن . ولعلك سمعت عن منزلتي عند الامير عبد الرحمن والا فاني اخبرك اني اقرب نسائه منه وهو يعتمد عليّ في كثير من المهام . فاذا علمت ذلك كوني على يقين ان الامير عبد الرحمن لا يفعل الا ما يرضيك »

فقبلت مريم تلك النصيحة باخلاص وازدادت وثوقاً بميمونة بعد ماعرضت به من مساعدتها وهان عليها مكاشفتها بما في قلبها فالتفتت اليها وقد انبسطت نفسها وقالت « اشكرك على ذلك يا سيدتي وسأعمل حسب اشارتك . ولا ريب انك عالمة بكل ذلك وأنت من اكثر نساء هذا الخباء ذكاء ولطفاً »

فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت اليه وأرادت الانتقال الى موضوع آخر فقالت ذكرت لك الطيب فلم تجيبيني عليه اين القارورة ؟ »

فمدت مريم يدها واستخرجت القارورة ودفعتها الى ميمونة ففتحتها واشتمت رائحتها وهي تقول « لم اشتم في عمري مثل رائحة هذا الطيب انه طيب خاص ليس عند احد من أهل هذا الخباء مثله » . قالت ذلك وارجعت القارورة ولم تمس ما فيها

فقالت مريم « تطيبي بشيء من هذا الطيب فانك أهل لذلك »

فامتنعت ميمونة وهي تسد القارورة وتقول « لا يجوز لاحد سواك ان يمس هذا الطيب لانه هدية خصوصية لك » ودفعت اليها القارورة وهي تبالغ في الامتناع

فاستحسنت مريم تمنعها وزادت وثوقاً بصدق مودتها ففتحت لها قلبها وصارت لا تستأنس الا بقربها مع ميل الى مكاشفتها بعواطفها وميمونة تعمل فكرتها لاستخدام ذلك عند الحاجة

الفصل الرابع والعشرون

الاطمئنان

أما عبد الرحمن وهانىء فانهما ركبا وسارا نحو المعسكر وحولهما الفرسان في موكب وكل منهما يفكر في جهة ومرجع التفكير الى مريم . فكان هانىء يتذكر ما دار بينه وبينها وما آنسه من مجاملة عبد الرحمن ولطفه على حين أنه كان يتوقع امتعاضه — فاذا تذكر ذلك انشرح صدره لانه كان يخاف اذا بدا له من عبد الرحمن برود أن يأول ذلك الى نفور مضر. وكان عبد الرحمن

يفكر بسالة وما دار بينه وبينها بشأن مريم وتلميحها بأنها ستكون له بعد الفراغ من تلك الحرب لسر لم تصرح له به وتذكر استلطافه مريم وتصور ما هي فيه من الجمال والهيبة ثم ما ظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانيء. فلما بلغت تصوراته الى ذلك الحد شعر بغيرة شديدة ولكنه انتبه لما هم فيه من الحرب وشدة احتياجه الى هانيء حتى ان النجاح ليتوقف على اتفاقهما. وعلم ان ذلك الاتفاق لا يتم الا بارتياح هانيء وارتياحه لا يكون الا بحصوله على مريم — فلما تمثل له ذلك عاد الى تعقله وسعة صدره بخطارة المشروع الذي هم بصدده فهان عليه ارضاء هانيء وخاف ان يكون في سكوته في اثناء الطريق باب للشك ففتح الحديث قائلاً « ألم نحمد الله على انتصارنا في هذه الحرب يا هانيء ؟ »

قال لقد حمدته حمداً كثيراً على ذلك والفضل فيه راجع الى بسالة الامير عبد الرحمن وتدبيره »

قال « بل الفضل فيه للامير هانيء قائد فرساننا . بل أرى الفضل فيه لما وفقنا اليه من الوفاق المتبادل وأرجو ان يبقى ذلك الى نهاية هذه الحرب »

قال « وانا أرجو ذلك ايضاً واذا تم لنا الفتح كان فيه الفخر للعرب كافة لاننا فتحنا لهم بلاداً واسعة يحكمون أهلها ويجبون خراجها وينشرون الاسلام فيها »

قال « واظن سرورك بفتح بوردو يضاهي سرورنا جميعاً بما فتحناه وسنفتحه من البلاد » . قال ذلك وابتسم

فادرك هانيء تعريضه بمريم فضحك وقد انشرح صدره وقال « لا استطيع انكار ذلك أيها الامير لانه ظاهر في كل جارحة من جوارحي وأرجو أن يكون أخي مسروراً معي »

قال « اني اسرّ بكل ما يسرّك . وثق اني عون لك في كل ما تريده . ولكنك تعلم ما عاهدت نفسي عليه مذ ركبت هذا المركب الخشن »

فلم يفهم هانىء مراده فقال « وأي عهد تعني ؟ »

قال « اعني اني عاهدت الله ان لا أقرب النساء قبل أن أفرغ من هذه الحروب او ان نقطع نهر لوار على الاقل . فهل انت على هذا الرأي ؟ »

ففهم هانىء مراده فقال « نعم اني أعاهد الله على هذا أيضاً وقد كان رأيي في النساء كما تعلم ضعيفاً فلم اتزوج امرأة ولا اقتنيت جارية ولولا وقوع هذه الفتاة من نفسي موقعاً عظيماً ما غيرت رأيي — أما الآن فاعترف لك اني أصبحت عالق القلب بمريم وهي كما ترى اهلٌ لذلك »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً « انها من خيرة النساء جمالاً واذا وفقنا الى ما نرجوه من النصر كنت اول مسرور بنيلك اياها غير اني أرجو ان يبقى ذلك مكتوماً عن كل انسان لاسباب تعلم بعضها وتجهل البعض الآخر ولا تكلفني التصريح بما وراء ذلك »

فاحس هانىء من تلك الساعة بثقل ازيح عن صدره وارتاح باله وان كانت اشارة عبد الرحمن الى الاسباب التي لا يعلمها شغلت خاطره قليلا . على انه شعر بميل شديد الى مكاشفة مريم بما دار بشأنها مع عبد الرحمن — وذلك طبيعي في المحبين فانهم يتلذذون بمكاشفة بعضهم بعضاً لأخبار الناس فكيف بما يتعلق بهم وخصوصاً ما كان منه راجعاً الى تحقيق امانيهم وعلى الاخص اذا أؤتمن أحدهم على سر وطلب اليه كتمانه فانه يزداد ميلاً الى مشاطرة حبيبه بالاطلاع عليه كانه يعدُّ ذلك اكراماً خصوصياً لاختصاصه اياه بشيء ثمين اؤتمن هو عليه

ثم عاد الاميران الى السكوت مدة والركب ماش حتى دخلوا المعسكر وكان الجند قد فرغوا من اقتسام الغنائم وهم فرحون بما نالوه منها وخصوصاً البرابرة لما علمت من مطامعهم — ظل الاميران سائرين حتى وصلا خيمة الامير عبد الرحمن فدخلاها ثم صفق عبد الرحمن فجاءه بعض الغلمان فقال له « ادع الامراء الى هنا الساعة »

فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانىء وقال له « قد علمت من أخبار الجواسيس وغيرهم ان طاغية اكيتانيا الكونت أود معسكرٌ بجنده في

مضيق دردون على بضع ساعات من هذا المكان [١] فينبغي لنا أن نبادر اليهم قبل ان يتأهبوا للدفاع فاذا غلبناهم وقتلنا أميرهم ذهب عنا نصف العناء في هذا الفتح او هو العناء كله ولم يبق من يقف في سبيلنا الى نهر لوار . ماذا ترى ؟ »

قال « أرى أن نبادر الى الحرب والجند متشدد على أثر النصر »

قال « فمتى حضر الامراء فاوضناهم ولا اظنهم الا موافقين على الزحف فنرحل برجالنا ونترك الاخبية في مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم . فاذا هزمنا الافرنج باذن الله حملنا نساءنا وعيالنا وغنائمنا وسرنا الى تورس على نهر لوار »

وبعد قليل جاء الامراء وهم بضعة عشر اميراً وفيهم العربي والبربري والشامي والمصري والنبطي وغيرهم وفي جملتهم الامير بسطام . فعرض عبد الرحمن عليهم رأيه وساعده هانىء على تنفيذه فوافقوا جميعاً على الرحيل في صباح الغد على ان يتركوا النساء في الاخبية حيث هن . فلما اجمعوا على ذلك التفت عبد الرحمن اليهم وقال لهم « انتم تعلمون اننا سائرون لمحاربة هؤلاء الافرنج في معسكرهم والمسافة بيننا قريبة وهم متحصنون في جبالهم فينبغي لنا ان نسير اليهم خفافاً . ولا يخفى عليكم ما قد صار الى رجالنا من الغنائم في اثناء الفتوح التي وفقنا اليها منذ خروجنا من الاندلس وهي ثقيلة حتى لقد ثقل على الرجال حمل غنائمه وحدها بلا حرب [٢] فكيف اذا اضطر الى الهجوم والركض فالرأي على ما أرى ان يتركوا غنائمهم في هذا المعسكر بقرب الاخبية فتبقى هناك هي والنساء ونجعل معها حامية من رجالنا فاذا بلغنا من عدونا ما نريده أضفنا اليها ما نغتنمه منهم . . » قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضة بعضهم لعلمه بحرص اولئك القوم على حطام الدنيا وفيهم من لم يأت الى تلك الحرب الا رغبة في الاموال ــ فاستدرك هانىء ما خافه عبد الرحمن قائلاً ان الامير مصيب برأيه ولا أظنكم الا موافقين عليه لاننا نخشى اذا جاهد رجالنا وهم مثقلون بالغنائم ان يعجزهم حملهم فينوؤن تحت اثقالها فيقصرون في ساحة

(١) رينو ــ والمسافة اطول من ذلك (٢) رومي ج ٣

الوغى ولا يخفى عليكم ما يترتب على ذلك من الفشل »

وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصاً من الامير بسطام لحرص رجاله على الاموال لسبب تقدم بيانه وكان عبد الرحمن في اثناء كلام هانىء يتفرس في وجوه الامراء فوجد التردد ظاهراً على الخصوص في وجه بسطام فاستأنف الكلام قائلاً « والذي أراه أن نعهد بحراسة تلك الغنائم الى الامير بسطام ومن يختارهم من رجاله ومعهم جماعة من رجال سائر الامراء . . »

فوقع ذلك الرأي موقع الاستحسان عند الجميع فوافقوا عليه وخرجوا للعمل به ولكي يأمروا رجالهم بالتأهب للرحيل في صباح الغد

فذهب هانىء الى خيمته ولم ينم تلك الليلة لما خالج افكاره من الهواجس بمريم على اثر ما سمعه من عبد الرحمن حتى حدثته نفسه ان يطير اليها في ذلك الليل ويكاشفها بما دار بينه وبين عبد الرحمن بشأنها ويخبرها بعزمهم على الرحيل الى محاربة الافرنج ويصبرها الى الرجوع وقد زاده رغبة في الذهاب اليها انه فارقها ولم يتمكن من وداعها كما يريد — ولكنه تذكر أهمية وجوده في الصباح هناك وخاف غضب عبد الرحمن فرجع عن عزمه

الفصل الخامس والعشرون

المنديل

وفي الصباح قام المسلمون للصلاة ثم نفخ في النفير فتأهبوا للمسير وساروا كأنهم بحر يتلاطم بالامواج وفيهم الفرسان والمشاة وبينهم الرماحة والرماة . وقائد الفرسان العام هانىء وقد ركب ادهمه ولبس خوذته والتف بعباءته وقوضوا الخيام ولم يتركوا منها الا ما وضعوا فيه غنائمهم ومعها الامير بسطام وبعض رجاله ونفر من رجال القبائل الاخرى

وبعد المسير بضع ساعات أشرفوا على جبال اخبرهم الجواسيس ان أود ورجاله متحصنون فيها فنزل المسلمون في سهل بالقرب من ذلك المضيق وترجل الفرسان وسرحوا خيولهم للعلف والراحة على ان يستريحوا ريثما يطيب لهم

الهجوم . وقد أقاموا الخفر حول المعسكر وبثوا سراياهم يستطلعون أحوال أعدائهم ومناعة مواقعهم ليعلموا من أين يهاجمونهم وذهب هانيء للاستراحة في خيمته وفي المساء جاءت الطلائع فاخبروا ان الافرنج مقيمون في الجبال وهم كثيرون وقد تحصنوا وأقاموا لا يبدون حراكا . فاجتمع أمراء المسلمين وتفاوضوا في الامر فرأوا الهجوم على حصون الافرنج شديد الخطر فتربصوا ليروا ما يبدو منهم فاذا لم يخرجوا من حصونهم نظروا في الهجوم عليهم

فبات هانيء تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه وعاد الى التفكير في مفارقة المعسكر بضع ساعات ولا خطر على الجند في غيابه للاسباب التي قدمناها على انه ما زال متردداً في الذهاب خوف الفشل وحياء من عبد الرحمن

فاصبح في اليوم التالي وخرج على قدميه وقد تراكمت عليه الهواجس وهو يفكر في حاله وحال مريم وحال الجند . وبينما هو يمشي في سهل خارج المعسكر رأى رجلاً بلباس عربي قادماً من عرض البر يهرول نحوه ويشير اليه فوقف فلما دنا الرجل منه تفرس هانيء فيه فاذا هو ملثم فناداه فمد الرجل يده الى جيبه واستخرج منديلاً وسلمه الى هانيء . فلم يكد هانيء يستلم المنديل حتى شم منه رائحة مريم — عرف ذلك من طيبها الذي أعطاها اياه بالامس فصاح في الرجل « من أنت وما خبرك ؟ »

فقال « ان هذا المنديل ينبئك عني ان صاحبه في حاجة اليك على عجل » قال ذلك وسار يعدو في عرض البر . فبهت هانيء ثم انتبه لنفسه وصاح في الرجل ان يقف فلم يلتفت اليه . فوقف هنيهة وهو يعمل فكرته في ماذا عسى ان يكون سبب تلك الدعوة المستعجلة ولم يشك أن المنديل منديل من مريم والطيب طيبها فلم يرَ بدًّا من المبادرة الى اجابة الدعوة وهو مطمئن البال على المعسكر واسرع الى خيمته فركب جواده والتف بعباءته وسار يلتمس الخباء ولم ينبىء أحداً بمسيره لعلمه انه سيعود قبل انقضاء النهار فلا بأس من غيابه وخاف اذا شاور عبد الرحمن ان يستخف بعمله أو ان يمنعه من الذهاب

سار هانيء وهو يستحث جواده لا يلتفت يميناً ولا شمالاً حتى وصل

الخباء وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة وتبلل هو وجواده بالعرق . وحال وصوله ترجل ودخل توًّا الي خباء الامير عبد الرحمن واستدعى القهرمانة فجاءت وهي تتوكأ على وركيها وتمشي الهوينا وحالما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة « اين مريم ؟ »

فبغت لسؤالها وقال لها « أتسأليني عن مريم وانا انما جئت لاسألك عنها . اين هي ؟ »

قالت « هي عندك . ألم تبعث بطلبها في هذا الصباح ؟ »

قال « انا ؟ بعثت بطلبها ؟ أين هي ؟ قولي ان الوقت لا يساعدنا على المزاح

فقالت وقد ظهرت الدهشة في ذلك الوجه الكالح وامتقع لونها « أظنك أنت المازح ألم تبعث اليها في هذا الصباح مع رسولك ومعه جوادك وعباءتك وخوذتك ؟ »

فصاح فيها وقد تعاظم غضبه « كلا لم أبعث أحداً وهذا جوادي معي وهذه عباءتي . تبصري في ما تقولين ؟ قولي لي الصحيح والا قطعت رأسك بهذا السيف » قال ذلك ويده في قبضة سيفه

فخافت القهرمانة وتحيرت بماذا تجيبه وقد ارتج عليها من الخوف والاستغراب وقالت تمهل يا بنيَّ لاقص الخبر عليك . جاءنا في هذا الصباح رجل اظنه من رجالك وقد ركب جواداً ومعه جواد آخر ادهم لم نشك انه ادهمك عليه عباءة وخوذة وقال لي انك تطلب مريم حالاً بامر الامير عبدالرحمن لامر ضروري يتعلق بوالدتها ودفع اليَّ هذا الكيس (ومدت يدها واخرجت كيساً فيه دراهم) فامتنعت في بادىء الرأي ولم أطعه فالح عليَّ وأراني الجواد والعباءة وقال لي انك تطلب مريم لغرض مستعجل يتعلق بالحرب وانك بعثت لها جوادك لتركب عليه فلم اقبل منه فذكر لي علامة لا يعرفها احد سوانا وهي قارورة الطيب وقال العلامة لصدقه انك اجتمعت بمريم عندي وأعطيتها قارورة الطيب فلم استطع الا تصديقه ومع ذلك فاني لم اسلم بارسالها الا بعد ان أتى بعلامة من الامير عبد الرحمن لا يعرفها سواي واخيراً سلمته إياها وانا

خائفة عليها ولشدة خوفي اخرجت معها احظى نساء الامير عبد الرحمن عنده واوصيتها بها »

وكان هانئ يسمع كلام القهرمانة وهو يرتعد من شدة الغضب فلما تحقق عنده ذهاب مريم قال « ومن هي تلك الحظية »

قالت « هي ميمونة الافرنجية أظنك تعرفها »

فقال « نعم أعرفها والى أين ذهبوا وكيف »

قالت « لما توهمت صدق ذلك الرسول ورأيت مريم راغبة في الذهاب اذنت لها فيه فركبت الجواد الادهم وركبت ميمونة جواداً آخر ومضوا نحو المعسكر »

الفصل السادس والعشرون

بسطام

فوقف هانيء وهو لا يتمالك عن الارتعاش من شدة التأثر والقهرمانة واقفة بين يديه وقلبها يخفق خوفاً وقد اخذت تخفف غضبه قائلة « لا بأس عليها يا بني ان ميمونة وهي تحبها حباً شديداً واظنها تحرص عليها كثيراً . . . اجلس وخفف عنك . . . لا بأس عليها »

فلم يلتفت هانيء الى تلك الطمأنة على انه ثاب اليه رشده وفكر في ماسمعه فتذكر أن القهرمانة ذكرت والدة مريم فظن للامر سبباً متصلاً بسر تلك الوالدة منذ رأوها لاول مرة بعد فتح بوردو وخيل له ان سالمة احتالت تلك الحيلة لاسترجاع ابنتها . ولكنه تذكر القارورة فرأى ذكرها لا ينطبق على ذلك الظن فلم يدر ما يقول . فلما تشابه الامر عليه رأى أن يبادر الى المعسكر للبحث عنها فتذكر للحال ان الامير بسطاماً هناك فتبادر الى ذهنه ان الامير المذكور هو الذي احتال هذه الحيلة لاختطاف مريم منه لانه لم يزل عالقاً بها من يوم الفتح فالتفت هانيء الى القهرمانة وقال « تقولين انهم ساروا نحو هذا المعسكر ؟ » وأشار الى معسكرهم بالامس

قالت « نعم يا مولاي »

فاسرع الى جواده فركبه وحول رأسه نحو ذلك المسكر وهمز الجواد وأطلق له العنان

وقد عزم اذا رأى مريم عند بسطام ان يقتله حالاً سار ومع سرعة عدو الادهم فقد كان يحسبه واقفاً

وكان في المعسكر مضارب قليلة للغنائم وحولها الخفر من رجال بسطام وغيرهم ولما أشرف عليهم هانىء رآهم يختصمون ويتضاربون وقد علا ضجيجهم فلما رأوه تقدم بعضهم وهم يستغيثون . فصاح فيهم « ما الخبر . . »

فقال أحدهم « نشكو اليك جور الامير بسطام فانه سلط رجاله فاستأثروا بالغنائم وأخذوا من أسهم رجالنا فاضافوها الى اسهمهم ولم يسمع هو لصراخنا»

فازداد هانىء غيظاً من بسطام وصاح « اين بسطام . اين هو ؟ »

ولم يتم كلامه حتى خرج اليه بسطام وهو يمشي الهوينا ويترنح ترنح السكران فلما رآه هانىء لم يتمالك ان صاح فيه « ما هذه الجسارة على أموال المسلمين . قد أمنك الامير على الغنائم فاستأثرت بها . وسطوت على حقوق المسلمين . لقد صدق القائلون انك لست مسلماً »

فقهقه بسطام وهو يمسح لحيته من بقايا طعام تساقط عليها كانه كان على المائدة وقال « مالك وللغنائم ألم تشغلك تلك النصرانية عنها . دع الحرب واذهب الى الخباء فانك اولى بمعاشرة النساء . ولكن ستذوق عاقبة غيك قريباً » قال ذلك وهو يضحك كأنه ضامن فوزه

فحمي غضب هانىء من تلك العبارة حتى غاب رشده فاستل حسامه وساق جواده نحوه واطلق الحسام وهو يتعمد قطع رأسه فخلا بسطام من الضربة فهوى هانىء حتى كاد يقع عن جواده فازداد حنقاً وحول الشكيمة نحوه وانقض عليه انقضاض الصاعقة فتوسط بعض الرجال بينهما وهانىء لا يبالي بهم ولم يعد يصبر عن قتل بسطام ففر بسام الى احدى الخيم واختبأ فيها فهمّ هانىء أن يترجل ويتبعه فاحاط بعض الرجال بجواد هانىء وتقدموا اليه أن يغمد سيفه حباً بالاسلام والمسلمين . فرجع هانىء الى رشده ووقف

وهو يرتجف من شدة الغضب كأن ذكر الاسلام خفف من غضبه وسكن روعه وخصوصاً لما تصور ما قد ينجم عن قتل بسطام من الخصام بين فرق الجند . فامسك نفسه وتجلد واكتفى بفرار بسطام . . وعاد الى الامر الذي جاء من اجله فعمد الى البحث عن مريم هناك فجعل ينظر في الخيول الواقفة حول الخيام فلم ير بينها جواداً ادهم ولا رأى هناك نساء فسأل بعض الوقوف ممن يثق بهم من رجاله عمن في الخيم فقالوا له « ليس فيها غير الغنائم »

فافرد نفراً يعرفهم وسألهم « هل مر بكم ركب على افراس ومعهم نساء »

فقالوا « كلا . اننا هنا منذ الامس ولم نرَ احداً

فوقف في حيرة وقد عادت اليه هواجسه في مريم وذهابها والتفت الى ما يحيط به من السهل واكثره عار من الاشجار الا بعض التلال عليها الدالية من الكرم وبعض اغراس الزيتون فلم يرَ اشباحاً فتحير في امره فحدثته نفسه أن يعود الى دردون لعلهم ذهبوا بمريم الى هناك

وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة والجواد قد أنهكه التعب فخاف اذا بالغ في سوقه وهو في تلك الحال أن يقصر في اثناء الطريق واذا لم يستحثه لا يصل المعسكر قبل العشاء على أنه لا يجد بداً من ملاحظة حال الجواد فحول شكيمته وتوجه نحو دردون

الفصل السابع والعشرون

المنزل الخالي

أما مريم فانها خرجت في ذلكِ الصباح مع ميمونة كما تقدم وقد ركبت على ذلك الادهم وتزملت بالعباءة وعلقت الخوذة بالسراج وساقت الجواد في أثر الرسول وميمونة على جواد آخر بجانبها وهي تنظر الى مريم على الادهم منتصبة القامة كافرس الفرسان . وكانت ميمونة تظهر استغرابها ذلك الطاب

المستعجل وانها انما رافقتها صيانة لها مما قد يكون من بواعث الخطر على أثر ذلك . أما مريم فكانت تستحث جوادهـا وافكارها تائهة في عالم التصورات وصورة هانىء تخلل كل خيال يمر في ذهنها

ساروا ساعة ثم ادركوا المعسكر القديم الى يسارهم عن بعد وكانت مريم تحسب نفسها سائرة الى ذلك المعسكر لانها لم تكن عالمة بانتقال الجند الى دردون فلما رأت الخيام قليلة سألت الرسول عن مقر الجند وعن المكان الذي هم ذاهبون اليه فقال « ان الجنـد انتقلوا الى دردون لملاقاة الافرنج هنـاك وسيعودون الى هنا واما نحن فاننا سائرون الى مكان على مقربة من دردون امرني مولاي الامير أن اوصلك اليه فاما أن يكون هو في انتظارك هناك أو أنه يأتي بعد وصولك » فصدقت مريم قوله وتطايرت نفسها شوقاً الى لقيا الحبيب . فساروا على تلك الصورة بضع ساعات وقد تركوا بوردو الى يسارهم أيضاً حتى وصلوا الى بناء منفرد قد تداعت جدران سوره فـدخل الرسول امامهم من باب السور الى حديقة قد غشيها الاهمال لا يخفى على المتأمل فيها انها من مساكن اهل اليسار وانهم غادروها منذ بضعة اسابيع . فترجلتا ودخلتا الحديقة فتصدت ميمونة للاعتراض على الرسول غيرة على مريم فقالت له « الى اين انت سائر بنا ؟ . . اننا على مقربة من دردون على ما اظن . . وما هذا البيت الذي ادخلتنا فيه ؟ احذر أن تكون مخطئاً . . . »

فوقف الرجل متأدباً وقال « لست مخطئاً يا مولاتي اننا في قصر بعض امراء اكيتانيا وقـد هجره اهله فراراً من جند المسلمين . وفي هـذه المزارع قصور كثيرة هجرها اهلها وبقيت غنيمة للمسلمين »

فقالت « واين الامير هانىء ؟ »

قال « يظهر انه لم يأت بعد لأني لم ار اثراً يدل على مجيئه ولكنه لا يلبث أن يأتي سريعاً » قال ذلك ومشى بهما حتى ادخلها البيت من باب كبير كان مفتوحاً وليس في المنزل الا بعض المقاعد أو الكراسي الضخمة مما لا يستطاع حمله في اثناء الفرار . وقد استولى السكوت على المكان الا ما كان يتردد من صدى خطواتهم وصهيل الجوادين — اما مريم فلما وصلت ولم تجد هانئاً ولا

اثراً يدل عليه شككت في تلك الرسالة ولكنها سكتت لترى ما يكون والقت معظم الهم على ميمونة لانها اكبر منها سناً واوسع علماً بتلك البلاد وباحوال ذلك الجند . ولم تكن ميمونة تجهل ما يخالج افكار مريم من هذا القبيل فكانت تتظاهر بالاستغراب ايضاً وتسأل الرسول مثل اسئلة مريم حتى وصلوا الى قاعة ليس فيها الا مقعدان قديمان فجلست ميمونة ودعت مريم للجلوس فجلست وهي تتفرس في المكان وتنظر الى ميمونة وميمونة تشاركها في الارتباك . قضتا برهة وهما ساكتتان ومريم تتوقع قدوم هانىء وقد شاعت عيناها وهي تنظر الى الخارج من نافذة تطل على الحديقة وميمونة بجانبها والمكان هادىء والخادم الذي اوصلهما لم يعد يظهر . فتظاهرت ميمونة بالخوف وقالت ويلاه اين نحن ؟ . ما الذي جرى لنا . . اين ذلك الرسول . ؟ يا ليتنا اصطحبنا بعض الصقالية من خصيان الخباء » ثم صفقت كأنها تستقدم الرجل فلم تسمع جواباً غير الصدى

أما مريم فلما رأت ميمونة خائفة خافت هي ووقفت وقد ظهر الاهتمام في وجهها وقالت « هل خدعونا ؟ اين ذلك الرجل كيف يتركنا هنا ويذهب . الى أين ذهب » وكانت الشمس قد ادركت الاصيل وهما لم تأكلا من الصباح

الفصل الثامن والعشرون

المكيدة

وانهما لكذلك اذ سمعتا صوت صهيل وقرقعة لجام فالتفتت مريم نحو الباب فرأت فارساً وفي ركابه رجلان ملثمان وهو يركض جواده ركضاً عنيفاً حتى وصل باب البستان فترجل . فظنت مريم لاول وهلة انه هانىء فخفق قلبها ولم تتمالك عن الوثوب نحو الحديقة ولم تبال باختلاف لباس ذلك الفارس وجواده عن لباس هانىء وجواده لاعتقادها انه ارسل اليها العباءة والجواد وقد جاء متنكراً . ولكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت القادم رجلا بديناً يترنح في مشيته وسيفه يجر الى جانبه وعباءته مسترخية وراءه . ولا تسل

عن اضطرابها لما عرفت انه بسطام فغلب عليها الارتعاد واصطكت ركبتاها وكاد الدم يجمد في عروقها والتفتت الى ميمونة فرأتها تظهر البغتة وقد تصدرت لمقابلة ذلك القادم بالنيابة عن مريم فلما وصل بسطام استقبلته ميمونة وهي تقول « ما الذي تريده أيها الامير . . ؟ »

فاجابها وهو يلهث من التعب والرجلان يمشيان وراءه « ما الذي يعنيك من هذا الامر ؟ »

قالت « ليس في هذا المكان رجال . . . ولا أحد يهمكم امره . . . فلا حاجة الى دخولكم اليه . . »

قال « ونحن انما جئنا لاجل النساء . . . أليست مريم النصرانية هنا ؟ » قال ذلك وهو يضحك ومد يده الى وجه مريم . فنفرت وتباعدت . فامسكت ميمونة بيد بسطام وقالت « لا تفعل أيها الامير ما لا يليق بالامراء . . واعلم انك اذا مسستها عرضت نفسك لغضب امير جند المسلمين . »

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة وقال « من اقامك ناصحاً أو نذيراً . . وما هو شأنك . . . اني لا اخاطبك . . . » قال ذلك وحول وجهه ومشى نحو مريم فبالغت ميمونة في ممانعته وقبضت على زنده فانتثر منها فوقعت على الارض فالتفت الى الرجلين وقال « قيدوا هذه المرأة بيديها ورجليها واحبسوها في هذه الغرفة واقفلوا الباب عليها »

ولم يتم قوله حتى انقض الرجلان على ميمونة بالامراس وقيدوا يديها ورجليها وهي تصيح وتستغيث وتحاول التخلص ومريم تهم بانقاذها وبسطام يمنعها بدون أن يمسها بيده وهو يقول لها « لا تخافي يا جميلة اننا لن نصيبها بسوء وانما اردنا ايقافها عند حدها » فلما فرغوا من تقييدها جرها الرجلان نحو تلك الغرفة فالتفتت نحو بسطام وهي تقول « لا بأس عليّ مما فعلتموه بي ولكنني اتوسل اليكم أن لا تمسوا هذه الفتاة بسوء »

ثم دخل الرجلان بميمونة الى بعض حجر ذلك البيت واغلقا الباب . فلما خلوا هناك تركاها وشأنها . فقالت بصوت خافت « من هو عدلان منكما » فتقدم أحدهما وأزاح اللثام عن وجهه فبانت سحنته ونظر اليها بعينه

الحولاء نظر المحب الولهان وقال « انا عبدك عدلان ارجو ان اكون قد امضيت مهمتك كما تشائين . . »

قالت « بورك فيك (وابتسمت) قل لي أين هو هانىء وماذا فعلت به ؟...»

قال « فعلت ما امرتني به يا سيدة النساء . . . وانما ارجو ان تكوني راضية عن عبدك واسير هواك وتحققي انك لا تجدين من يصدع باوامرك وينفذ مأربك سواي »

فابتسمت ابتسامة اخرى وحركت اجفانها حركة الغنج والرضاء وقالت « اذا كنت قد فعلت ما فعلته بخفة ولباقة فاني راضية . . قل لي اين هو هانىء ؟ »

قال « اظنه لا يزال تائهاً في هذه الصحراء يفتش عن حبيبته »

قالت « وكيف اوصلت اليه المنديل ؟ »

قال « بعد ان اتيتك بالجواد الادهم أمس ووكلت به هذا البطل (واشار الى رفيقه) وافهمته كيف يخدع القهرمانه — وكل ذلك بارشادك — ذهبت بالمنديل الى معسكر المسلمين فوصلت اليهم صباحاً . ومن حسن حظ مولاتي وتوفيقها رأيت الرجل خارجاً يمشي فاسرعت نحوه ودفعت اليه المنديل وانا ملثم فسألني عن غرضي فاخبرته ان صاحبة هذا المنديل تدعوه اليها حالاً وتركته وفررت الى مكان أراه منه ولا يراني فرأيته اسرع الى جواد فركبه وساقه نحو الخباء . فلما تحققت ذهابه أسرعت من طريق آخر الى معسكر مولاي الكونت اود وأخبرته بالواقع كما امرت وحرضته على مباغتة المسلمين حالا وقائد فرسانهم غائب فاطاع ونادى رجاله وهجموا على المسلمين وهم في غفلة . وقد رأيتهم في فشل عظيم ولا اظنهم الا قد ذعروا وتقهقروا والغالب ان الافرنج قد استولوا على معسكرهم الا ن . . »

وكان عدلان يتكلم وميمونة تراعي حركاته وكلما قال عبارة تبتسم له وتبدي ارتياحها وهو يتكلم بنشاط وسرور . فلما قال ذلك قالت هي « ثم كيف فعلت ببسطام هذا . . »

قال « اتيته وهو في المعسكر القديم وجعلت اني اخدمه خدمة تسره واني

فاعل ذلك من عند نفسي فاخبرته ان مريم خرجت من الخباء الى هذا المكان وانى سأذهب به اليها فيبلغ منها ما يشاء على شرط ان يحافظ عليك فانثنى على غيرتي ودفع الي هدية ثمينة وكنت اتوقع ان يلتقي هانىء به فيقتتلا فيقتل أحدها الآخر . فيكمل توفيقك وتتم رغائبنا بانقسام هذا الجند . فجاء هانىء بعد ذهابه الى الخباء ولم يجد مريم فيه فظن بسطاماً اختطفها فلما لقيه في الخيام تخاصما وهمّ هانىء أن يفتك به لو لم يجبن هذا ويدخل خيمته . فبعد ذهاب هانىء حرضت بسطاماً على الركوب سريعاً فركب وسرت في ركابه والتقينا في اثناء الطريق باخي هذا وكان قد جاء يستعجلنا فبدلت عباءته بعباءتي وغيرت قيافته وجئنا في ركاب بسطام كما رأيتنا »

فقالت ميمونة « بورك فيك من خادم امين . . . واذا تحققت امنيتنا بفشل جند العرب دعوتك بلقب آخر » قالت ذلك واشارت بحاجبيها

فاشرق وجهه وجعل ينظر اليها وقلبه يكاد يطفح سروراً لما شاهده من أنسها وتلطفها

الفصل التاسع والعشرون

الخنجر

أما مريم فلما رأت ميمونة مسوقة الى تلك الحجرة وهي مقيدة الاطراف وسمعت تضرعها الى بسطام بشأنها اعتقدت حبها لها ولكنها كانت في شاغل من أمر نفسها لانها لم تتوقع بعد ما رأته الا الفتك الذريع من بسطام وهو مع غلظته وخشونته كانت رائحة المسكر تفوح من فيه وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه وتمنطق بجلد عريض غرس فيه خنجراً ضخماً وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف فتصور لعيني مريم شيطاناً رجيماً . فاستعاذت بالله من تلك الوقعة وتضرعت اليه تعالى في باطن سرها ان ينجيها منه . على أنها لم تتمالك عن الاضطراب الشديد من منظر ذلك الوحش الكاسر وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الحمراء التي تعتقد انها عباءة هانىء فوق ردائها الاسود

وعلى رأسها خمار اسود يغطي جبينها الى الحاجبين وقد تلثمت به من اسفل الذقن فبان وجهها من خلال ذلك مستديراً وقد تلألأت عيناها وزادها الانقباض هيبة . ومع كل ما شاهدته من اسباب الخوف لم تخر عزيمتها . ولعلها كانت أول ملاقاة بسطام هناك اكثر اضطراباً منها بعد ظهور تلك الفظاظة بتقييد ميمونة وحبسها وقد اصبحت هي وهو فريدين في ذلك البيت الواسع

اما بسطام فلما اختلى بمريم على تلك الصورة دعاها الى الجلوس على كرسي هناك كأنه يريد ان يخاطبها بلطف على سبيل الاقناع . فجلست وجلس هو على كرسي آخر والتف بعباءته حتى غطت السيف والخنجر وهو يقول بلغة عربية مستعجمة مع نغة البرابرة « لا تخافي يا مريم اني لا اريد بك سوءاً لاني احبك حباً شديداً (وبالغ في تشديد الدال) وانت على ما يظهر قد غشك ذلك الغلام العربي . . فانخدعت باقواله . . . على انك نصيبي وحدي من هذه الحرب ولو شئت ان امنعه منك لمنعته من اول ساعة ولكنني تلطفت بك ورفقت بمزاجك والآن قد وقعت بين يدي ولا مناص لك مني فاطيعيني »

وكانت مريم تسمع كلامه واطرافها ترتعد من شدة التأثر وهي تفكر في مجيئه الى هناك هل كان على موعد او بالاتفاق واحبت أن تماطله في الحديث ريثما يأتي هانئ لاعتقادها انه قادم اليها فقالت « دع عنك ذلك يا امير فان لكل شيء وقتاً وأنتم الآن في حرب فبعد انقضائها يأخذ كل ذي حق حقه . . »

قال « لا تماطليني بالمحال ولا تظني هانئاً بالغاً منك شعرة فقد صرت في قبضة يدي ولا يخرجك منها أحد فالافضل لك أن تطيعيني والا فاني بالغ منك ما اريد قهراً »

فلما سمعت تهديده السريع عظم عليها الامر ولكنها ما زالت تود مماطلته ريثما يأتي هانئ لوثوقها بان هانئاً برغم انفه فقالت « لا أرى باعثاً الى التهديد ايها الامير فان من يعد نفسه أميراً ويفتخر بشجاعته وشدة بأسه لا يليق به أن يهدد فتاة بمثل هذه العبارات وخصوصاً في مثل ما انتم فيه من الجهاد »

فضحك بسطام ضحكة الاستخفاف وقال « نعم اني أمير شجاع وساحة الوغى تشهد لي بذلك ولولاي لم يكن لذلك الغلام ذكر بين الرجال ولا كان لأولئك العرب راية تخفق في هذه البلاد فاذا علمت ذلك اقلعي عن ذكر سواي »

فلما سمعت تعريضه بهانىء وبالعرب ورأت اللين لا يجدي معه نفعاً عادت الى ما شبت عليه من الانفة وقالت « دع عنك التعريض والتلميح فانك لست من رجال الامير هانىء ولو حضر الآن ما تجاسرت على التفوه بحضرته بمثل هذا الكلام »

فحملق بسطام بعينيه ووقف بغتة وامسك مريم بذراعها وضغط بكل قوته كأنه يريد ان يبغتها لعلها تلين . فشعر بصلابة عضلها كأنه قابض على حديد . ثم اجتذبت يدها من قبضته وهو لم يستطيع منعها ووقفت وهي تقول « ابعد عني ولا تمسني فقد بالغت بالاستخفاف حتى نفد صبري »

فلما شاهد منها هذا الاصرار ورأى فيها تلك القوة اشتد غيظه وحمي غضبه وأراد نكايتها فقال « لا تعللي نفسك بالمحال فاني ضاربك ضربة بهذا السيف أقضي بها على حياتك هل أنت الا سبية تباعين ببضعة دراهم ؟ وقد اخطأت بمحاسنتك فظننت المحاسنة ضعفاً وأنت تعلمين ان في خبائي عشرات من امثالك يتمنون رضاي »

الفصل الثلاثون

المعركة

وهمت مريم بان تجيب بسطاماً فسمعت ضجيجاً في البستان وقد علت الضوضاء وسمعت رجلاً يقول « ان الامير هانئاً هنا

فلما سمعت اسم هانىء بغتت واشتغلت عن بسطام باستطلاع الخبر فاسرعت الى الباب واسرع هو أيضاً فرأت جماعة من العرب قد وقفوا حول الجواد الادهم وهم يقولون « أليس هذا جواد الامير هانىء فاين هو ؟ »

فاجابهم بسطام « ليس هانيء هنا . . ماذا تريدون منه ؟ »

فتقدم احدهم وقد غشيه الغبار وتجلت البغتة في وجهه وتصبب العرق من جبينه وقد عرف الامير بسطاماً فقال « ان الافرنج هاجمونا واشتبك القتال بيننا وبينهم والامير هانيء غائب من الصباح وقد فشل فرساننا وكادت الدائرة تدور علينا فخرجنا للبحث عنه فاذا لم يدركنا لم تقم لنا قائمة . والامير عبد الرحمن لم يستطع قيادة الفرسان لاشتغاله بسائر الجند ـ فلما رأينا هذا الادهم ظنناه هنا »

فقال بسطام « ليس هذا ادهمه . والظاهر انه طلب النجاة بنفسه . ابحثوا عنه في غير هذا المكان » قال ذلك وتحول الى الداخل

فرجع الرجل ورفاقه الي الادهم وتأملوه جيداً فتحققوا انه ليس جواد هانيء فانكفأوا راجعين

وكان جند العرب قد تضعضع لغياب هانيء لانهم لم يكونوا على موعد من الحرب في ذلك اليوم وانما خرج اليهم الافرنج بغتة وهم في خيامهم لاسباب تقدم بيانها في اثناء حديث ميمونة . وكان عبد الرحمن في صباح ذلك اليوم مشتغلاً في خيمته ببعض الشؤون ينتظر مجيء هانيء اليه للمداولة في امر الجند. فابطأ هانيء عليه فاشتغل خاطره بشأنه وهمَّ باستقدامه واذا ببعض الرجال قد جاؤوه مسرعين ينادون « ان الافرنج قد خرجوا الينا كالسيل الجارف» وعلت ضوضاء الجند فخرج عبد الرحمن الى فرسه وبعث رسولاً الى الامير هانيء وسائر الامراء ليجمعوا رجالهم ويتهأهبوا للهجوم على جاري عادتهم ولم يكد يفعل ذلك حتى انهالت النبال على خيمته فنظر الى المعركة فرأى الافرنج هاجمين وقد تصاعد غبارهم فركب جواده ونادى رجاله ووقف في انتظار هانيء ليقود الفرسان ويرتبهم فعاد الرسول وهو يقول « لم نجد الامير هانئاً في خيمته ولا رأينا جواده في مربطه »

فارتبك عبد الرحمن في امره وقد كان كثير الاعتماد على هانيء في تنظيم الهجوم لانه قائد فرسانه والفرسان اوجه فرق الجند عند العرب . فغضب

عبد الرحمن لتخلفه غضباً شديداً واخذ على نفسه قيادة الفرسان فلم يستطع تنظيمهم لانه لم يتعودهم ولا تعودوه والفرصة قصيرة . فالتحم الجيشان والعرب مرتبكون ولولا شجاعة عبد الرحمن وتدبيره في ذلك المركز الحرج لتشتت رجاله من الصباح . لكنه كان رابط الجأش فاخذ يستحث الرجال ويمنيهم ويسير امامهم الى صفوف الاعداء لا يبالي بما يتساقط عليه من النبال لان موته في ساحة الحرب ايسر عليه من الفشل

فلما مالت الشمس عن خط الهاجرة ولم يأت هانيء بعث جماعة للتفتيش عنه وظل هو يدبر امور الجند ويصبرهم ويستحثهم ويشجعهم حتى كادت الشمس تدنو من المغيب وكاد الافرنج يظفرون بالعرب وكان الفرسان يحاربون وعيونهم شائعة في عرض البر يتوقعون قدوم قائدهم أو سماع خبر عنه . وكان الامراء كلما التقى اثنان أو ثلاثة منهم ولو تحت خطر الموت تساءلوا عن هانيء وسبب غيابه وشعروا باهميته في حروبهم اكثر مما كانوا يظنون

أما عبد الرحمن فمع سعة صدره وشدة حبه الامير هانئاً فانه وجد عليه وتوهم أن الغرام حمله على المسير الى حبيبته على أثر ما سمعه من رضائه عن تحابهما . ولكنه كان في شاغل عن التوسع في هذا الشأن بما يحيط به من المشاغل الهامة خوف الفشل . على انه اضمر اذا صح ظنه في هانيء أن يحرمه من مريم — كانت تلك الافكار تتوارد على ذهنه متقطعة يتخللها الارتباك في تدارك الخطر المحدق به وبجنده . وكان مع ذلك لا يفتر عن التلفت والتطلع لعله يرى هانئاً قادماً ولكنه لم يكن يرى الا ما يزيده اضطراباً بزيادة التضعضع في الجند وخصوصاً الفرسان حتى كاد الافرنج يصلون الى خيمته

الفصل الحادي والثلاثون

هانئ

وفيما هو يستحث رجاله ويحرضهم على الصبر والثبات لاحت منه التفاتة الى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبال فارساً على جواد ادهم عليه

عباءة حمراء وعلى رأسه خوذة وقد اشرع سيفه واطلق لفرسه العنان فبذل الفرس اقصى ما عنده من العدو حتى اعتدل عنقه وتطاير عرفه وانتصب ذيله وامتدت قوائمه فاستطال بدنه وتناثر التراب من مواقع حوافره — ولولا ذلك التناثر ما علمت موقعها — وتصاعد الغبار خلفه وهوى نحوه كأن الفرس سابح في الهواء وكأن الغبار يحاول اللحاق به فلا يدركه . والفارس ثابت على ظهره كانه قطعة منه لا يبالي بالسهام المتطايرة ولا بالرجال المهاجمين . فلما رآه عبد الرحمن خفق قلبه سروراً لاعتقاده انه هانئ فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع ان يقف له ولكنه ظل هاجماً نحو الافرنج وهو يقول « اتاكم هانىء لا تفشلوا . ولا تخافوا من غلمان الافرنج انهم غنيمتكم في هذا اليوم »

فلم يشك عبد الرحمن انه الامير هانىء نفسه واراد بعضهم ان يستقدمه الى عبد الرحمن فلم يصغ اليه وساق جواده الى معسكر الافرنج من جهة لم يكن الافرنج يظنون العرب يأتونهم منها . فاشتدت عزائم العرب وخصوصاً الفرسان وساروا في اثره كانهم الاسود الكاسرة . فبغت الافرنج وارادوا أن يحولوا قوتهم الى الجهة التي هاجمهم منها ذلك الفارس واذا بفارس آخر بعباءة حمراء وخوذة على جواد ادهم أيضاً وقد استل حسامه وهجم على الافرنج من جانب آخر وهو يقول « جاءكم الامير هانىء » فتبعه من بقي من الفرسان فانقسم الافرنج شطرين لملاقاة الفريقين فتضعضعوا وازداد المسلمون ثباتاً وشجاعة ولم يمس المساء حتى فرّ الافرنج عن بكرة ابيهم واصبح معسكرهم غنيمة للمسلمين فاستولى المسلمون على ما هناك من الخيام والاسلحة والاطعمة والذخائر . وكان الامير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الامير الآخر من الناحية الاخرى وهو يشبه الامير هانئاً لان كليهما بلباس متشابه وعلى فرسين متشابهين

فلما فرّ الافرنج كانت الشمس قد غابت واكفهر وجه السماء وعاد عبد الرحمن الى خيمته حيث يتوقع ان يلاقي الامراء وهانىء في جملتهم ليعهد اليه امر الغنائم على جاري العادة

وبعد قليل جاء احد الفارسين صاحبي الادهمين فاذا هو هانىء نفسه

فرحب به فابتدره هانىء قائلاً « لقد غدرنا هؤلاء الافرنج وتوسموا بالغدر خيراً وقد دمرهم الله . ولو علمت بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظة »

فقال عبد الرحمن وهو يتحول عن جواده ويتشاغل باصلاح ركابه « لقد شغلت خاطرنا على غيابك فنحمد الله على رجوعك » ثم التفت اليه بلهفة وقال « ومن هو ذلك الفارس الذي تقدمك واكتنى باسمك »

فقال « لم يكن معي احدٌ »

قال « اما رأيت فارساً على ادهم مثل ادهمك وبعباءة مثل عباءتك ؟ قد رأيته بعيني في وسط المعركة قبل وصولك وسمعته يتسمى باسمك »

قال ذلك ونظر الى بعض الرجال حوله وقال « اين ذلك الفارس الذي كان على الجواد الادهم ؟ »

اجاب احدهم « رأيناه هاجماً وقد اوغل في الصفوف ثم توارى وربما جاء بعد قليل »

فصاح عبد الرحمن « اذهبوا في اثره واستقدموه » وتحول عبد الرحمن وهانىء الى الخيمة وجاء في اثرهما بعض الامراء وجلسوا يتحادثون في امر ذلك اليوم العجيب وما كان يهددهم من الخطر وكلهم يذكرون هانئاً الآخر ويتعجبون — على انهم اشتغلوا عن ذلك بعد قليل بتدبير امر الغنائم والاسرى ولم يكن في معسكر الافرنج نساء لانهم لا يحملون معهم نساءهم واولادهم . اما الرجال فانهم اركنوا الى الفرار وفي مقدمتهم الكونت اود صاحب اكيتانيا ورجال حاشيته

فتباحث الامراء في امر الغنائم من الاسلحة والخيام والفرش وغير ذلك ووكلوا الى كتاب الجيش النظر في تقسيمها وحفظ حق بيت المال على جاري العادة . ولم تكن الغنائم في هذه الواقعة كثيرة فاقتسموها على عجل وقضوا تلك الجلسة وكل منهم يفكر في امر ذلك الفارس ثم تفرقوا الى خيامهم الا هانئاً فانه بقي عند عبد الرحمن بلطف فقص عليه حديثه باختصار ولم يكتمه شيئاً بعد ما آنسه من مجاراته له في مريم . فلما بلغ الى حديث بسطام وما كان من حاله في مستودع الغنائم هزّ عبد الرحمن رأسه وقال « انا لله وانا اليه

راجعون . ان امر هؤلاء البرابرة ليخوفني وأخشى من عواقب استبدادهم اذا نحن بالغنا في استرضائهم — واخشى من الجهة الاخرى اذا جافيناهم ان يفسدوا علينا سعينا »

وكان هانىء لما ذكر الجواد الادهم الذي أخذت مريم به تذكر ما قالته القهرمانة عن العباءة الحمراء والخوذة اللتين تشبهان عباءته وخوذته فتبادر الى ذهنه علاقة بين ذلك الجواد وهذا الفارس

وبينما هما في ذلك عاد الذين ذهبوا للتفتيش عن هانىء الآخر وقالوا انهم بحثوا عنه في المعسكرين فلم يقفوا له على اثر . فعاد هانىء الى هواجسه وهو قلق الخاطر على مريم ولم يفهم تلك الاسرار وخاف أن يكون قد اصابها سوء أو لعلها في ضيق او تكون قد فرت من معسكر العرب بتلك الحيلة — اما عبد الرحمن فلما سمع ما قصه عليه هانىء من امر مريم وخروجها وتذكر والدتها والمهمة التي ذهبت بها فجره سوء ظنه (والعاقل سيء الظن) الى اتهام سالمة في الامر وانها انما تظاهرت بما تظاهرت به احتيالا للفرار من الاسر . ثم راجع ما حفظه من حديثها وما كان يبدو في وجهها من امارات الجد فغلب عليه اعتقاد صدقها

الفصل الثاني والثلاثون

هانىء الآخر

ولبثا برهة صامتين لا يتكلمان وكل منهما في هاجس يتنازعهما التفكير في مريم وفي ذلك الفارس . وانهما لكذلك اذ سمعا وقع حوافر مسرعة نحو الخيمة فاصغيا واذا بغلام دخل مسرعاً وهو يقول « ان فارسين بالباب يلتمسان الدخول » فقال عبد الرحمن « ليدخلا » فخرج الغلام ثم عاد وفي اثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء فلما وقع نظرهما عليه علما انه الفارس الذي سمى نفسه هانئاً . فلما رآه هانىء وقف واقبل نحوه وتفرس في وجهه فرآه قد تلثم تحت الخوذة بلثام اسود ورأى من خلال العباءة ثوباً اسود فصاح فيه « يا هلا

بالفارس الذي يسمي نفسه هانئاً » قال ذلك وتقدم نحوه وهو يتوقع جوابه .
فظل الفارس ساكتاً ينظر من خلال اللثام . فابتدره الامير عبد الرحمن قائلا « انك ذو فضل على هذا الجند . بالله الا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك »

فرفع الفارس يده الى الخوذة فنزعها فبان من تحتها خمار اسود والقى العباءة عن كتفيه فبان من تحتها ثوب اسود فعرف هانيء للحال انه ثوب مريم فلم يتمالك أن صاح « مريم ! مريم ! »

فمد الفارس يده الى الخمار فازاحه فبان من تحته وجه فتاة يتدفق حياة وجمالاً وقد زاده التلثم دفئاً فتورد وابرقت العينان . ولا تسل عن هانيء لما علم بما اتته مريم من البسالة التي تندر في النساء فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه « مريم ؟ أهذه الفعال فعالك يا حبيبة . عهدناك ربة الجمال واللطف ولم يخطر لنا انك ايضاً ربة الجواد والسيف . حبيبتي ما الذي جرى ؟ اين كنت ؟ ما هذا . ؟ ماذا أرى »

قالت « انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدي الامير عبد الرحمن ولم آت امراً يستحق هذا الاطناب واذا كنت قد فعلت شيئاً فما هو الا لاني تسميت باسم الامير هانيء . فالامير هانيء هو الذي فعل ذلك » . قالت ذلك بلثغتها المعهودة وقد تجلى في محياها شيء هو غير البسالة والانفة — تجلت في وجهها ملامح الحب فذهبت كل ما كان هناك من امارات الشجاعة والرجولة ثم انتبهت لنفسها وأنها قالت ذلك بين يدي الامير عبد الرحمن فغلب عليها الحياء فاطرقت فابتدرها عبد الرحمن قائلا « بورك فيك وبورك بالامير هانيء انكما متكافئان ولولا كما لاصاب هذا الجيش ضيق لا ندرى ما يكون من عواقبه . تفضلي يا بنية أجلسي وقصي علينا خبرك وما الذي دعاك الى اقتحام هذا الخطر العظيم . فقد سمعت من اخي هانيء انك خرجت من الخباء في هذا الصباح بخديعة وذهب هو من الصباح للتفتيش عنك ولم يعد الا بعد مجيئك — عاد وهو قانط من العثور عليك . فما هو خبرك ؟ »

قالت « ارجو قبل الشروع بالحديث أن تأمر باستقدام رفيقتي وصديقتي ميمونة التي تحملت العذاب من أجلي . فانها خارج هذا الفسطاط » واشارت باصبعها الى الخارج

وكان الاميران قد علما بضياعهما معاً فلم يستغربا كلامهما فصفق عبدالرحمن فدخل الغلام فامره أن يدخل المرأة الواقفة خارجاً وبعد هنيهة دخلت ميمونة وهي تتظاهر بالحياء والدعة . فاشار عليها عبد الرحمن أن تقعد على طنفسة في بعض جوانب الفسطاط وهو يبتسم لها اعترافاً بحسن صنيعها ثم حول وجهه الى مريم لاستماع حديثها . وكان هانيء لا يزال واقفاً فاشار اليه عبد الرحمن أن يقف بجانبه فقعد واصاخ الاميران باذنيهما لسماع القصة

فبدأت مريم بالحديث منذ جاءها الرسول يلتمس ذهابها الى الامير هانيء وكيف أن ميمونة عرضت نفسها لخدمتها وكيف آنستها وأعانتها حتى وصلت الى دخولها القصر المهجور وما كان من مجيء بسطام وما ابداه من الوقاحة وكيف عرضت ميمونة بنفسها للخطر دفاعاً عن مريم . فلما ذكرت مريم ذلك تحولت الانظار الى ميمونة فتظاهرت بالحياء والاطراق . اما هانيء فاحس منذ سمع اسم بسطام بارتعاد من شدة الغيرة والتفت الى الامير عبد الرحمن وهمس في اذنه قائلاً « يا ليتني قتلته في هذا الصباح . . »

اما مريم فانها استمرت في حديثها فقالت « فلما سمع بسطام مدافعة هذه الصديقة عني امر رجالهُ فقبضوا عليها وأوثقوها وساقوها الى بعض الغرف وهي تصيح وتستغيث فلما يئست من نجاتها تقدمت الى ذلك الوحش الكاسر أن يرفق بي . أني لا انسى تلك الاستغاثة — وان كان بسطام لم يعبأ بها فانه لما خلا بي في ذلك القصر المهجور حدثته نفسه بامور كثيرة وطال الجدال بيني وبينهُ وفيما نحن في ذلك جاء بعض فرسان هذا الجند للبحث عن الامير هانيء هناك فعلمت منهم ان الافرنج هاجموكم وهانيء غائب وان العرب في تضعضع بسبب ذلك . فاصبحت في قلق لاسباب لا تجهلونها . اما بسطام فانه لم يبال بضياع جند العرب كله ولما سمع توبيخي له على ذلك انتهرني وعرض بذكر الامير (وأشارت الى هانيء) واتهمه بالجبن وانه فرّ من المعركة خوفاً من الموت . لاني قلت له « ألا تزال تزعم أن هانئاً غلام لا شأن له وقد رأينا الجند لا يستطيعون عملاً بدونه ولم نسمعهم ذكروا بسطاماً « ولا سواه » فلما سمع هانيء ذلك الاطناب حول نظره عن مريم حياء

أما مريم فاتمت حديثها قائلة « فوقع كلامي على بسطام وقوع الصاعقة ولم يتمالك أن هجم عليّ ويده على قبضة سيفه يهم أن يجرده وأن يضربني به فصحت فيه « اخسأ يا نذل الرجال ان مثلك لا يليق أن يسمى اميراً فبدلاً من أن تجرد حسامك على فتاة اذهب لنجدة اخوانك وقد علمت ماهم فيه من الضنك وجرده على أعدائك . ولو كان هانيء في مكانك ما فعل مثل فعلك »

فلم يزده هذا الكلام الا حنقاً وكنت اظنه يخجل من نفسه ويرتد عن غيه فقال ويده لا تزال على قبضة السيف « لو كان هانيء رجلاً ما تخلف عن ميدان الحرب في مثل هذا اليوم ولكنه جبان » ولم يتم كلامه حتى جرد سيفه وهم باطلاقه عليّ فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر في عينيه تناسيت ضعف النساء وشددت عزيمتي وعزمت على الفتك به التماساً للسرعة في الخروج من بين يديه لانظر في أمر هذا الجند لان فشله يهمني كثيراً كما تعلمون . ثم امسكت نفسي وعدت الى الملاطفة فقلت له لا تخوفني بسيفك ولا يغرنك اني فتاة فاني لا أخاف السيوف ارجع عن عزمك واتركني وشأني وذلك خير لك » وقبضت على زنده وهززته فاكبر أن يصغي لنصحي فانتثر من يدي وكان قد انزل السيف فعاد وشهره واوهم أنه مطلقه على عنقي فتراجعت لاخلو من الضربة فظنني خفت فتبعني وسيفه يكاد يقع على رأسي فاعترف لكم اني لم أعد أستطيع صبراً على ذلك فصحت فيه « نصحتك فاقبل نصيحتي يا بسطام . . » قلت له ذلك وهو يحاول أن يقبض على ثوبي ليتمكن من ضربي لانه كان يتوقع فراري . فبدلا من الفرار هجمت عليه وأمسكت يمناه بيسراي ومددت يمناي الى منطقته واستللت خنجره وغمدته في صدره وقلت له « أبيت الا أن تموت قتيلاً وان تدنس يدي بدمك » فغاص الخنجر الى قبضته وخر على الارض وسقط السيف من يده فالتقطت السيف ولم انظر الى وجهه لاني قتلته مكرهة واسرعت الى الادهم فركبته والتففت بالعباءة وجعلت الخوذة على رأسي وهمزت الجواد نحو المعركة لاوهم الناس اني الامير هانيء تشجيعاً لفرسانه فاذا ترتب على عملي هذا نجاح فانما الفضل لذلك الاسم المبارك »

الفصل الثالث والثلاثون

الاخلاص

فلما ذكرت مريم قتل بسطام صاح الامير عبد الرحمن «قتلت بسطاماً؟» قالت «نعم قتلته وقد قصصت عليك السبب الذي دعاني الى قتله فاما ان تعذرني فيه او تقتلني به فاني بين يديك»

فتصدى هانيء للجواب قائلاً «ان قتله مقدر منذ أيام ولو لم تقتليه أنت لقتلته أنا واذا رأى الامير ان ينتقم له فلينتقم مني»

فقال الامير عبد الرحمن «لا اريد الانتقام له ولكنني أخاف ان يترتب على مقتله تشويش في الجند لما تعلمون من . . .» ثم انتبه لوجود ميمونة هناك فتوقف عن اتمام الحديث وحول الموضوع فقال «سنعود الى البحث في ذلك والآن اخبرينا عن سبب تأخرك عن القدوم الى الان مع ان المعركة انقضت منذ بضع ساعات»

فلما سمعت مريم سؤال عبد الرحمن اشارت بيدها الى ميمونة وقالت «قد كنت في شاغل من امر هذه الصديقة لاني تركتها اسيرة في ذلك القصر المهجور واسرعت لما قدمته من امر الحرب . فلما فرغت من ذلك واطمأن بالي على الجند تذكرت ما هي فيه من الضيق بسببي فلم اتمالك عن الذهاب لانقاذها . فاسرعت الى القصر قبل المجيء الى هذا المعسكر فوجدتها لا تزال مغلولة وقد غادرها الحارسان فحللت قيودها وجئت بها على جواد كان لا يزال هناك . ولو لم استطع انقاذها لتنغص عيشي لأنها انما اسرت واهينت بسببي — فلما رجعت كان الليل قد اظلم فاهتديت الى معسكركم بنيرانه وعرفت خيمة الامير من العلم الذي ببابها فجئت كما ترون»

وكانت مريم تتكلم والهيبة تتدفق من محياها والصدق يتجلي في كل لفظ من الفاظها فازداد عبد الرحمن اعجاباً بها والامير هانيء هياماً بحبها ولم يتمالك

هانيء ان صاح « بورك ببطن حملك ووالله لانت بشير خير ورسول سعادة لهذا الجند . . . »

فوقفت ميمونة عند ذلك وهي تتظاهر بالامتنان واللطف والحياء وقالت « لا غرو اذا اعجب بها الامير وهو في ابان الشباب فقد عشقتها النساء قبله واعترف أني لم تقع عيني في هذه البلاد ولا في غيرها على فتاة جمعت ما جمعته هذه الحبيبة من لطف النساء وبسالة الرجال وانفة الامراء وحنو الامهات غير ما في خصالها من صدق اللهجة وعزة النفس فهي جديرة برضاء الاميرين. وأما انا فقد كنت اعدها صديقتي فبعد ما غمرتني به من الجميل اصبحت وانا انظر اليها نظري الى من هو فوق مرتبتي . . . »

وكانت مريم في اثناء ذلك مطرقة تكاد تذوب خجلاً وقد كلل العرق جبينها حتى تقطر فوق خدين توردا من شدة الحياء ولم تر جواباً لذلك التجمل غير السكوت والاطراق

وادرك عبد الرحمن ذلك فيها فاشفق على عواطفها فعمد الى تغيير الحديث فقال « ارى مريم أهلا لاكثر من ذلك واما الان فقد آن لها أن تستريح بعد هذا العناء » ثم صفق فدخل الغلام فقال له « أعدد لهاتين السيدتين خيمة تنامان فيها واحضر لهما كل ما تحتاجان اليه من لوازم الراحة ...وخذ الفرسين الى الاسطبل ... »

فاشار اشارة الطاعة وخرج وخرجت مريم وميمونة في أثرها وهانيء يراعي مريم في اثناء خروجها وقد تضاعف هيامه بها وتذكر ما عاهدها عليه من امر الاقتران بعد ان يقطعوا نهر لوار . فلما تذكر ذلك هان عليه أن يقتحم جند الافرنج وحده اذا حالوا بينه وبين ذلك النهر . فلما خرجت المرأتان وبقي الاميران على انفراد لاحظ عبد الرحمن ما بدا في وجه هانيء من دلائل الهيام فسره تعلقه بمريم وغلب على ما ربما خطر في باله من الاستئثار بها دونه لما آنسه من المشابهة بين الحبيبين بسالة وحماسة وانفة مع ما بينهما من المحبة المتبادلة — على انه ما لبث ان غلب على فكره امر ذو علاقة كبرى بسلامة ذلك الجند والاحتفاظ باتحاده على اثر ما سمعه تلك الليلة من مقتل الامير

بسطام . واصبح لا يشك اذا بلغ مقتله الى رجاله ان يثوروا ويطالبوا بدمه فاذا علموا ان مريم قتلته ربما اساؤها فيستاء هانىء وتكون البلية الثانية شراً من الاولى — فلبث الامير عبد الرحمن هنيهة وهو مطرق واصابعه في خلال لحيته وقد استغرق في التفكير حتى غلب عليه الجمود وقد قبض على لحيته بانامله والشعر فيما بينهما — وكان هانىء مطرقاً مثل اطراقه ولم ينتقل فكره من مريم الا الى ما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم

الفصل الرابع والثلاثون

حيلة جديدة

انتبه عبد الرحمن بغتة ونظر الى هانىء فلما رآه مطرقاً أدرك انه يفكر في أمر غير الذي يفكر فيه فعذره في مريم بعد ما عاينه منها ولكنه خاطبه بلطف وايناس وقال له « بورك لك بهذه الفتاة فانك والله جدير بها ولكنني لا أزال أتوقع منك رأياً لا يتم لنا أمر بدونه »

فلما سمع هانىء كلامه عاد الى رشده وفاته لاول وهلة ادراك مراد عبد الرحمن فقال « وأي أمر تعني أيها الامير »

قال « أعني بسطاماً وقتله . لا أنكر عليه انه نال ما يستحقه ولكنك لا تجهل حاجتنا الى بقائه اذا لم يكن للاستعانة بسيفه فلحفظ قبيلته على ولائنا. وانت تعلم شأن اولئك البرابرة معنا وخصوصاً رجال بسطام فانهم انما انجدونا طمعاً بالغنائم ولم يذعنوا لاوامرنا الا وفي نفوسهم ضغائن علينا لاعتقادهم ان العرب ظالموهم ومستأثرون بالسلطة والاموال دونهم . فاذا علموا بمقتل اميرهم أخاف أن يبدر منهم ما يفسد أمرنا ويفرق كلمتنا ونحن في أشد الحاجة الى الاجتماع فما رأيك ... »

فابتدره هانىء بالجواب كانه اشتغل في تنميقه وتحريره منذ ايام وقال « ليس أهون عليَّ من ارضاء اولئك البرابرة . فقد قلت انهم لم يرافقونا في

هذه الحرب نصرة للاسلام وإنما أرادوا كسب الاموال وأقول لك انهم لم يطيعوا بسطاماً الا لمثل هذه الغاية لانه واسطة بيننا وبينهم فاذا تحققوا ذلك الكسب ظلوا على الطاعة — وزد على ذلك اننا نوهمهم بان ذهابه دعا الى زيادة اسهمهم من الغنائم لانه كان كثير الطمع لنفسه ثم نمنح اولئك الامراء هدايا خصوصية ونطلب اليهم ان يختاروا رئيساً منهم بدل بسطام — واذا عهدت اليَّ تدبير ذلك فعلته وانا ضامن السلامة باذن الله فان من كانت مطامعه الاموال لا يصعب ارضاؤه بها »

فاعجب عبد الرحمن بسداد ذلك الرأي وعهد اليه تدبير الامر بحكمته وفوض اليه اجراء ما يراه ولم يكن ذلك صعباً عليه

وفي صباح اليوم التالي تفاوض الامراء في أمر الاخبية فاجمعوا على حملها الى هناك فبعثوا جنداً لنقل المضارب وخيم الغنائم التي كانت باقية في المعسكر القديم واتم هانيء مهمته على نحو ما قال ومكثوا هناك يتأهبون للشخوص نحو نهرلوار بعد رجوع سالمة من مهمتها ليعلموا كيف يتصرفون . لان عبدالرحمن كان يتوقع فوائد كبرى من مساعي سالمة لعلمه ان اتحاد جنده لا يمكث طويلاً لاختلاف عناصره وتضارب مقاصد امرائه فاذا لم يتخذ وسائل أخرى خاف العاقبة فضلاً عما يترتب على مشروع سالمة من حجب الدماء وسهولة الفتح

أما ميمونة فقد علمت ماكان من حيلتها وما دبرته لفشل جند المسلمين وكيف انها لم تنجح لاسباب تقدم بيانها . ولكنها كانت بدهائها ومكرها قد حفظت خط الرجوع فاظهرت انها أسيرة بسبب مريم وقدسرها مقتل بسطام لانه مطلع على بعض سرها وفي مقتله امان من افشائه . فلما خرجت مريم على الادهم في ذلك اليوم أرسلت ميمونة احد الرجلين في أثرها فلما عاد من المعركة وأنبأها باندحار جند الافرنج أمرت الرجلين بالفرار وظلت هي باغلالها هناك على امل ان تبعث مريم من يستجلبها ولم يخطر لها ان تأتي هي بنفسها . فلما جاءتها مريم وجدتها وحيدة فحلت قيودها وسارت بها الى معسكر العرب كما تقدم

وقد رأيت مبالغة ميمونة بامتداح شهامة مريم لانها رأت الاميرين معجبين

بها فارادت مجاراتهما تمويهاً لما قد يظنان بشأنها وهما في الواقع لم يخطرلهما شيء من سوء الظن بها من هذا القبيل . اما هي فقد كظمت ما في نفسها وعزمت على اتخاذ وسيلة نافذة كانت قد اذخرتها في ذهنها لحين الاضطرار فلما ذهبت مع مريم الى الخيمة تلك الليلة ظلت على اظهار اعجابها بها والمبالغة بما شاهدته من سجاياها حتى اذا خلت بنفسها لبثت تنتظر عدلان الاحول لتفاوضه في الحيلة التي دبرتها وهي لا تشك في نجاحها

الفصل الخامس والثلاثون

سالمة في بوردو

فلندعهم يدبرون وينتظرون ولنعد الى سالمة ومهمتها فقد طال بنا السكوت عنها . —

تركناها وقد ركبت من خباء المسلمين تلتمس بوردو وحسان العجوز في ركابها فلما بعدا عن الخباء واطلاّ على بوردو التفتت سالمة الى حسان وقالت هل كان يخطر لك يا حسان ان نوفق الى مثل الامير عبد الرحمن بعد طول انتظارنا عملاً بالوصية ؟ »

فقال لا والله يا مولاتي — وقد أذكرتني الوصية فهل انت محتفظة بتلك المحفظة فقد رأيتها بين يديك وكان عهدي انك تحفظيها في مكان لا يراها فيه أحد »

قالت صدقت يا عماه أنها كانت في يدي في أثناء خروجنا من الاسر لاني كنت اخرجتها من مخبئها ساعة يئست من الحياة وحسبتُ هؤلاء العرب يقتلونني فهممت قبل أن تفيض روحي أن أضم هذه الوصية اليَّ واتنسم ريح صاحبها منها ثم أعهد اليك أو الى سواك أن يوصلها الى صاحب هذا الجند — أما الآن فكن في راحة لاني تأبطتها تحت اثوابي . وما ظنك في مريم وهي وحدها في خباء العرب ؟ »

قال « لا بأس عليها يا مولاتي والعرب كثيرو العناية بنزلائهم وخصوصاً

من كان منهم في ضيافة الامير الكبير . وقد لحظت من أهل ذلك الخباء احتفاء كثيراً بمريم فالنساء احببنها واحتفلن بها وخصوصاً ميمونة وقد سمعت من الخصيان الصقالبة الذين يخدمونها انها تعشقت مريم وبذلت كل ما في وسعها لراحتها » . وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدواً خفيفاً بجانب ركاب سالمة وهي تسمع كلامه ممتزجاً بشخير الفرس وطقطقة حوافره فلما قال ذلك امسكت بلجام الفرس ليسير بها الهوينا والتفتت الى حسان وقالت « لا أخفي عليك يا حسان اني أخاف على مريم من هذه المرأة اكثر من سائر أهل هذا الجند نساء ورجالاً . . »

فبغت الرجل وكان يتكلم وهو يتفرس في الارض ليتقي الحجارة والاشواك فلما سمع قولها رفع بصره اليها وقال « وما هو سبب خوفك يا مولاتي ؟ »

قالت لاني شاهدت هذه التي تسمي نفسها ميمونة فاذا هي داهية دهماء واظنني عرفتها واخاف أن تكون قد عرفتني ولذلك حالما تقابلنا لم أطل الكلام معها ولا أشك ان بقاءها في هذا المعسكر خطر فحالما اخرج من مهمتي هذه في بوردو وما وراءها سأعود الى الامير واطلعه على حقيقة هذه المرأة لئلا تخدعهم وتضعضع شؤونهم لانها ذات شأن عند الافرنج ويهمها أن يكون النصر لهؤلاء واستغرب أن تكون في خباء الامير عبد الرحمن وعهدي بها في غير هذه البلاد. وسنرى في شأنها عند رجوعنا »

فلما سمع حسان قولها مال بكليته الى استطلاع الحقيقة ولكنه لم يجرأ على السؤال عن اسمها فقال « وهل اعرفها انا »

قالت « لا شك في ذلك دعنا من هذا الان »

فسكت حسان وكانا قد اشرفا على اسوار بوردو فرأيا الناس خارج السور زرافات ووحداناً وقد خرجوا لافتداء أسراهم وكلهم فرحون بما أوتوه من الرفق واكثر الناس غيظاً من ذلك الرفق اليهود وخصوصاً الذين كانوا قد ابتاعوا الاسرى وهموا بحملهم للاتجار بهم فلما جاءهم امر الامير بالتخلي عنهم غضبوا واستغربوا ذلك وأرادوا الامتناع من التسليم ثم اذعنوا — فلما رأت سالمة تزاحم الناس هناك تحولت الى باب من ابواب المدينة بعيد عن ذلك

الازدحام وسارت تواً الى أسقف بوردو فترجلت بباب القلاية وتركت حسانآ عند الفرس ودخلت تلتمس الاسقف فرأت أهل ذلك المكان من القسوس والرهبان وغيرهم في حركة وقد تجلت في وجوههم امارات السرور لما جاءهم به هانيء في مساء الامس من آنية الكنيسة مع الامر باقتداء الاسرى . وكان أكثر القسوس يعرفونها فرحبوا بها وبشروها بما كان فهنأتهم وطلبت اليهم أن يستأذنوا لها الاسقف بمقابلة خصوصية فالتمسوا لها الاذن فلما دخلت عليه تلقاها بترحاب واحترام مع انه لم يكن يعرف حقيقة أمرها ولكنه كان يحترمها لتعقلها وسداد رأيها

فلما دخلت قبلت يده فباركها وجلست الى جانبه فاستخبرها فقصت عليه مختصر ما جرى لها حتى انتهت الى امر الاسرى فاكدت له ان العرب اكثر الامم رفقاً برعاياهم وأسراهم وانهم انما امتد سلطانهم في الشرق والغرب لما آنسه أهل البلاد على اختلاف نحلهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند امم الافرنج في ذلك العصر . وان ما أصاب كنيسة بوردو من النهب انما وقع سهوًا من بعض ذوي المطامع من توابع جند المسلمين غير العرب

فلما سمع الاسقف كلامها تذكر انه كثيراً ما كان يسمع منها اطراء العرب من قبل ولم يكن يصدق حتى سمع وكان يظنها تقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعليم ابنتها اللسان العربي وهي مقيمة ببلاد الافرنج مع كونها غير عربية — فلما سمع أقوالها بعد ما شاهده من الرفق اعتقد صدقها فجاراها في الاطراء فاغتنمت تلك الفرصة وتقدمت الى الحديث المقصود فقالت « لا أنسى يا سيادة الاسقف ما كنت القاه من نفورك اذا امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدت ذلك بنفسك عن بعد ولو اتيح لك معاملتهم ومعاشرتهم لزدت ارتياحاً لهم ولذلك فاني استغرب محاربة أهل هذه البلاد لهم والوقوف في سبيلهم »

فقال الاسقف « صدقت يا ابنتي اننا كثيراً ما سمعنا بعدلهم غير اننا رأينا من بعضهم ما تشيب لهوله الاطفال من القسوة حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من انهم يعبدون الاوثان ولا يعرفون عبادة الله ... [1]

---

(١) رينو

الفصل السّادس والثلاثون

رأي الافرنج في المسلمين

فابتسمت سالمة ابتسام الاستغراب وقالت « يعبدون الاوثان ؟ . . ان ذلك من الاراجيف التي يشيعها أعداؤهم فانهم يعبدون الاله الواحد ويحترمون الديانة النصرانية احتراماً كبيراً ويكرمون السيد المسيح كثيراً . ولا يعقل ان ننسب اليهم الوثنية ونبيهم انما قام لابادة الاصنام التي كان العرب قبله يعبدونها فكسرها ومحا الصور التي كانت في معبد الوثنية في مكة وبغض الوثنية الى اتباعه حتى حرم عليهم التصاوير ونحت التماثيل. فما يبلغكم من هذا القبيل انما هو حديث موضوع لغرض من الاغراض — لا أنكر عليك ما قد يبديه بعضهم من سوء التصرف أو الطمع أو نحو ذلك فهذا لا يصح القياس عليه كما لا يصح ان نقيس كل أعمال الاساقفة بعمل واحد منهم شذ عن المنهج القويم . وزد على ذلك ان العرب مهما يكن من أمرهم فهم أرفق بأهل هذه البلاد من هؤلاء الافرنج الذين جاءوا بقبائلهم واستبدوا فيهم واستعبدوا الناس واستخدموهم في أشق الاعمال ولم يقلدوا واحداً من أهل البلاد وظيفة من وظائفها . فهم القابضون على أزمة الحكومة وهم المستدرون لخيرات البلاد وما الغاليون الا مثل العبيد أو الاقنان الذين يشتغلون في الحقول — هل رأيت غالياً تقلد منصباً كبيراً أو هل رأى الغاليون راحة منذ وطئ هؤلاء الافرنج بلادهم ؟ — أما العرب فاذا فتحوا بلداً أطلقوا حرية الاديان والمذاهب والمعاملات حتى الحكومة والقضاء فانهم يتركونهما لاهله ويقتصرون هم على قيادة الجند وحماية الاهالي من الاعداء لا يلتمسون أجراً على ذلك الا مالاً يسمونه الجزية لا يساوي بعض ما يقتضيه اولئك الافرنج من الضرائب الفادحة . ناهيك بالحرية التي يتمتع بها الاهلون تحت عنايتهم . وسيادتكم تعلمون حال اهل هذه البلاد مع الافرنج الفاتحين فانها اصعب مما كانت تحت سلطان الرومان قبلهم — أليس

معظم الناس هنا عبيداً لحكامهم يتصرفون فيهم تصرف المالك بعقاره ؟ نعم ان العرب عندهم العبيد والموالي ولكنهم أرفق حالا بهم من اولئك . فان الرق عند المسلمين غير مستحسن وكان الاسلام قام يدعو الى ابطاله (١) ولو لم ير نصارى الشرق والغرب ما رأوه من الرفق والعدل تحت ظل المسلمين ما فضلوهم على الروم والفرس — وقد أطلت عليك الشرح وانما غرضي أن نسعى في حجب الدماء فهل تساعدني على ذلك ؟ ان المسلمين فاتحون هذه البلاد لا محالة فبدلاً من أن يفتحوها عنوة ويسفكوا فيها الدماء ويهدموا المنازل والقصور فليكن فتحها صلحاً ويسلم لكل واحد ماله وعرضه . . . والسعي في هذا السبيل من واجبات سيادتكم أكثر مما هو من واجبات أمثالي . . » وكانت سالمة تتكلم وامارات الجد والاهتمام ظاهرة في كل كلمة وكل حركة

وكان الاسقف يسمع أقوالها ويعجب بسعة علمها عن العرب كأنها عاشرتهم وساكنتهم زمناً طويلاً وكأنها اطلعت على علومهم وآدابهم ومع كل ما في أقوالها من المخالفة للاعتقاد الذي كان متسلطاً على عقول أهل تلك البلاد يومئذ فانه أحس بالاقتناع بقولها ونبهه ضميره الى واجب يقضي عليه بالسعي في حجب الدماء على ما سمعه من سالمة فقال لها « جزاك الله يا ابنتي على سعيك في مصلحة شعب الله ونطلب اليه تعالى ونتضرع الى السيد المسيح أن يقدم ما فيه الخير »

فلما آنست منه اقتناعاً عمدت الى اتمام الغرض بلباقة وحسن سياسة فقالت « لا أريد من سيادة الاسقف ان يكلف اخوتنا المسيحيين تسليم البلاد الى هؤلاء المسلمين عفواً ولا أن يساعدوهم على أخذها بالسيف وانما أرى أن يتركوا الامر لمن غلب بغير أن يساعدوا أحد الفريقين على الاخر . فاذا غلب الافرنج فهم أصحاب السيادة والبلاد في ايديهم واذا غلب العرب فلا يضرنا غلبهم بل هم خير لنا من اولئك »

---

(١) تبرئة الاسلام

فارتاح الاسقف الى قولها وكان روماني الاصل ورأى من الافرنج استبداداً في دائرة نفوذه حتى كادت السلطة تخرج من يده فقال لها « أود أن يعلم اخوتي الاساقفة بهذه النصيحة في البلاد الاخرى ولكنني أخاف ان يطلع الحكام الافرنج على ذلك فيعود الامر وبالاً علينا »

قالت « عليَّ ابلاغ ذلك الى من شئت وانما أطلب منك كتاباً تصحبني به الى اسقف بواتيه لا تذكر فيه شيئاً غير التعريف البسيط واني من أبنائك المخلصين فاذا أنا لقيته أطلعته على ما أراه من هذا الموضوع . واتقدم الى مولاي أن يبث هذه الروح في رجال بطانته على يراه ولا أظن واحداً من أهل بوردو لا يشهد هذه الشهادة في العرب وقد أعادوا اليهم اسراهم وآنية كنيستهم »

قال الاسقف « صدقت يا ابنتي لا يجوز لنا انكار هذا الجميل . . »

قالت « فاتقدم اليك اذا لقيت حاكم البلد ان تبث هذه الروح فيه اذ ربما طلب اليه الكونت أود نجدة لمساعدته في قطع الطريق على العرب لاني علمت ان الكونت المذكور معسكر في مضيق دردون . وعلى كل حال فقد تركت تدبير هذا الامر اليك واني مسافرة الى بواتيه في هذه الساعة فهل تأذن لي في كتاب الى اسقفها ؟ »

قال « نعم » فنهض وكتب على منديل حرير سطرين للغرض المقصود فتناولت الكتاب وقبلت يده فباركها . وقبل خروجها تذكرت المسافة بين بوردو وبواتيه وهي نحو مئة ميل لا يستطاع اجتيازها في أقل من ثلاثة أيام أو أربعة وحسان لا يقدر على المسير في ركابها ماشياً كل هذه المسافة فطلبت الى الاسقف أن يأمر لها بفرس يركب عليه حسان فامر لها فخرجت شاكرة وأهل القلاية يتباحثون في ما عسى أن يكون من أمر هذه المرأة ومجيئها على تلك الصورة . أما هي فانها خرجت فرأت حساناً والفرسين في انتظارها خارجاً فركبت وركب حسان وخرجا من بوردو يلتمسان بواتيه

الفصل السابع والثلاثون

الدير

وكان حسان يعرف غير طريق يؤدي الى بواتيه فسار في أسهل الطرق بحيث لا يكون عليهما بأس في أثنائه فدبر أن يصلا في كل مساء الى دير ينزلان فيه ويبيتان ثم ينهضان في الصباح التالي . فمشيا بقية ذلك اليوم وقلما تكلمت سالمة لاشتغال خاطرها بالمهمة التي هي ذاهبة فيها . فلما أمسى المساء اشرفا على دير لا يعد من الاديار الكبرى . فتحولا اليه وهو قائم على سفح جبل فوق نهر تجري مياهه معظم السنة وحول الدير مغارس الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها . وهو كسائر الاديار في تلك الايام عبارة عن بناء محاط بسور عال له باب واحد صغير للدواب ونحوها . فلما اشرفا على الباب تقدم حسان وقرعه بجرس معلق فوقه . فاطل اليه راهب من كوة فوق الباب سأله عن غرضه فقال له « نحن غرباء ونبغي المبيت عندكم فهل من مكان » قال حسان ذلك بلغة أهل البلاد ولكن ظهر من خلالها انه غريب عنها ففتحوا لهما فدخلت سالمة وتركت حساناً لينظر في أمر الفرسين ثم يدخل في جملة خدمة الدير . فلما رآها الراهب البواب توسم في منظرها وفي زيها هيأة الجلال والوقار فأسرع الى الرئيس فاخبره بذلك فأمر أن يدخلها اليه . فعاد وهو يقول « تفضلي الى حضرة الرئيس وهو يأمر بغرفة تقيمين فيها ما شئت »

فمشت سالمة في صحن الدير فرأته مزدحماً بالناس من الرجال والنساء والاطفال وأكثرهم من أهل بوردو وجوارها فادركت انهم لجأوا الى الدير خوفاً من العرب فظلت ماشية حتى اقبلت على غرفة الرئيس . فلما دخلت وقف لاستقبالها ورحب بها وامر لها بالطعام وسألها عن مصيرها في ذلك الطريق . فقالت انها قادمة من بوردو وسائرة الى بواتيه

فلما علم انها قادمة من بوردو قال « ألعلك في جملة الذين فروا في أثناء

الحرب على اثر نهب الكنيسة والفتك بالاسرى »

قالت « لقد أخطأ الذين فروا لان نهب الكنيسة انما كان تعدياً من بعض المسلمين المرافقين لجند العرب . ولما علم الامير بذلك أمر باعادة الآنية الى مكانها ورد الاسرى الى أهلهم بالفدية القليلة واتخذوا مع أهل بوردو كل وسائل الرفق . . »

فلما سمع الرئيس قولها بدا الاستغراب في وجهه وقال « وهل يعرفون الرفق وما الذي يدعوهم اليه او يردعهم عن الفتك والقتل ولا دين عندهم ولا ذمام »

فقالت وهي تبتسم « هل رأيت أحد منهم يا مولاي »

قال « كلا ولكنني سمعت ذلك من كثيرين »

وأرادت سالمة أن تدفع تلك التهمة بالبرهان فسمعت ضوضاء وصياحاً في باحة الدير فوقف الرئيس بغتة وصفق فجاءه بعض الرهبان يعدو فصاح فيه الرئيس ما هذه الضوضاء . . »

قال الراهب وهو يضحك والبغتة ظاهرة في وجهه « هذا دانوس يا سيدي »

قال الرئيس « دانوس ؟ وما الذي فعله فقد عهدناه معتزلاً لا يخاطب أحداً ولا يقدم الى الطعام الا كرهاً »

قال « ذلك هو عهدنا به أيضاً ولكننا نراه قد أصيب بجنون موقت فهجم على خادم الاميرة (وأشار الى سالمة) وأوسعه ضرباً وصفعاً وهو يصيح يا اماه يا اماه حتى كاد يقتله لو لم نتدارك الامر ونمسكه عنه »

فلما سمعت سالمة ذكر خادمها قالت « وأين هو حسان وما الذي جرى له هل عليه من بأس ؟ »

قال الراهب « هو في خير وسلامة ولكننا لم نستطع ايقاف دانوس عن الهجوم عليه فبعد ان أرجعناه عنه هجم عليه ثانية بهراوة كانت بيده ولما أمسكناه عنه بالعنف رمى الهراوة على حسان وسقط هو على الارض وقد اغمي عليه من شدة الغيظ . وقد تركته وهو يختلج ويرتعد ولا يزال يذكر امه . . »

فنهض الرئيس وهو يهز رأسه كأنه يستعيذ من شر يخافه . وتبعته سالمة وقد استغربت ما سمعته عن ذلك الشاب وتبادر الى ذهنها انه مصاب بخبل في عقله وبعد هنيهة أشرف الرئيس وسالمة على مكان الحادثة وكانوا قد ادخلوا حساناً الى حجرته ليغسلوا جراحه فوقع نظرها على شاب في عنفوان الشباب مطروح على الارض وقد تطايرت قبعته واشتبك شعره وكان جميل الصورة كبير العينين شديد بياض الوجه اشقر الشعر. وكان قد فتح عينيه وتحفز للوقوف كأنه أفاق من سكرة وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تحسبه يبحث عن ضائع .فاشار الرئيس الى بعض الرهبان أن يخبئوا حساناً في مكان لا يراه فيه داتوس وأمسك بيد الشاب وخاطبه بلطف وباركه ودعا له وأشار اليه أن يمضي الى غرفته فمضى وهو لا يزال يلتفت ولكنه أمسك عن الكلام بالكلية

الفصل الثامن والثلاثون

داتوش

فلما رأت سالمة ذلك الشاب ترجح عندها انه اصابه جنون او سكنه شيطان على تعبيرهم في ذلك العهد لكنها أحبت ان تحقق ظنها فلما عاد الرئيس عادت هي معه وقد توسمت في وجهه تغيراً زادها رغبة في الاستفهام وأنساها البحث عن حسان على انها لم تكد تبدأه بالسؤال حتى سمعته يخاطبها بصوت منخفض قائلاً « ألا تزالين تجادلينني في اولئك العرب وتزعمين أنهم أهل ديانة ورفق . .؟ »

فاستغربت سالمة قوله هذا اكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت « لم أفهم يا أبتي علاقة هذا الحادث بالمسلمين او العرب بل أرى هذا الافرنجي قد تعدّى على خادمي لانه عربي حتى كاد يقتله . . . »

وكانا قد دخلا الغرفة فاغلق الرئيس بابها وأومأ الى سالمة فجلست على وسادة فوق طنفسة وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال « لو عرفت قصة هذا الشاب وسبب ما ظهر من هياجه وتعديه لتحققت صدق قولي في

العرب واقلعت عن اعتقادك فيهم الخير . . »

فتطاولت سالمة بعنقها وأصاخت بسمعها ولسان حالها يقول « ما هي قصة هذا الشاب يا ترى ؟ »

فقال الرئيس « اعلمي يا ابنتي ان هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجندوا لمحاربة اولئك العرب حالما بلغهم اقدامهم على فتح هذه البلاد . وكانت له والدة لا يعرف من الاهل سواها ولا هي ترجو سواه فتركها في بيتها وسار الى الحرب فاتفق في أثناء غيابه أن المسلمين جاؤا ذلك البلد ونهبوا بيت المرأة وساقوها في جملة السبايا الى قلعتهم في ذلك الجوار . فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه خبر امه ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق فاطل على القلعة وكانت موصدة فاشرف عليه بعض المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه فقال له أطلب والدتي فانها أسيرة عندكم . فاجابوه لا نعطيك امك الا اذا أعطيتنا الجواد الذي تركبه والا فاننا نذبحها أمام عينيك . فغضب داتوس لذلك غضباً شديداً وقال لهم لا اعطيكم جوادي فافعلوا بوالدتي ما تشاؤون . قال ذلك وهو يظنهم يخوفونه بذكر قتلها لا أنهم ينوون اعدامها فعلاً — ولكنه ما لبث ان رآهم احتزوا رأسها ورموه اليه وهم يقولون هذه والدتك فاليك هي . فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى دماغه وغاب رشده ولما اعجزه الوصول الى القاتلين لامتناعهم وراء الاسوار جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكي ويركض فرسه يميناً وشمالا كالمجنون ثم انفرد عن أصحابه وأقام عندنا[1] وقد قص عليّ خبره فاعتقدت من ذلك الحين ان العرب أهل ظلم وعسف لا دين عندهم ولا رحمة . وقد مضى على داتوس هنا بضعة أعوام لا يتكلم ولا يجالس أحداً كأنه أصيب ببله فالظاهر انه رأى خادمك وعلم من سحنته او كلامه انه عربي فهاج فيه الغضب وتذكر مصيبته فلم يتمالك عما ظهر منه . . »

وكانت سالمة تسمع ذلك الحديث وهي في استغراب شديد فلما أتى الرئيس على تمام القصة أحست بضعف حجتها في الدفاع عن العرب ولكنها تجلدت وقالت « لا أنكر على مولاي الرئيس حدوث نحو ذلك من بعض العرب

(١) رينو

كما قد يحدث من الافرنج وغيرهم ولكن العمدة في الامر على أغراض الجند بجملته . . »

فقطع كلامها قائلاً « وما عسى أن تكون أغراضهم وقد شاهدنا من أعمالهم في أثناء فتوحهم ما لم يبق معه حاجة الى دليل — ألم ينهبوا الاديار ويأخذوا آنيتها ؟ ألم يأسروا الرهبان ويختاروا أجملهم خلقة ويبيعوهم بيع الارقاء في اسبانيا وعهدنا بذلك لا يزال قريباً » (٢)

فسرت سالمة لاحتجاج الرئيس بهذا الشأن فقالت « نعم ان بعض العرب نهبوا بعض الكنائس والاديار ولكن أمراءهم لم يكونوا يقبلون بذلك وكثيراً ما كانوا يعيدون الآنية الى أصحابها ويطلقون سراح الاسرى وخصوصاً الرهبان لان نبيهم أوصاهم بهم خيراً — وآخر ما حدث من هذا القبيل أن بعض الملحقين بجند العرب من البرابرة ونحوهم نهبوا كنيسة بوردر فلما علم أميرهم بذلك رد المنهوبات واعتذر واوعز الى جنده أن لا يعودوا الى مثل ذلك . فالعرب أهل رفق وعدل وفي اعتقادي انهم خير لاهل هذه البلاد من أولئك الافرنج . أقول ذلك بين يديك على سبيل الاعتراف السري وارجو أن لا يطلع عليه أحد فاذا قضت الاحوال بتغلب العرب تحققت صدق قولي »

فبغت الرئيس لقولها وصاح « يغلب العرب . ؟ معاذ الله »

فضحكت سالمة لبغتته وقالت « والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء . . » وتحققت ان الرئيس ممن لا يرجى اقناعهم بفضل العرب فسكتت ولكنها خافت ان يكون عليها بأس بعد ما جاهرت لديه بميلها الى العرب فالحت عليه أن يعتبر كلامها في هذا الشأن من قبيل سر الاعتراف فوعدها بذلك وهو فاعل لانهم شديدو المحافظة على ذلك السر

---

(١) رومي ج ٣ ورينو

الفصل التاسع والثلاثون

الجرح

وأرادت سالمة بعد خروجها من عند الرئيس أن تفتقد حساناً لكنها ظنته نام فمضت الى الغرفة التي أعدوها لها فباتت تلك الليلة ونهضت في الصباح على عزم المسير فبعثت الى حسان فقيل لها انه لا يستطيع سفراً لجرح أصابه في رأسه. فذهبت اليه بنفسها وتفحصت شأنه فرأته راقداً وقد شد رأسه بمنديل والتعب ظاهر في وجهه. فسألته عن حاله فقال « لقد أصاب ذلك الشاب مني مقتلا بهرواته ولولا لطف الله لذهب بحياتي فوراً ولا أدري مع ذلك سبب هذا التعدي »

ولم تكن سالمة تخفي عن حسان امراً وهو خزانة أسرارها فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت الى ما ترتب على ذلك الحديث بينها وبين الرئيس الى ان قالت « ولا بد لنا من الاسراع في المسير الى بواتيه ثم الى تورس قبل ان يفسد الامر علينا والمسلمون في انتظارنا على احر من الجمر »

فقال « لو استطعت النهوض ما امسكت عن السفر ومع ذلك اذا نويت المسير وحدك على ان الحق بك حالما استطيع الركوب فعلت »

فاطرقت سالمة واعملت فكرتها بين ان تمكث هناك بضعة ايام ريثما يشفى حسان فتفوتها الفرصة او ان تذهب وحدها وتخاف الطريق على نفسها. وبعد اعمال الفكرة مدة رأت ان تتصرف تصرفاً وسطاً فقالت لحسان « اني باقية في انتظارك هنا الى الغد فاذا شفيت واستطعت الركوب سرنا معاً والا فاني اسير وحدي » فأثنى عليها وقال « اذا جاء الغد ظهرت عاقبة الجرح فاذا لم تصبني الحمى كان الشفاء قريباً باذن الله »

فعملت سالمة على الاهتمام بجرح حسان كانه كان في بدنها لانها كانت تحترمه وتكرمه بالنظر الى انقطاعه في خدمتها اعواماً ولانها في حاجة اليه خصوصاً في هذه السفرة فذهبت الى الرئيس وطلبت اليه الاهتمام بجرح حسان فأطاعها

لانه مشعر بظلامة ذلك الشيخ فاستدعى راهباً كان قد تفقه بالطب وكان اهل الدير يرجعون اليه في امثال هذه الحوادث واوصاه بمعالجته والعناية به . فذهب اليه ومعه سالمة فلما نزع الربائط وشاهد الجرح زمّ شفتيه وابرزهما ورفع حاجبيه وكانت سالمة تراقب ما يبدو منه فلما رأت اشمئزازه خفق قلبها خوفاً على حسان ولكنها لم تظهر اضطرابها فسكتت لترى ما يقوله الطبيب فاذا به التفت الى راهب آخر كان في خدمته واومأ اليه ان يأتي بالزجاجة فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكاس . وكان الطبيب في اثناء ذلك قد قص الشعر عن رأس الجريح واكثره متلبد متلاصق من الدم المتجمد عليه فاشتمت سالمة رائحة كريهة . ثم صب الطبيب من الزجاجة شيئاً كالخمر لوناً وريحة واستعان بالراهب الاخر على غسل الجرح به فوقع نظر سالمة على الجرح فاذا هو طويل عميق فازداد خوفها عليه ولكنها تجلدت لتسمع قول الطبيب على حدة

وبعد الغسل شد الطبيب الجرح باللفافة وأشار الى حسان ان يستلقي ويستريح ليرى ما يكون من جرحه الى الغد وتركوه نائماً وخرجوا . فلما صاروا خارجاً تقدمت سالمة الى الطبيب في ابداء رأيه فقال « لقد ابطأنا عليه بالوسائط اللازمة وكان يجب علينا أن نفعل ذلك الغسل حالما أصيب وعلى كل حال لا يمكننا معرفة النتيجة الى الغد »

فاستعاذت سالمة بالله وصبرت نفسها الى الغد . فجاءته في الصباح فاذا هو لا يزال نائماً فنادته فلم يجبها فجست يده فرأتها شديدة الحرارة فعلمت أنه في بحران من شدة الحمى فاستدعت الراهب الطبيب فلما جاء ونظر الحالة قال « ان الرجل في البحران وفي خطر حتى يفيق »

فقالت « ومتى يفيق ؟ »

قال « لا بد من الانتظار يوماً أو يومين وعلى الله الشفاء »

فارتبكت سالمة ووقعت في حيرة من أمرها وخافت على حسان اذ يسوءها أن يصاب بسوء لما له من الايدي البيضاء في خدمتها فضلاً عن حاجتها اليه فقضت ذلك اليوم أيضاً كأنها على جمر الغضا وهي تصلي وتتضرع

الى الله أن يشفيه وأحيت ليلها وهي تفكر في هل تنتظر الشفاء أو تسير وحدها فرأت أنها لو بقيت عند حسان لم تنفعه لان اهل الدير اكثر عناية به منها فعزمت على السفر في الغد على أي حال بعد أن توصي الرئيس والطبيب بحسان

فلما أصبحت سارت توًّا الى حسان فرأت راهبين فيخدمته وهو لا يزال غائباً عن رشده فسألتهما عن حاله فقال احدهما «أراه قد تندى بالعرق قليلاً وأظنها علامة حسنة تبشر بالخير» فذهبت الى الرئيس وأخبرته عناضطرارها للسفر العاجل وأوصته بحسان فبعث الى الطبيب وبالغ في وصايته . فلما خرج الطبيب تقدمت الى الرئيس أن يرسل معها من يصحبها الى بواتيه واخرجت من جيبها دنانير دفعتها اليه باسم الدير فأجابها الرئيس الى رغبتها وأمر راهباً من رهبانه ان يرافقها الى حيث تشاء . ولما تأهبت للمسير ذهبت الى حسان لتشاهده قبل ركوبها فرأته على حاله . وخرج الرئيس لوداعها بباب الدير فأعادت اليه الوصية وقالت «اذا منَّ الله عليه بالشفاء فابقه عندك ريثما أعود فاني عائدة على عجل» فأجابها طائعاً وقد نزلت من نفسه منزلاً رفيعاً لهيبتها وتعقلها وكرمها . وكان خدمة الدير قد أعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير عليها خرج فيه بعض الاطعمة الناشفة زاداً لهما في الطريق وركبا وسارا والراهب دليل الطريق . على ان البغلة لو تركت لنفسها لم تخطىء الطريق الى بواتيه ومنها الى تورس لكثرة ما يركبونها الى تينك المدينتين لحمل لوازم الدير من الآنية او الاطعمة أو نحوها . وكانت سالمة قبل خروجها من الدير قد التفت برداء اسود فأصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد وزادها شبهاً بهن اصطحابها ذلك الراهب وكان على رأس الراهب قبعة كالخمار تكسو كل رأسه الا وجهه وقد تجمعت لحيته بين جناحي الخمار وبرزت الى الامام مع شاربيه فأصبح فمه غائراً

الفصل الاربعون

شبح غريب

تواريا عن الدير وقد صارت الشمس في الضحى وتوجها شمالاً في طريق بعضه مطروق وبعضه غير مطروق وكانت سالمة تستغرب ما تراه من المنازل المهجورة والكروم المتروكة وهي تعلم أن أهل القرى اذا انتشرت حرب لجأوا الى المدن يحتمون باسوارها ولكنها رأت ما يدل على المهاجرة القريبة كان أهل تلك الحقول تركوها بالامس فقالت في نفسها لا بد من حادث طرأ على هذه البلاد . فالتفتت الى الراهب وهو على بغلته بجانبها وقالت « ما لي أرى الحقول مهجورة على هذه الصورة ؟ »

قال « لا أظنك تجهلين ما نحن فيه من الاحن بسبب هجوم العرب على بلادنا واهل القرى لا حصون تحميهم من السلب والنهب »

فقالت «ولكن العرب لايزالون بعيدين من هذه القرى وربما لايستطيعون الوصول اليها فكيف هجرها أهلها عفواً ؟ »

«قال ان خوف أهل القرى يا ابنتي ليس من جند العرب فقط بل هم يخافون جند الافرنج انفسهم لانهم اذا مرُّوا بقرية نهبوها وأذلوا أهلها وخربوا منازلها وليس من يردعهم والظاهر انهم علموا بقرب مجيء ذلك الجند ففروا من وجوههم لا أدري الى اين ولعلهم لجأوا الى البلاد البعيدة عن الطريق ريثما يمر الجند فيعودوا الى حقولهم »

وكانت سالمة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يبشرها بنجاح مهمتها ولكنها كانت مشتغلة الذهن بشبح وقع نظرها عليه عن بعدٍ وهو راكب على جواد وقد ساقه نحو الجهة التي هما سائران اليها ولما رآها الراهب تنظر الى ذلك الشبح وجه هو التفاته اليه فلما رأت سالمة انتباه الراهب للامر قالت له « ماظنك بهذا الفارس »

قال يظهر من قيافته انه من الافرنج ولا يمكننا الحكم القطعي في ذلك

الا بعد رؤية وجهه وأراه يقترب منا فاذا دنا رأيناه وعرفناه او سألناه عن حاله »

وما زال الفارس يقترب منهما حتى وقعت العين على العين فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا العينان فحياه الراهب فلم يرد التحية ولكنه تفرس في سالمة وثوبها وفرسها وحوّل عنان جواده وارتد راجعاً الى الوراء . فلما رأت سالمة ذلك اشتغل خاطرها وحسبت لذلك الرجوع الف حساب وخافت ان يبدو ذلك للراهب فيسيء الظن بها فتجلدت وتظاهرت بعدم الاكتراث وقالت وهي تضحك « يظهر ان الرجل خاف من أثواب الرهبنة »

فقال الراهب وهو يظهر الاهتمام « لا أدري يا ابنتي ما الذي خوفه ولكنني أعلم انني خفت رجوعه على هذه الصورة كانه جاء للبحث عنا أو عن احدنا فلما رأى ضالته عاد لابلاغ المهمة

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ولكنها ظلت على تجاهلها ووجهت عنايتها الى الافلات مما قد ينصبونه لها من الشراك قبل وقوعها فيه . فتظاهرت بتغيير الحديث فقالت « وهل ونحن بعيدون عن بواتيه »

قال « اذا سقنا دوابنا وظللنا سائرين ربما وصلناها في صباح الغد »

فاستحسنت ذكره المسير ليلاً وقالت « وهل ترى المسير ليلاً ؟ . يظهر انك في عجلة للرجوع الى الدير لاشغال عليك هناك — فاذا لم يكن علينا بأس من ذلك فلا مانع عندي »

فقال « لست مستعجلاً وانما ذكرت لك ذلك على سبيل تقدير المسافة وأما المسير ليلاً فلا خطر منه علينا وخصوصاً لاني أعرف أهل البلاد ويعرفونني وزد على ذلك ان الليلة مقمرة فاذا شئت نزلنا عند العشاء في دير أعرفه بجانب الطريق فنتناول الطعام ونستريح وننام قليلاً ثم ننهض في نصف الليل ونركب توًّا الى بواتيه فنصلها في الضحى . واذا كان من ذلك تعب عليك فافعلي ما تشائين لاني انما أمرت أن أكون في خدمتك الى حيثما تسيرين »

فاعجبها رأي الراهب وسرها السبيل الذي تطرقت به الى ذلك وفي اعتقادها أنها متى وصلت بواتيه كان لها من اسقفها ما يقيها غائلة الجواسيس أو غيرهم وخصوصاً لأنها تحمل له توصية من اسقف بوردو ومتى دخلت القلاية

أو الدير الذي فيه الاسقف لا يجسر احدٌ عليها

فاظهرت انها تسـاير الراهب في رأيه واستحسنت أن يبيتا تلك الليلة في الدير الذي اشار اليه . فسارا وسالمة تتلفت الى ورائها خلسة وهي تتوقع ان ترى أناساً مسرعين في طلبها. أما الراهب فكان مستغرقاً في صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته ـ قضيا بقية ذلك اليوم وهما يركضان الدابتين فغابت الشمس ولم يدركا الدير المقصود وكان القمر في ربعه الثالث فصار العشاء ولم يطلع بعد فمشيا في الظلام وسالمة تسوق جوادها وراء بغلة الراهب وهي لا ترى الطريق وقد سكتنا وسكنت الطبيعة ولم يكن يسمع هنـاك الا وقع الحوافر تارة على الحصى وطوراً على العشب وقد تعب الفرس ولم يعد يستطيع العدو وأما البغلة فظلت نشيطة والراهب يمكسها عن العدو لئلا تسبق الفرس

الفصل الحادي والاربعون

المسافة طويلة

فمضى بعض الليل وهما في ذلك وأبصارهما شاخصة الى ما يتراءى لهما من رؤوس التلال واذا هما بنور قد ظهر على مرتفع فلما رأته سالمة أرادت أن تستفهم الراهب عنه فابتدرها قائلاً « ها اننا على مقربة من الدير يا سيدتي »

ففرحت سالمة بتلك البشارة حباً بالراحة وكادت تنسى ما كانت فيـه من الاضطراب التماساً للسرعة

وصار مسيرهما صعوداً على الاكام والبغلة دليلهما في ذلك الظلام كأنها تسير وبين يديها المشاعل والانوار والفرس يتبعها وسالمة ممسكة بزمام الفرس خوفاً من أن تزل قوائمه فزادها ذلك تعباً . وبعد مسير ساعة على هذه الصورة وصلا الى سفح ذلك الجبل ولا يزال النور الذي شاهداه على نحو المسافة التي كان عليها عند ما رأياه لاول مرة . وكانت سالمة تسمع في أثناء ذلك الصعود صدى حوافر فرسها فتتوهم أن فرساناً سائرين في أثرها فلم يكن يسليها في تلك الحال الا ذكر السيد المسيح ورسم اشارة الصليب . وقد أصبحت لفرط قلقها

لا تجسر على الالتفات الى الوراء

وأما الراهب فكان قد عاد الى الصلاة واستغرق في الدعاء وبعد قليل رأت سالمة النور يقترب منهما فتحققت أنهما صارا على مقربة من الدير فنشطت ونسيت التعب ونادت الراهب قائلة « ألعلنا في آخر رحلتنا يا حضرة الاب »

قال « وصلنا الدير يا ابنتي فاطمئني »

ثم وصلا الى سطح مستوى ينتهي ببناء عال عرفت سالمة من شكله أنه دير فتحققت أنهما وصلا الى المكان المقصود . ثم رأت نفسها تقترب من ذلك البناء حتى صارت بجانب الباب وقد توارى النور الذي كانت تراه عن بعد واذا بالراهب قد ترجل ومشى نحو الدير وزمام البغلة في يده وهي لا تزال على فرسها حتى وقف الراهب بجانب باب الدير فامسك بحبل مدلى بجانبه وشده فسمعت قرع الجرس ثم أطل بواب الدير من كوته على جاري العادة . وقبل ان يسمعا نداءه صاح الراهب به باللغة اللاتينيــة ان « افتح سريعاً » فكان كلامه بتلك اللغة احسن وسيلة للتعريف . ولم تمض برهة وجيزة حتى فتح الباب وخرج منه راهب طويل القامة دقيق العضل خاطب الراهب باللاتينية واستقبله فترجلت سالمة فدخلت الى غرفة الاضياف وهو يرحب بهما ويسأل الراهب عن سبب تأخره حتى دخلا الغرفة وقد انفرد البواب عنهما ثم عاد بشمعة مضيئة مغروسة في شمعدان من خشب عليه أثر الشمع القديم فوضعه في الغرفة وعاد ثم جاءهما بطعام . فجلست سالمة وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً ونسيت ما هي فيه من الجوع فقدم لها الراهب الطعام في قصعة وهو عبارة عن قطع من الدجاج المطبوخ فتناولت منه شيئاً ونفسها تطلب الرقاد اكثر من الطعام . فاكلت وشربت قليلاً من الخمر مع الماء وتوسدت الفراش ولم توص الراهب بايقاظها طمعاً بالراحة اللازمة وتغافلت عن رغبتها في السرعة اعتماداً على ما يتراءى للراهب من اغتنام الوقت

وأما الراهب فلما رآها نامت صعد الى غرفة البواب فجلس عنــده قليلاً وتحادثا في شؤون كثيرة معظمها خارج عن موضوع المهمة التي يهم سالمة البحث

فيها . وفي آخر السهرة استفهم الراهب رفيق سالمة عن اقرب الطرق الى مدينة بواتيه

فلما أجابه الراهب علم انه كان على هدى من رأيه في خطة ذلك المسير . وذهب الى فراش أعدوه له في غرفة أخرى فنام ولم يكد يتوسد الفراش حتى أحس بالتعب وغلب عليه النعاس فاستغرق في النوم ولم ينهض الا عند الفجر فهرول الى سالمة فأيقظها وذهب الى مربط البغال وأحضر الفرس والبغلة فركبا وسارا يلتمسان بواتيه

فطلعت الشمس وهما لا يزالان بين الجبال لا يريان ما وراءها وسالمة تحسب نفسها تائهة . ولولا تعويلها على معرفة الراهب بتلك الجهات لخافت الضلال عن الطريق . ووصلا عند الضحى الى رابية اطلا منها على سهل بعيد رأيا في بعض جوانبه مدينة في منتصفها قبة عالية في قمتها صليب علمت سالمة انها قبة كنيسة بواتيه فانشرح صدرها ونسيت تعبها وقلقها وانبسط وجهها وقالت « اليست هذه بواتيه »

قال « نعم يا ابنتي هذه بواتيه وبعد قليل نصلها وندخلها باذن الله »

فقالت « من أين ندخلها اني أرى حولها سوراً »

قال « ندخلها من بابها الجنوبي الذي تريته وأمامه تلك الشجرة الكبيرة »

الفصل الثانى والاربعون

خطر آخر

فانشرح صدر سالمة لوصولها ونجاتها من الخطر لاعتقادها انها اذا كانت في بواتيه لا خوف عليها . ولكنها لم تكد تصل الباب حتى رأت جماعة على خيول بلباس الجند الافرنجي قد خرجوا من الباب وفي مقدمتهم فارس ملثم وعلى رؤوسهم الخوذ وعليهم الادراع وقد تقلدوا السيوف المستقيمة بمناطق من جلد وتحت الادراع جبب قصيرة الى الركب وقد لفوا على سيوفهم لفافة من جلد وعلقوا باكتافهم جعب النبال وتلثموا بخمر من الحلق المشتبك ولم يظهر

من وجوههم الا العيون والانوف والافواه وبعض اللحى . فلما رأت سالمة ذلك الفارس الملثم عرفت انه جاسوس الامس نخفق قلبها لرؤيته ثم ما لبثت أن رأته قادماً نحوها والفرسان يتبعونه على عجل فازداد اضطرابها واستعاذت بالله وأدنت فرسها من الراهب كأنها تحامى به أو تنوي استفهامه عن شيء وقد امتقع لونها وتحققت الخطر المحدق بها . واذا بالفارس الملثم قد اومأ الى رفاقه وأشار باصبعه اليها كانه يقول « هذه هي فاقبضوا عليها »

فاحاطوا بها وبالراهب جميعاً فسألهم الراهب عن غرضهم فقالوا له « قد امرنا بالقبض عليكما والمسير بكما الى حضرة الدوق اود »

فقال « وما الذي دعا الى ذلك وما نحن من أهل السياسة ولا الحرب فاني راهب وهذه امرأة . . . أظنكم مخطئين »

قال « لسنا مخطئين هيا بنا طائعين والا فانكما ذاهبان كرهاً »

فلما تحققت سالمة وقوع الخطر ورأت نجاتها مستحيلة من بين يدي اولئك الفرسان تجلدت وقالت « اظنكم تلتمسون القبض عليّ وليس على هذا الراهب فاطلقوه وها اني سائرة معكم الى حيث تشاؤون ولا حاجة الى التهديد والوعيد»

فتعجب الراهب من جرأتها ورباطة جأشها وحدثته نفسه ان يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها ولكنه رأى البقاء لا ينفعها وخاف لوم رئيسه فسكت ليرى ما يكون منهم فاذا بالفارس الملثم قد خاطب كبير الفرسان همساً فاشار هذا الى الراهب بالانصراف وأحاطوا بسالمة وساروا بها ولم يلتفتوا الى الوراء

أما هي فلما رأت نفسها في قبضة الافرنج ولا حيلة لها في النجاة تذكرت انها تحمل رسالة من أسقف بوردو الى أسقف بواتيه فخافت اذا فتشوها ان يعثروا على الرسالة فيقع هذا الاخير تحت طائلة الغضب فاحتالت ورمت الرسالة في مكان لا يراها فيه أحد . ثم تذكرت المحفظة وفيها كل سرها فخفق قلبها خوفاً من وقوعها في أيدي اولئك الافرنج فجرها ذلك الفكر الى ابنتها وكيف تركتها في معسكر المسلمين فطرق ذهنها للحال ميمونة وما كانت تخافه من دسائسها فترجح عندها ان ما أصابها انما كان بايعاز ميمونة اذ ليس في اكيتانيا

كلها من يعرفها او يسيء الظن بها سواها . ولكنها عادت فتذكرت انها خرجت في تلك المهمة سراً ولم تكاشف احداً بخروجها غير مريم — قضت سالمة ساعة في تلك الهواجس وهي سائرة على فرسها والفرسان محيطون بها وفي جملتهم ذلك الجاسوس الملثم . وكانت تسترق النظر اليه لعلها تستطيع معرفته لانها لو رأت وجهه لانكشف سر ذلك الامر ولكنه كان شديد الحرص على لثامه . على انها تفرست في ثيابه فرأت مع كونها بحسب الظاهر افرنجية فيظهر من تحت ردائه القصير ان باقي الثوب ليس افرنجياً . ورأت ما انكشف من ساقيه اسمر اللون ولون الافرنج مشرب حمرة فتحققت انه جاسوس من خدم ميمونة . فندمت لانها لم تكشف امرها للعرب لينجوا من حبائلها . وأصبحت من الجهة الاخرى تخافها على المسلمين لئلا توقعهم في شراكها او تفسد امرهم فيذهب سعيها في نجاحهم ادراج الرياح . وودت لو انها تستطيع ابلاغ ذلك الى الامير عبد الرحمن فتأسفت لانها تركت حساناً في الدير ولا تدري مع ذلك هل شفي جرحه أم أصابه سوء بسببه . وتصورت اذا فشل المسلمون كيف يكون حال ابنتها ووحيدتها فتراكمت عليها الهواجس وعظم الامر عليها وغلبها اليأس فلم تمالك عن البكاء خلسة . فلما بكت خف بعض ما بها ولكن الامر ما برح عظيما

وما زالوا سائرين بضع ساعات وسالمة تتهيب من مقابلة الكونت اود لئلا يعرفها فيكبر جرمها عنده ويكون ذلك خاتمة المصائب . فلما كثرت مشاغلها وهواجسها أخذ الامر يهون عليها — وهو لم يهن حقيقة ولكن الانسان اذا وقع في مصيبة استعظمها وكاد ينوء تحت ثقلها فاذا تراكمت عليه المصائب ساعده اليأس على احتمالها . فكم من أرملة كان الناس يحسبونها تموت ساعة موت زوجها فلما مات لم تمت ولكنها اعظمت المصيبة فعزاها الناس ببقاء انجالها ثم أصيبت بواحد منهم ثم بآخر فآخر ففرغت حيل الناس في تعزيتها ولكنهم رأوا نفسهم في غنى عن ذلك بما استولى على تلك الارملة الثاكلة من اليأس كأن القلب يندمل من توالي الاحزان او انه يعتاد المصائب فيستخف بها . وهكذا

شأن من تحيط به المشاكل تراه عند وقوعه في المشكل الاول اكثر ارتباكاً وخوفاً مما يصير اليه حاله عند تعددها — فكانت كلما تعددت مشاكلها هونت على نفسها

الفصل الثالث والاربعون

الدوق اود

وفي أصيل ذلك اليوم اشرفوا على كرم وراءه سهل واسع رأت في منتصفه قصراً كبيراً حوله الخيام وبينها الناس يعجون عجباً وفوق القصر علم علمت حالاً انه للدوق اود فتحققت انها وصلت الى المكان المقصود وان القصر المذكور لبعض أغنياء البلاد هجره أهله في جملة ما هجروه فنزل فيه اود وأقام رجاله في الخيام حوله

وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا الى باب القصر فترجلوا وترجلت فسلموها الى الحرس الواقف بالباب فدخلوا بها الى القصر وهي ملتفة بثوبها الاسود ومقنعة بخمارها الاسود . مشت بقدم ثابتة بين الحرس حتى تجاوزت باحة البيت الى قاعة وقف الحرس ببابها ودخل أحدهم ثم عاد وأشار الى سالمة أن تدخل

فدخلت الى قاعة يظهر من سعتها وما على جدرانها من الرسوم الجميلة ان أصحاب ذلك البيت من أهل اليسار ولم تر في ارض القاعة طنافس ولا مقاعد غير ما كان يحمله الجند في سفره وشاهدت على كرسي في وسط القاعة رجلاً نحيف البدن ممتقع اللون أشقر الشعر اشيبه أزرق العينين جاحظهما غائر الفم بارز اللحية منخسف الخدين بارز الوجنتين وعلى رأسه قبعة عنابية اللون مزركشة بالذهب وفي مقدمها فوق جبينه حلية مرصعة بالالماس والياقوت بشكل الصليب وعلى كتفيه بردة مزركشة بالقصب سماوية اللون تغطي اثوابه. وتحت البردة جبة قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب على أشكال بعض الطير وحول ساقيه لفافة من جلد ملون له اهداب من الفرو

ونعاله مشدودة الى قدميه بسيور من نسيج الشعر المتين وقد جلس على كرسي ذي جناحين اسند زنديه اليهما . وقد ظهر من تحت البردة سلسلة ذهبية مدلاة من عنقه وفيها صليب من الذهب . فعلمت سالمة انه الدوق اود لانها كانت تعرفه جيداً وتعرف بعض الذين بين يديه من امراء مجلسه

وكان اود قبل دخول سالمة قد تناول من بعض جلسائه قدحاً فيه خمر وهم بشربه فلما امر بادخالها وضع القدح على المائدة أمامه بين الاقداح الاخرى ومسح يده بلحيته ثم جعل يسرحها بانامله . فدخلت سالمة وهو على تلك الحالة فلما وقع نظره عليها ظهرت البغتة في عينيه ولولا اصفرار وجهه الطبيعي لبدت أيضاً في امتقاع لونه ولم تكن سالمة أقل تأثراً منه ولكنها كانت قد تجلدت وذهبت بغتتها . فوقفت بين يديه وخرج الحرس ثم أومأ اود الى أهل مجلسه فخرجوا جميعاً وبقي هو وسالمة

فلما رأت سالمة نفسها وحدها زادت تهيباً فاذا هو قد أشار اليها ان تجلس فجلست على كرسي بين يديه جلوس متحفز للنهوض . فخاطبها اود بالافرنجية قائلاً « ألهذا الحد بلغ منك الغيظ ؟ »

فاجابت وهي تتجاهل « وأي غيظ يا مولاي ؟ »

قال « أتظنين اني نسيتك يا اجيلا ؟ »

فلما سمعت سالمة لفظ « أجيلا » ارتعدت فرائصها لأنها لم تسمع أحداً يناديها بهذا الاسم من زمن مديد ولكنها تجلدت وقالت « أظن مولاي مخطئاً في شأني ولعله يريد امرأة غيري »

قال وهو يضحك « اظنني واهماً . . ! اذا كانت عيناي واهمة فهل تظنين قلبي واهماً أيضاً ؟ هل أنسى أجيلا وقد جرحت قلبي وأساءت الى سلطاني ولكنها أساءت الى نفسها . . ألم يكن من التعقل والحكمة ان تقلعي عن ذلك الجنون ؟ . أليس من العار عليك وأنت مسيحية مولودة في بيت من اكبر بيوت المسيحيين أن تنصري قوماً غرباء لا دين لهم ولا ذمام وتساعديهم على أهل ديانتك »

قالت وهي لا تزال مطرقة « لم أفهم يا مولاي مغزى كلامك كأنك

تخاطب امرأة غيري فان الإسم الذي ناديتني به ليس هو اسمي وانما أنا اسمي سالمة »

فاغرق اود في الضحك حتى سمع قهقهته كل من في القصر ومد يده الى المائدة فتناول قدحه وشربه وهو ينظر الى سالمة وهي لا تزال مطرقة . ثم أرجع القدح فارغاً ومسح فمه بيده وهو يقول « ما لنا وللانكار والاثبات فاخبريني يا سالمة (كما تسمين نفسك) ما الذي جئت من اجله الى هذه المدينة وما الذي فعلته عند أسقف بوردو ؟ »

فادركت سالمة أنه مطلع على شيء من أمرها فقالت «وما الغرابة في زيارة امرأة مسيحية لاسقف كنيستها ؟ »

قال « لا غرابة في الزيارة ولكنني أسألك عما دار بينكما وعما حملك على الذهاب اليه »

قالت « لا يخلو أن يكون قد دار بيني وبينه حديث طويل بشؤون سرية لا تهم أحداً لان جماعة الاكليروس خزانة اسرارنا »

قال « لا أسألك عن اعترافك اليه مما يتعلق بشؤونك . ولكنني أسألك عما دار بينك وبينه بشأن الافرنج والعرب والحرب والسلم »

الفصل الرابع والاربعون

التهديد

فلما سمعت تصريحه لم يبق عندها شك في اطلاعه على سرها فايقنت بالوقوع وتحققت يأسها من النجاة فساعدها اليأس على الجرأة فقالت « يظهر انك عالم بما دار بيني وبينه فلا حاجة الى سؤالي »

قال وهو يظهر الغضب « أهكذا تجاوبين الدوق اود ؟ . أبمثل هذه الجرأة تخاطبين دوق اكيتانيا ؟ »

فظلت سالمة ساكتة ولكنها ابتسمت ابتسامة فهم اود منها ما هو اصرح

من الجواب فابتسم وكأنه ندم على ذلك التهديد فقال « تلك أيام مضت وقد أردنا ارجاعك الى مثلها فابيت . . . فاسأت الى نفسك والى ابنتك ولا ذنب لها وانما الذنب ذنبك . . ولكنك اردت ان تهوى هي الذين تهوينهم أنت وان تبيع دياتها وكنيستها جزافاً وان يكون نصيبها من اولئك المسلمين . . بالحقيقة اني لم أفهم سر هذا العناد فيك . . »

فايقنت سالمة ان اود مطلع على كل شيء كانه كان معها في خيمة عبدالرحمن لما القت اليه سرها . واستغربت اطلاعه على تلك الاسرار ولم تجد لها خيراً من السكوت أو الانكار فقالت « اراك لا تزال تخاطبني بالالغاز والاشارات والتلميح والتعريض فالذي تريد ان تعتقده فيَّ اعتقده وما تريد أن تفعله افعله »

قال « الذي أريد أن افعله يا اجيلا سترينه رأي العين . ولو أظهرت هذه الوقاحة في مجلسي وبين أرباب حكومتي لما استطعت الاغضاء عن قتلك ولكنني اسامحك الان اكراماً للحب القديم . اما الان فقد تحول ذلك الحب الى الغضب والانتقام ويكفيني انتقاماً منك ان اريك حبوط مسعاك — فمتى رأيت الارض مضرجة بدماء اولئك العرب والبرابرة كنت مخيرة أن تموتي حسرة أو ان نقتلك بالسلاح الذي تختارينه »

قال ذلك ولحيته ترقص على صدره وعيناه قد كللهما الاحمرار من شدة الحنق مع الكظم لان الانسان اذا غضب ولم يشفِ غضبه بالضرب أو نحوه تعاظم تأثيره وقد يحاول اخفاء عواطفه بالكظم ولكن العينين تبيحان بسر القلب على حد قول الشاعر

عيناك قد دلتا عينيَّ منك على أشياء لولاهما ما كنت رائيها
والعين تعلم من عيني محدثها ان كان من حزبها أو من اعاديها

فلما رأت سالمة غضب أود وتصريحه بما في قلبه من الغيظ مع علمها انه فاعل معها ما يريده لانها أسيرة في يديه رأت السكوت اولى لعلمها ان ماتوهمه أود في نفسه من الاقتدار على العرب محال وقد غلبوه في عدة مواقع

فلما رآها اود لا تزال ساكتة ازداد هو حنقاً فقال لها « أراك لا تزالين صامتة .. »

فقالت وهي تظهر التجلد وعدم الاكتراث « وماذا عسى ان يكون جوابي لامير حوله الجند والاعوان والعدة والسلاح يهدد امرأة وحيدة لا نصير لها ولا سلاح في يدها فالذي ترى ان تفعله ايها الدوق افعله .. »

وهمّ اود ان يجاوبها فسمع قرع الباب قرعاً عنيفاً فاستغرب ذلك لعلمه ان أعوانه لا يجسر احد منهم على اقلاق راحة في مثل تلك الحال فنهض بنفسه مسرعاً الى الباب وطيلسانه يجر وراءه وقد حمي غضبه ففتح الباب فاستقبله احد رجال خاصته فصاح أود قائلاً « ما الذي حملكم على هذا القرع العنيف وانتم تعلمون انني في شاغل هنا »

فقال « العفو يا مولاي اننا فعلنا ذلك باشارة هذا الرسول فانه قادم من سفر ومعه رسالة مستعجلة في غاية الاهمية اوصاه مرسلها ان يسلمها الى حضرة الدوق حال وصوله الى معسكره واذا كان نائماً فليوقظه من نومه »

فبغت اود وقال « اين الرسول دعه يدخل »

الفصل الخامس والاربعون

الكتاب

فدخل رجل عليه لباس الافرنج ولكن وجهه يدل على انه من برابرة افريقية فلما شاهدته سالمة عرفت انه من جند المسلمين وقد جاء متنكراً . اما هو فحالما دخل مدَّ يده الى جيبه واستخرج منه لفافة دفعها الى اود فتناولها وتراجع الى كرسيه فجلس عليه وفض اللفافة واذا فيها منديل عليه كتابة فاخذ في قراءتها حتى اتى على آخرها ثم عاود قراءتها ثانية والبغتة ظاهرة في وجهه

وكانت سالمة تتغافل عن ملاحظة حركات اود وتسترق النظر الى الرسول فاذا هو ايضاً يسترق النظر اليها وكانه عرفها واما هي فعرفت انه من رجال البربر . ثم مالبثت ان رأت في عينيه حولا شديداً فتذكرت انها رأته في معسكر

عبد الرحمن فادركت مصدر تلك الرسالة وودت لو يتاح لها التخلص من ذلك الاسر لعلها تستطيع القيام بخدمة العرب

أما الدوق اود فبعد ان فرغ من تلاوة الكتاب ثانية تظاهر بالاطراق واعمال الفكرة وهو ينظر خلسة الى سالمة يراعي حركاتها وما قد يبدو في وجهها فرآها تبالغ في التجاهل وأحب أن يعود الى البحث في شأنها لكنه رأى في ذلك الكتاب ما يدعو الى سرعة العمل به فأومأ الى الرسول فخرج ثم صفق فدخل اليه بعض غلمانه وبيده حربة ووقف متأدباً . فأشار اليه اود أن يأخذ سالمة الى غرفة منفردة من غرف القصر يحبسها فيها ثم التفت اليها قائلاً « اذا كنت لا تزالين على تنكرك وتجاهلك فاذهبي الى حيث يقودك هذا الحارس وسنرى في شأنك »

فنهضت سالمة ومشت ولم تبد جواباً . فسار بها الحارس حتى خرج من باحة القصر الى دهليز استطرق منه الى باب أدخلها فيه الى غرفة ليس فيها الا حصير وطنفسة ولها نافذة تطل على معسكر الافرنج . فتركها الحارس هناك واغلق الباب عليها فظلت هي واقفة تنظر الى ما تطل عليه النافذة من الخيام المنصوبة وبينها الرجال في ذهاب واياب لقضاء حوائجهم . حتى اذا تعبت من الوقوف جلست على الطنفسة وقد عظم عليها ذلك السجن مع ما يترتب عليه من عرقلة مساعيها وودت لو أنها تطلع على نص تلك الرسالة لتعلم ما دبروه لها او لجند العرب ولكنها قالت في نفسها « اذ لم يكن من سبيل الى خروجي من هذا المعسكر فما الفائدة من الاطلاع »

فظلت على تلك الحال الى الغروب وهي لم تذق طعاماً وكانت لفرط هواجسها لا تشعر بمرور الوقت . فلما غابت الشمس اسودت الدنيا في عينيها وتذكرت ابنتها وميمونة وعبد الرحمن فانتبهت لتلك المحفظة فتعهدتها فاذا هي لا تزال محفوظة تحت اثوابها لكنها اصبحت لا ترى فائدة منها وهي في تلك الحال بعيدة عن كل نصير وخصوصاً خادمها وقد تركته بين حي وميت . فغلب على ظنها انه لم ينج من تلك الحمى لانها اصبحت بعد وقوعها في ذلك الشراك لا تتوقع غير توالي النحوس — والانسان اذا اصابته نائبة انصرف ذهنه الى

استهدافه لسواها واذا صادف توفيقاً في عمل خيل له ان الاقدار ابرمت معه عهداً ان لا تأتيه بغير ما يرضاه

فاشتغلت بتلك الهواجس عما في ذلك القصر من ضوضاء الجند بين خارج وداخل وعن غوغاء الناس في المضارب وخصوصاً ساعة الغروب وقد نفخ في البوق يدعوهم الى الطعام

الفصل السادس والاربعون

الطارق

وهي مشتغلة في ذلك واذا بقلقلة في مكان القفل بالباب فاجفلت ونظرت الى الباب فرأت من ثقبه نوراً في الخارج ثم فتح الباب ودخل منه شاب بلباس الافرنج في احدى يديه شمعة مضيئة وبالاخرى قصعة مغطاة بشيء كالخبز فعلمت انهم جاؤها بالطعام فاحست بالجوع حالاً ولكنها لم تمالك أن صاحت « من انت ؟ »

فاجابها الشاب بصوت هادىء « قد جئتك ياسيدتي بطعام بامر سيدي الدوق وقد أوصاني أن أعزم عليك لتأكلي من هذا الطعام فانه من طعامه الخاص »

فاستغربت سالمة هذا الاكرام منه بعد مادار بينها وبينه ولكنها سكتت وهي تنتظر ما يفعله الشاب . فاذا هو قد وضع القصعة على الطنفسة ورفع الخبز عنها فرأت تحته شيئاً من قبيل الطيور المطبوخة وقد فاحت منه رائحة يشتهيها الشبعان فكيف بالجائع ولكنها أمسكت نفسها مخافة أن يكون في الطعام سم أو نحوه وان كان الجوع يدفعها الى الاكل . فرأت ان تنظر في وجه الغلام لعلها تتوسم فيه ما يشجعها او يخوفها فرفعت بصرها اليه والشمعة لا تزال في يده وقد وقعت أشعتها على وجهه فاذا هو يختلف في سحنته ولون بشرته عن أهل تلك البلاد مع أن كلامه افرنجي فتبينت تقاطيع وجهه فاذا هو أسود العينين براقهما خفيف العضل اسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين من

حداثة . ويدل مجمل ملامحه انه ليس افرنجياً . فلم تستغرب ذلك لعلمها بما يدخل بلاط الملوك في تلك الايام من الاسرى والمماليك من امم مختلفة . فتفرست في وجهه لترى ما يزيل الشبهة التي لابستها من مر الطعام فلم ترَ في وجه الغلام ما يدعو الى الخوف لكنها أرادت أن تحقق ذلك من سماع كلامه فقالت « ما اسمك ايها الشاب ؟ »

قال « اسمي رودريك يا سيدتي »

فلما سمعت ذلك الاسم خفق قلبها واجفلت وتصاعد الدم الى محياها بغتة لكنها انتبهت لنفسها حالاً وحولت نظرها الى القصعة ومدت يدها الى الخبز وتشاغلت بتقطيعه بهدو وسكينة والغلام واقف وقد لحظ منها ذلك الاضطراب فلم يفهم له سبباً سوى انها تحتاج الى امر وقد منعها الحياء من طلبه فانتبه للحال انه لم يأتها بالماء للشرب فابتدرها قائلاً « اظنك تحتاجين الى الماء »

ثم وضع الشمعة على البساط وخرج وقد ترك الباب مفتوحاً ففهمت سالمة انه ينوي الرجوع حالاً

ولم تمض هنيهة حتى سمعت خفق نعاله سريعاً ثم دخل وبيده كوبة فيها ماء وضعها امامها وهو يبتسم وكان قد سكن اضطرابها فنظرت اليه فاحست بارتياح الى رؤيته واستأنست به فشكرت عنايته وودت انه يتولى امرها دائماً اما هو فوضع الكوبة وخرج وأغلق الباب وراءه اغلاقاً خفيفاً كانه عازم على الرجوع

فتناولت سالمة بعض ما في القصعة وشربت الماء وهي تفكر في ما آنسته من ذلك الغلام من المؤانسة ولبثت بعد فراغها من الطعام تنتظر رجوعه . وبعد قليل سمعت خفق نعاله وهو يمشي الهوينا ثم دخل يحمل غطاء ثقيلاً ووسادة فالقاها على الارض وهو يقول « هذا غطاء ووسادة لاجل الرقاد وقد أوصى مولاي الدوق بهما لك »

فتناولتها وقالت له «اشكر عنايتك ايها الشاب وأرجو أن أستطيع مكافأتك

وعسى ان لا يتولى امري من أهل هـذا المعسكر سواك وان كان في ذلك ثقلة عليك »

فاجابها رودريك وهو يبتسم « وانا أرجو ان لا يتولى ذلك سواي لاني أخاف ان يتولاه من لا يعرف قدرك فلا يحسن خدمتك

فتوهمت سالمة من ذلك انه عارف ببعض شأنها فتجاهلت وسكتت . اما هو فانه أخذ القصعة والـكوبة وتحول نحو الباب وهو يقول « وستريني رهين اشارتك وسأبذل جهدي في خدمتك فليطمئن بالك » ثم اقفل الباب وخرج

وبعد خروجه أحست سالمة بارتياح انساها بعض ما بها من الاضطراب فافترشت بعض الغطاء وتغطت بباقيه وتوسدت تلتمس الرقاد وكانت قد احست بالتعب على أثر ما قاسته في ذلك اليوم وما قبله فغلب عليها النعاس فنامت نوماً عميقاً

ولما أفاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها في كل ما تحتاج اليه وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت انه بعيد الشبه عن الافرنج وقريب الملامح من العرب ولـكنها رأته يتكلم الافرنجية مثل أهلها واسمه افرنجي وعزمت على استطلاع حقيقته بعد ان تؤانس منه وثوقاً بها مخافة ان تبدر منها كلمة اذا بلغت اود زادت نقمته عليها

الفصل السابع والاربعون

السفر

قضت سالمة في ذلك الاسر اياماً وهي تراقب حال أهل القصر بالنظر اليها لعلها تجد سبيلاً للفرار فاذا هم شديدو العناية في خفارتها كثيرو التضييق عليها وكان جماعة منهم موكلين بحراستها ومراقبة حركاتها فعلمت ان اود مع تغيبه عنها واهماله مقابلتها شديد الحرص على استبقائها في ذلك السجن

فلما طال مكثها على تلك الحال ملت الاقامة وتزايد قلقها على جند العرب

لعلمها أنهم في انتظارها على مثل الجمر ولكنها لم تكن ترى بأساً من تأخرها عنهم لعلمها أنهم فائزون في فتحهم حتى يبلغوا بواتيه ثم هي لا تخاف عليهم اود وجنده لعلمها انهم غلبوهم غير مرة . على انها كانت تخاف على مريم من غدر ميمونة . ثم هي رجحت ان الكتاب الذي جاء به ذلك الاحوال انما هو من ميمونة ولكنها لم تفهم فحواه تماماً فلبثت تتوقع فرصة لاستطلاع ذلك من روردريك

وأصبحت ذات يوم فسمعت ضوضاء الجند على غير المعتاد فاطلت من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام وقد أخذوا في التأهب للسفر فاشتغل خاطرها وأوجست خيفة من ذلك الانتقال . انها رأت في ذلك سبيلاً لمخاطبة رودريك في ما قد يكشف لها شيئاً من ذلك السر . فلما جاءها في ذلك الصباح ومعه الطعام ابتدرته قائلة « مالي أراكم تتأهبون للسفر هل أنتم مسافرون جميعاً ام يبقى بعضكم هنا »

قال « اننا مسافرون جميعاً وقد أمر حضرة الدوق أن تسيري معنا »

قالت « والى اين ؟ »

قال « الى تورس على نهر لوار »

فلما سمعت قوله استغربت ذلك الانتقال لعلمها ان النهر المذكور هو آخر حدود اكيتانيا والبلاد التي وراءه تحت سلطة شارل دوق اوستراسيا . وهي تعلم ايضاً ان بين اود وشارل منافسة ومزاحمة على النفوذ وربما كان شارل اكثر حرصاً على صد اود عن بلاده من حرص العرب على فتح اكيتانيا فقالت « هل انت على يقين من ذهابهم الى تورس ؟ »

قال « نعم يا مولاتي وقد سمعت الاوامر الصادرة لنا بالذهاب »

قالت « ألا تعلم بما بين الدوق اود ودوق واستراسيا من المنافسة ؟ »

قال « بلى ومن يجهل ذلك ؟ »

قالت « فما الذي يفعله الدوق اود في تورس اذاً ألا يخاف عدوه شارل؟ »

فلما سمع رودريك سؤالها تلملم وتلفت نحو الباب كانه يحاذر أن يراه أحد ثم نظر الى سالمة وهو يقول بصوت منخفض « ان لذلك سراً لم يطلع عليه

الا نفر قليلون من هذا الجند وأخاف ان بحت به أن يلحقني اذى »

فتوسمت في وجه الغلام خبراً مهماً فتاقت نفسها لسماعه فشجعته وقالت «ما الذي تخافه من أسيرة سجينة ربما لا يهمها من أمر هذا الخبر شيء ولكنني أحببت الاطلاع على هذا السر لغرابته وقد جرأني على هذا السؤال ما شاهدته من مؤانستك ولطفك في اثناء هذه المدة . ومع ذلك لا اظنك أحرص على مصلحة هذا الجند مني لانك على ما يظهر لي لست منهم . . »

فما قالت سالمة ذلك حتى رأت البغتة بدت في وجه رودريك وقد تحولت سحنته الى غير ما كانت عليه فتنهد وقال « لقد أدهشتني فراستك فيّ لانك اطلعت في أيام على ما لم يستطع كشفه أحد من أهل هذا المعسكر في اعوام . . »

فاستبشرت سالمة بذلك التلميح وقالت « يظهر لي اني قد اصبت الفراسة فكلانا اذاً نرمي الى غرض واحد فاخبرني عما حمل اود على الذهاب الى تورس ولا تخف وارجو أن يكون لك من وراء ذلك خير »

فقال « أما السبب في هذا الانتقال فهو ان العرب حاربونا ونحن قرب بوردو فغلبونا وقد بلغنا الآن انهم قادمون الى هنا »

فقطعت كلامه وقد سرها ان غيابها لم يؤخر العرب عن التقدم في الفتح وأيقنت أنهم لم يلاقوا في طريقهم كبير مدافعة من أهل البلاد فقالت «فالأفرنج اذاً يطلبون تورس فراراً من العرب »

قال « لا يخلو الامر مما ذكرت ولكنهم يطلبون تورس للدفاع وليس للفرار »

قالت « وعلامَ يدافعون وعدوهم هناك أشد وطأة عليهم من العرب »

قال « قد كان كذلك من قبل ولكنه أصبح الان ظهيراً لهم »

فقالت «وكيف ذلك والمنافسة متمكنة بينهما لان كلا منهما يطلب السيادة على الاخر بعدان رأيا انحلال الدولة المرونجية التي كانت تجمعهما تحت سيطرتها. وقد علما ان الفائز منهما ستكون له الدولة والملك على الدوقيات كلها فزادت المنافسة بينهما حتى صار يتمنى كل منهما أن يهلك الاخر . . »

قال « هذا هو الواقع فعلاً وهذا الانقسام هو الذي مكن المسلمين من

فتح اكيتانيا حتى وصلوا الى هنا واذا قطعوا نهر لوار اصبحت بلاد اوستراسيا في قبضتهم على أهون سبيل لان اساقفتها ناقمون على الدوق شارل نقمة شديدة وقد يحرضون الشعب على خلعه فاذا جاءهم العرب وهم في تلك الحال ساعدوهم على الفتح . . »

فلما سمعت سالمة ذلك خفق قلبها سروراً بما ترجوه من فوز العرب هناك ولكنها لم تثق بصدق تلك الرواية فقالت « وما هو سبب نقمة الاكليروس على شارل وهو قائد عظيم »

قال « السبب يا سيدتي انه استخرج أموالهم وقبض على أملاك الاديرة وفرقها في جنده وأهان بعض الاساقفة بالقصاص وفضل بعض صغار الكهنة عليهم ولا يخفى عليك ما يجر اليه ذلك »

فلما تحققت غضب الاساقفة على شارل عادت الى الاستفهام عما دعا الى نصرة شارل لاود فقالت « ولكنني لم أفهم كيف صار شارل ظهيراً للدوق اود . . فهل فعل شارل ذلك من تلقاء نفسه خوفاً من الاساقفة ؟ . . »

فقال رودريك « كلا يا سيدتي ولكن الدوق اود لما أيقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده لم ير بداً من استنصار عدوه شارل . . »

فقالت وقد بغتت « وكيف استنصره وفي استنصاره خروج هذه البلاد من يده لا محالة »

قال « لا أظنه يجهل ذلك ولكنه قد فعله مضطراً بحكم الضرورة ففضل أن تأول البلاد الى أمير مسيحي أفضل من أن تأول الى قوم غرباء ديناً ووطناً ولعله مطمئن لما يعلمه من اشتغال شارل بنقمة الاساقفة — ثم اني لا أظنه استنصره الا مدفوعاً بمشورة بعض ثقاته »

قالت « ومن يجرأ على هذه المشورة من رجاله »

قال « المشورة لم تأته من هذا المعسكر ولكنني علمت بكتاب جاءه في اليوم الذي سجنك فيه . وفي ذلك الكتاب تحريض على استنجاد شارل والظاهر انه أثر فيه كثيراً فلما قرأ الكتاب بعث وفداً الى شارل يطلب اليه مساعدته في هذه الحرب فاتاه الجواب بالايجاب »

الفصل الثامن والاربعون

الاستطلاع

فلما سمعت قوله تحققت ان المحرض على ذلك انما هو ميمونة فاستعاذت بالله ولكنها كظمت وتجلدت لانها لم تكن تثق برودريك وهو لم يكاشفها بحقيقة امره فاحبت قبل الافاضة في الموضوع أن تستطلع الحقيقة فقالت والاهتمام ظاهر في وجهها « أراك يا رودريك قد كاشفتني بامور ذات بال مما يدل على ثقتك فيّ فاعلم ان ثقتك في محلها واذا كنت تعتقد اخلاصي لك كن على يقين أني باذلة نفسي في مكافأتك على اني لا أزال أعلل نفسي بالاطلاع على حقيقة أمرك لاني على ثقة أنك لست من أهل هذا المعسكر »

قال « لا ريب عندي في اخلاصك ولولا ذلك ما خاطبتك بما خاطبتك به والامر الذي تمنينه في باطن سرك هو الذي أعناه أنا أيضاً وهذا ما جرأني على هذه المكاشفة »

فادركت سالمة انه على غرضها فازدادت ميلاً الى استطلاع حقيقته فقالت « فاطلعني على حكايتك لنتعاون على النجاة باذن الله . . »

قال « ولكنني أطلب اليك ان تخبريني عن أمر لاحظته منك في أول ساعة خاطبتك فيها . . هل أسألك عنه ؟ »

قالت « وما هو . . »

قال « لما سألتني عن اسمي وعلمت انه رودريك رأيت في وجهك أثر البغتة فلا أدري كان ذلك بسبب اسمي أو غيره . . »

فتظاهرت سالمة بعدم الاكتراث وقالت « لا أذكر أني بغت لشيء من هذا القبيل »

فصدق واقتصر

أما هي فلبثت ساكتة تنتظر جوابه على سؤالها عن حكايته فرأته يلتفت نحو النافذة كأنه يراقب حركة أو يتوقع قادماً فالتفتت هي فلم تر غير الجند وهم

لا يزالون في اهتمامهم للحزم والرزم والاستعداد للرحيل فحولت بصرها الى رودريك فرأته يهم بالجواب وهو يتردد فقالت « يظهر انك تحاذر شيئاً »

قال « كلا يا مولاتي ولكنني أخاف أن يدهمني الوقت وادعى الى السفر قبل الفراغ من حكايتي لانها طويلة »

قالت « قل لي بالاختصار اذاً هل تعرف العربية ؟ »

قال « كلا »

فتوهمت سالمة أنها أخطأت الفراسة فيه لانها كانت توسمت من ملامحه انه عربي فقالت « هل تتكلم لساناً غير الافرنجي »

قال « أعرف اللسان البلغاري وهو لسان حداثتي »

قالت « فاذاً أنت بلغاري الاصل .. ولكن ملامحك لا تدل على ذلك »

قال « لست من بلغاريا ولكني ربيت في بيت رجل من البلغار »

قالت « وكيف تعلمت لسان الافرنج ؟ ويظهر انك تتكلمه حسناً كأنك تعلمته من حداثتك »

قال « تعلمته من طول الممارسة لان الرجل البلغاري الذي رباني باعني لبعض الافرنج ثم صرت الى الدوق اود بالمقايضة »

فاستغربت ما سمعته ورأت أسئلتها لم تجد نفعاً وكانت تتوقع بها قرب الوصول الى الغرض فاذا هي تبتعد عنه فعمدت الى الاختصار والتصريح فقالت « قل لي أين ولدت »

قال « ولدت في طليطلة »

قالت « أنت اذاً اسباني »

قال « كلا »

قالت « فانت عربي »

فسكت وقد ظهر في وجهه ملامح الخوف

الفصل التاسع والاربعون

منظر هائل

فادركت انه يخاف التصريح لقلة ثقته بها لان ملامحها بعيدة جداً عن ملامح العرب « فقالت لا تخف يا شاب فانك تخاطب امرأة لا تحب غير العرب ولكن قد ادهشني حديثك . فكيف تقول انك ربيت في بلاد البلغار ثم تقول انك ولدت في طليطلة والمسافة بين البلدين بعيدة جداً . اظنك واهماً في ما تقول أو لعل الذي أنبأك بمولدك قد خدعك أو كذبك »

فقال « اني على ثقة من ذلك لاني عشت في طليطلة بضع سنوات ولا أزال أذكر بعض مناظرها كأنها خيال »

قالت بلهفة « أتذكر مناظر طليطلة . ؟ ما الذي تذكره منها ؟ »

قال « اذكر قصرها الكبير على نهر التاج وحوله الحدائق . واذكر حديقة ذلك القصر لاني كثيراً ما كنت العب فيها مع بعض الرفاق على ضفاف ذلك النهر »

قالت وفي وجهها معنى لو رآه لعلم انها بغتت لذكر طليطلة وقصرها وانها كانت تغالب عواطفها لئلا يظهر ذلك في وجهها « فانت اذاً من ابناء ذلك القصر . وما الذي تذكره أيضاً ؟ »

قال « لا أذكر غير ذلك القصر لاني أخرجت من طليطلة وأنا طفل ولولا ما شاهدته هناك من الامور الخفية لم تبق صورته في ذهني »

قالت « وما الذي شاهدته وأخافك وأنت طفل ؟ »

قال « شهدت مقتل أمير الاندلس . . »

قالت « ألا تتذكر اسمه ؟ »

قال « لم اكن أعرف أسمه يوم مقتله ولكنني علمت بعد ذلك أنه عبدالعزيز ابن موسى بن نصير الذي فتح بلاد الاندلس للعرب »

فلما قال ذلك كادت تظهر الدهشة على سالمة لو لم تتجلد وتشغل رودريك بالاستفهام فقالت « وما الذي تذكره من أمر مقتله ؟ »

قال « اذكر اني كنت في بعض شهور سنة ٩٧ للهجرة العب في حديقة القصر وانا في نحو الخامسة من عمري ومعي طفلة أصغر مني كنت ألاعبها ومعنا الخدم لانها بنت الامير عبد العزيز وقد ربينا معاً . وبينما نحن في ذلك رأيت الخدم في هرج ومرج وقد وقفوا وقفة الاحترام فاسرعت للفرجة وبجانبي ابنة الامير. واذا بالامير عبد العزيز قد خرج من القصر ومرّ بالحديقة وعليه القباء والعباءة ووراءه جماعة من أرباب العمائم فلما دنا منا مدّ يده اليّ ولمس رأسي على سبيل الملاطفة وقال كلمة لا أذكرها . فتأثرت لمنظره لانها اول مرة رأيته في مثل ذلك الموكب . فسألت عن مسيره فقالوا الى المسجد للصلاة . فلم يهمني الامر فعدت الى اللعب ولم يمض قليل حتى سمعت ضوضاء الناس وقد جاء بعض الغلمان وحملوا الطفلة بسرعة وتركوني . فخفت لان الحديقة أصبحت خالية وليس فيها سواي فاخذت في البكاء ثم رأيت الناس يعدون من جهة المسجد عدو الفرار وأخيراً رأيت منظراً أثر في حافظتي تأثيراً لا يمحوه كرور الايام ولا أذكره الا ويقشعر بدني — شاهدت جماعة يعدون في أثر الناس نحو القصر وفي مقدمتهم رجل يحمل رأس انسان وقد قبض عليه من شعره والدم يقطر منه ويد الرجل وثيابه قد تلطخت بالدم (١) ونظرت في ذلك الرأس فاذا هو رأس الامير عبد العزيز فاوغلت في البكاء وليس من ينتبه لبكائي لاشتغال الناس عني بشؤونهم . . واذكر أني بقيت في ذلك المكان الى الغروب ولم ينتبه أحد اليّ ثم جاء جدي فتناولني بسرعة وطلع بي الى ذلك القصر الى حجر والدتي — على اننا لم نبق في طليطلة بعد ذلك الحادث الا بضعة أيام ثم انتقل والدي بي وبامي الى الشام . . »

وكان رودريك يتكلم وسالمة شاخصة فيه وعيناها تكادان تجمدان وفي

(١) ابن الاثير ج ٥

وجهها ملامح الاضطراب مع اصفرار الدهشة وانقباض الحزن وورودريك يزداد مبالغة في تشخيص هول ما شاهده . فلما فرغ من حديثه رأى دمعتين انحدرتا من عيني سالمة نخمل ذلك منها محمل التأثر العام من مثل ذلك الحديث ولو كان السامع غريباً

أما سالمة فجاشت في خاطرها امور قضت بضع عشرة سنة في الصبر على كتمانها وكادت تحدثها نفسها بالتصريح لو لم يغلب عليها التعقل والصبر فامسكت نفسها وعادت الى استتمام حديث رودريك فقالت « ان حديثك غريب وقد أزعجني . فاخبرني عما تم لك بعد ذهابكم الى الشام وكيف وصلت الى بلاد البلغار »

فقال « اظنك سمعت بمسير العرب لفتح القسطنطينية منذ بضعة عشر عاماً . واني لاستغرب الان بعدما شاهدت تلك المدينة وعرفت حصونها وقلاعها كيف اقدم العرب على فتحها »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « ان الغرض من الذهاب لفتحها الوصول الى هذه الارض من ذلك الطريق فيلتقي فاتحو القسطنطينية بفاتحي الاندلس هنا ويتم للمسلمين فتح هذه الارض الكبيرة وفي فتحها يتم للعرب امتلاك العالم كله . ألا تراهم لما أعجزهم فتح القسطنطينية كيف أعادوا الكرة لفتح هذه البلاد من هذا الطريق ؟ »

فتعجب الشاب من سعة أطلاع سالمة على تلك الاحوال وزاد استئناساً بها فاتم حديثه قائلاً « اقص عليك خبري ليس كما ادركته حين حدوثه لاني كنت طفلاً ولكنني اقصه كما نفهمته بعد ذلك . فاعلمي اننا وصلنا الشام فلم نجد الخليفة فيها ولم اكن أعرف اسمه »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « هو سليمان بن عبد الملك الرجل الاعرج الاكول الذي اكل سبعين رمانة وجدياً وست دجاجات في اكلة واحدة وختم الطعام بارطال من الزبيب [1] وقد كان الاولى به أن يقيم نفسه خليفة على المطابخ وليس على الناس فيقتل الامراء ويسفك الدماء . . » قالت ذلك وهي لا تتمالك

(١) ابو الفداء ج ٢

عن اظهار الغضب

أما رودريك فعاد الى حديثه وهو يختصر خوفاً من أن يداهمه الطلب قبل الفراغ منه فقال « فسألنا عن الخليفة فقالوا انه خرج بحملة من الرجال الى قنسرين واعدَّ جيشاً كبيراً ليسير الى القسطنطية بقيادة أخيه مسلمة وكان الناس عالقي الامال بذلك الفتح والكل واثقين بالفوز ولا ادري ما الذي اوجب ذلك الوثوق . . »

فقالت « سبب ذلك الوثوق اعتزاز العرب بما فتحوه من الممالك واعتقادهم ان العالم سيكون كله لهم وقد ساعدهم على ذلك وثوقهم بمسلمة لانه من كبار القواد وقد تمت فتوح كثيرة على يده . . »

الفصل الخمسون

حصار القسطنطينية

فقال رودريك « وكان والدي من اكثر الناس ثقة بذلك فلما دعوه الى مرافقة تلك الحملة لم يرضَ الا أن يأخذ والدتي ويأخذني معه لاعتقاده انهم فاتحونَ القسطنطينية وانه باق هناك او في ما وراءها من البلاد . وكان والدي من المقربين الى مسلمة لانه كان يعرف اللسان اليوناني وقد تعلمه في بعض أسفاره الى بلاد الروم وهو شاب . فكان مسلمة اذا نزلت الحملة انزلنا في فسطاطه ونزلتُ انا ووالدتي في خباءِ نسائه ، وكانت تلك الحملة الهائلة حملتين واحدة برية وأخرى بحرية . وكان عدد جند البر الذي نحن فيه ١٢٥٠٠ مقاتل وفيهم العرب والفرس وغيرهما واكثرهم ركوب على الافراس او الجمال . وكانت الحملة البحرية على ما بلغني بعد ذلك عبارة عن ١٨٠٠ سفينة استقدمها مسلمة من سواحل مصر والشام والاندلس وفيها المؤونة والذخيرة . فمشى الجند البري كأنه غابة من الناس والدواب . فمررنا بتيانة وعمورية وبرغاموس ففتحوها وسلم من كان فيها من الروم أو فروا واستولى المسلمون على اسلابهم وأموالهم . وكانت تلك الحملة تزداد ثقة وتتسع آمال رجالها كلما تقدمت لانهم

لم يمروا ببلد الا فتحوهُ ونهبوهُ حتى وصلنا الى حدود آسيا (١) من جهة خليج القسطنطينية وهو الفاصل بيننا وبينها . وكانت الحملة البحرية قد وصلت الى هناك فاستخدمنا بعض سفنها في نقل الرجال والاحمال من بر آسيا الى بر القسطنطينية عند مكان يسمونه « ابيدوس » وهي أول مرة قطع جند المسلمين به ذلك الخليج (٢) على اننا قاسينا في ذلك السبيل مشقة كبرى وكدت اغرق مع والدتي ولكن العناية أرادت بقائي لزيادة شقائي . . »

فقالت سالمة بصوت منخفض « لا بل أرادت العناية ببقائك خيراً يتم على يدك لاناس انت تحبهم » فظل رودريك في اتمام الحديث فقال « وبعد أن قطعنا ذلك الخليج بافراسنا وجمالنا وأحمالنا نزلنا البر ودرنا حتى اقبلنا على القسطنطينية من جهة الغرب فعسكرنا هناك في سهل واسع وحفرنا حولنا خندقاً وبنينا سوراً من التراب ومكثنا للحصار ونحن في شبه مدينة كبيرة فيها كل ما نحتاج اليه من المؤن والذخائر . وهذه أول مرة اشرفتُ بها على تلك المدينة الهائلة وكنت بالنظر الى صغر سني لا أفقه معنى العظمة ومع ذلك فقد هالني علو أسوارها وما على تلك الاسوار من عدد الحرب — علمت ذلك مما كانوا يرشقوننا به فيما بعد من النبال والحجارة بالمجانيق . وهناك شاهدت أهوال الحرب لاول مرة . فقد كنت أصعد الى سورنا حتى أشرف على اسوار المدينة فارى النبال مغروسة في جدار سورنا مثل ريش القنفذ وبعضها ملقى في السهل بيننا وبينهم حتى كثيراً ما كنت وانا العب امام خيمة مسلمة أرى النبال تتساقط حولي فالتقطها ولم تكن تهمني وكنت لا أزال أحسب الحرب لعبة حتى شاهدت ذات يوم امراً لم أجسر بعده على الخروج من خباء والدتي :

« وذلك انني صعدت مرة على سور معسكرنا لاتفرج كالعادة فرأيت شيئاً تطاير عن سور القسطنطينية نحونا أشبه بشعلة متقدة كأنها كوكب مذنب حتى وقعت خارج السور فتبعثرت وأشعلت مسافة كبيرة من العشب اليابس هناك وتطايرت منها رائحة حادة . فذعرت وأسرعت الى والدتي وانا في تلك الحال واستخبرتها فاخبرتني انهم كثيراً ما يطلقون هذه النار فتحرق ما تصيبه

(١) المراد بآسيا في الاصطلاح القديم اسيا الصغرى (٢) جبن ج ٢

فلم أعد أجسر على الاقتراب من السور. ثم علمت بعد ذلك أنها ما يسمونه « النار اليونانية » وأظنهم غلبونا بتلك النار . . . لانهم احرقوا بها اسطولنا من جهة البحر . والاسطول المذكور كانت الريح قد ساعدته حتى دخل الخليج الى مقابل المدينة من جهة الشرق وكان لوصوله تأثير شديد على قلوب الروم. وقد اخبرني بعد ذلك بعض الذين كانوا داخل المدينة في اثناء الحصار انهم كانوا اذا أطلوا على البحر رأوا اسطولنا كانه غابة اشجارها الاشرعة والسواري لا يقف البصر على آخرها واذا نظروا من جهة البر رأوا معسكرنا كانه بحر أمواجه الناس والدواب وسفنه الخيام والاعلام

« وقد ساعدنا الحظ ان السلسلة التي تعود قياصرة الروم قطع مدخل القسطنطينية بها عند قرن الذهب في مثل هذه الحال كانت محلولة . وتحدث الامراء باغتنام هذه الفرصة والدخول في ذلك الخليج فاشار عليهم بعض العارفين بالتوقف برهة لئلا يكون في الامر دسيسة . ولكنهم مع ذلك اقتربوا من الشاطىء كثيراً فما شعروا الا والاسطول اليوناني يقترب منهم فتهيأوا للدفاع واذا بهؤلاء يطلقون عليهم تلك النار كأنها خارجة من نوافذ جهنم فاحرقت معظم السفن والذين نجوا منها جاؤنا وهم ينادون بالويل والثبور وقد مات منهم كثيرون

« فاصبح أسطولنا بعد ذلك لا نفع منه وتحولت الانظار الى قوة البر . وكان مسلمة يتوقع ان يمل أهل القسطنطينية من طول الحصار وتقل عندهم المؤونة فيضطرون الى التسليم وقد أطمعنا بذلك اننا بعد المحاصرة ببضعة أشهر بعث الروم الى مسلمة يعرضون عليه أن يعطوه على كل رأس ديناراً وينصرف فطمع وأبى الا أن يفتحها عنوة [1] او يسلم أهلها جوعاً . واما نحن فكان مسلمة قد أعد كل ما يلزم للزرع والحصاد فقضينا الشتاء والصيف وزرعنا ورعينا الماشية ونحن نتوقع ملل أهل القسطنطينية فما رأيناهم ملوا وقد حاصرناهم سنة وبعض السنة [2] وعلمت بعد ذلك ان ملك القسطنطينية يومئذ واسمه اناستاسيوس او ارتميوس قبض على أزمة الملك وليس هو من عائلة القياصرة

(١) مختصر الدول (٢) نيسفوروس

ولكنه كان حكيماً عاقلاً فلما عاد اليه سفيره من دمشق بخبر الحرب وقدوم العرب عليه براً وبحراً علم أنّ العرب سيحاصرونه فاعلن أهل القسطنطينية ان كل من لا يستطيع اختزان مؤونة تكفيه ثلاث سنوات فليخرج (١) من المدينة . فاشتغل الناس باختزان الحنطة والحبوب ورمموا الاسوار واستعدوا للدفاع والحصار. ولذلك فقد مللنا نحن قبلهم لاننا كنا نتوقع نجدة من الخليفة في مرج دابق فمات وانقطعت الميرة عنا »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « اتعرف سبب موته ؟ »

قال « كلا »

قالت « لقد مات شهيد الشره . مات من التخمة — وذلك ان أحد نصارى دابق اتاه بزنبيلين مملوئين تيناً وبيضاً فامر من يقشر له البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم اتوه بمخ وسكر فاكله فاتخم ومرض ومات » (٢)

الفصل الحادي والخمسون

البلغاريون

فعاد رودريك الى كلامه وهو يخاف فوات الوقت فقال « ومع وفاة الخليفة فقد كان يمكننا الصبر على الحصار سنة أخرى وقد تعودنا الزرع والفنا الاقليم ولكن جاءنا شتاء قاس لم نستطع معه الزرع ولا العمل فقلت مؤونتنا حتى اكلنا الدواب والجلود وأصول الاشجار والورق . ومما زاد الطنبور نغمة أن ملك القسطنطينية وهو يومئذ لاون لما طال عليه الحصار ورأى العرب مقيمين عمل على مضايقتنا فبعث الى البلغاريين المقيمين على ضفاف الطونة (الدانوب) واستجاشهم للدفاع عن عاصمته بالاموال والهدايا فجاؤا في البر وأحاطوا بمعسكرنا وضيقوا علينا حتى أصبح الرجل منا لا يستطيع الخروج من المعسكر وحده لئلا يصطاده اولئك البرابرة (٣) ونشر لاون منشوراً فرقه في أهل بلده اوهم

(١) جبيان ج ٣ (٢) ابو الفداء ج ٢ (٣) مختصر الدول

الناس فيه ان الافرنج قادمون الى القسطنطينية بالاساطيل الهائلة للدفاع عن النصرانيـة . فلما وصل ذلك الخبر الى مسلمة لم يعد يستطيع صبراً على البقاء فازمع على الانسحاب

« فاستقدم ما بقي من اسطوله وأمر بالاقلاع والتقويض للركوب في البحر والرجوع الى شواطىء آسيا . فجاءت السفن وأخذوا ينقلون اليها الخيام وما بقي من الخيول والجمال وكنت أنا كما اخبرتك مقيماً مع والدتي في الخباء فلما أخذوا في تقويضه اشتغل كل بمهام نفسـه واشتغلت والدتي عني فخرجت لالتقاط بعض النبال المبعثرة هناك فبعدت عن المعسكر وأنا لا أدري والظاهر انهم لم ينتبهوا لي فما شعرت الا واثنان من أولئك البلغاريين انقضوا عليَّ كالذئاب الـكاسرة . فصحت وناديت يا أبتاه يا اماه فما من مجيب . على اني التفت بعد هنيهة نحو معسكر العرب وأنا بين ذارعي أحدهما فرأيت والدتي المسكينة تنظر اليَّ من فوق السور وهي تلطم وجهها وتصيح وتستغيث ثم توارى بي الرجل بين الاشجار فلم أعد ارى أحداً فاخذت في البكاء وهم تارة يهددونني وطوراً يتملقونني »

فلما بلغ رودريك الى هنا لم تمالك سالمة عن ارسال دمعتين تدحرجتا على خديها حتى ضاعتا في اهداب خمارها وهي تنظر الى رودريك والاسف باد في وجهها يخالله الاستغراب ففهم انها فعلت ذلك لتأثرها من حكايتـه فهم باتمام حديثه فاذا هي قد قطعت حديثه قائلة «هل علمت ما أصاب والدتك ووالدك»

قال «كلا يا مولاتي لاني لم اعد أراهما ولا سمعت خبراً عنهما ولا رأيت أحداً أعرفه من ذلك الحين لاني ربيت في بلاد البلغار في أشقى الاحوال أعمل في رعاية الماشية وجمع العيدان والاخشاب للوقود من شدة البرد وكنت أطوف التـلال والاودية مع رفاقي من أولاد البلغار او بعض خدامهم نلتقط ما نعثر عليه من كسر الخشب ونحوها ونأتي بها الى المنازل فاذا اظلم الليل اجتمع أهل المنزل في غرفة قد أوقدوا النار في وسطها من الحطب والعيـدان والاعشاب اليابسة فيصطفون حولها يستدفئون وفيهم الرجال والنساء والاطفال وكلهم أحسن كساءً مني . فقد كان على بعضهم اردية من الفرو أو الصوف وأنا لا أزال كما

جاؤا بي ليس عليَّ الا رداء وقميص ولولا اشفاق ربة ذلك المنزل عليَّ لمت من شدة البرد فانها نفحتني ببقية خمار مبطن بالجلد كان لبعض اولادها نخمرتني به وأعطتني شبه جبة من جلد الماعز كانت لزوجها وقد تهرأت فلبستها فغطتني الى أسفل قدميَّ فارتدت اليَّ روحي . ولا أظنهم فعلوا ذلك شفقة وانما ساءهم أن اموت فيخسروا ما كانوا يطمعون به من ثمني »

الفصل الثاني والخمسون

سوق الرقيق

فقضيت في ذلك بضعة أعوام وقد تعلمت اللسان البلغاري وتعودت عاداتهم في الطعام والشراب والصلاة ونحوها ونسيت لسان امي ودياناتها . فلما بلغت الثانية عشرة حملوني في جملة احداث كانوا قد جمعوهم من أعالي بلاد الصقالبة وساقوهم وفيهم الذكور والاناث ولا كساء عليهم غير الجلود وشعورهم مسترسلة كأنهم كانوا يقتاتون على نبات البرية ويعاشرون حيواناتها . فجمعونا معاً وشدوا ايدينا بعضها ببعض بامراس وساقونا فمشينا بضعة أيام على تلك الحال ونحن نساق كالانعام حتى أتينا الى بقعة رأينا فيها ازدحاماً من كثرة الناس والخيول والماشية والاحمال فسألنا عن المكان فقالوا انه سوق عمومية يجتمع اليها الناس من أقاصي البلاد للبيع والشراء او للمبادلة او المقايضة . وساقونا جميعاً الى شبه زريبة حولها سور بعضه من الخشب وبعضه من الاحجار وأقفلوا بابه علينا بعد ان حلوا ايدينا من الامراس . وعندوصولي الى السوق نسيت متاعبي ومصائبي لاشتغال خاطري بما شاهدته هناك من اصناف الناس وأشكال السلع على غير المألوف عندي . وكنا قد وصلنا الى ذلك المكان قبيل الغروب فبتنا في الظلام والبرد وانا لا اكلم أحداً من رفاقي لاني لا أعرف لسانهم ولا هم يعرفون لساني . ولما أصبح الصباح واشرقت الشمس نسينا البرد ثم رأينا الناس يتبايعون ويتقايضون ونحن نتوقع ساعة بيعنا . واذا برجلين أحدهما طويل القامة جداً والآخر قصيرها وقد ترديا بالجبب المبطنة بالفرو الثخين وتلثما بخمارين من

صوف وبرزت لحيتاهما من بين جناحي الخمار واحمرت عيناهما من كثرة الدفء او من شرب الخمر دخلا الزريبة وأصحابنا البلغاريون يسيرون أمامهما باحترام وفي أثرهما جماعة من الخدم

« فلما دخلا ظل احدهما الطويل واقفاً مع اصحابنا وتقدم القصير الينا وجعل يتفحصنا واحداً واحداً وينتقي من يقع عليه اختياره منا حتى اذا وصل اليّ تفرس في وجهي وتكلم بلسان لا افهمه اظنه قوطياً او عبرانياً لاني علمت بعد ذلك ان الرجل من تجار اليهود . فمد يده فامسك بيدي وجذبني نحوه وامرني ففتحت فمي فتفحص أسناني وحنكي وجس كتفي وهزهما ونظر في عينيَّ وأذنيّ ويديَّ ورجليّ ثم اشار اليَّ فانضممت الى المختارين . وبعد الفراغ من الانتقاء تساوموا فلما تمت صفقة البيع ساقنا اصحابنا الجدد الى زريبتهم بعد ان دفعوا الثمن واظنه بخساً جداً ثم فرقوا فينا خبزاً يابساً والبسونا اكسية ثخينة من الخيش والجلد بشكل واحد وقصوا شعورنا واصلحوا من شأننا بعض الشيء فسررت للشبع والدفء

« وحملنا اولئك التجار بعد ايام على الدواب مناوبة ونحن نحو المئة حتى اتوا بنا بلاد الافرنج فانزلونا في خان حبسونا فيه اياماً ثم افردوا جماعة منا انتقوهم من بيننا لصغر سنهم وجمالهم وارسلوهم الى مكان يخصون فيه الصبيان . وبلغني بعد ذلك انهم اغضوا عني لاني كبرت على تلك العملية ... »

ولما وصل بكلامه الى هنا سمعوا صوت النفير يدعو الجند الى الاجتماع فقال « اظنني اطلت الشرح فاقول بالاختصار اني انتقلت بالبيع الى بعض الاعيان من الافرنج ثم بالمقايضة الى الدوق اود . وكنت في اثناء اقامتي في هذه البلاد قد سمعت بقدوم العرب لفتحها وكانت تحدثني نفسي بالفرار اليهم لابحث عن والديَّ لاني لم اعد اسمع عنهما شيئاً منذ خطفت منهما بالقسطنطينية . وكنت قد ازمعت اذا كان معسكرنا بقرب معسكر العرب ان افر اليهم فلم اتمكن من ذلك لاسباب يطول شرحها فها قد قصصت عليك خبري »

قالت « لقد سرني صدق فراستي فيك فانت الآن عربي وانا مستهلكة في سبيل العرب ولا يسمح لنا الوقت الآن بالتفصيل فلنترك ذلك لفرصة أخرى وعندي امور تتعلق بوالديك وجديك سأقصها عليك . اما الآن فامض في عملك واجتهد اذا حملتموني معكم في هذا السفر ان اكون في عهدتك لنتخابر بشأن النجاة . . »

قال « سمعاً وطاعة » وتحول من الغرفة واغلق الباب وراءه . فاذا هو يكاد يعثر برجل عليه لباس مخالف لزي الجند كان قاعداً القرفصاء في الدهليز بقرب الباب وقد ادار كوعه حول ركبته ودفن رأسه في حجره . فلما رآه رودريك اجفل وخاف ان يكون قد سمع ما دار بينه وبين سالمة فرفسه برجله كانه يوقظه من النوم فلم يتحرك فرفسه ثانية وهزه فتظاهر بالكسل الشديد ورفع رأسه وتثاءب وتمطى وجعل يفرك عينيه ويتلفت حوله كانه افاق من سبات عميق . فارتاح بال رودريك من قبله لتوهمه انه كان نائماً هناك من كسل او تعب فانتهره وامره ان ينصرف فتظاهر بالخوف ووقف مسرعاً وخرج يهرول

الفصل الثالث والعشرون

موكب اود

اما سالمة فانها فرحت برودريك واستبشرت بالنجاة على يده لما ظهر لها من ثقة الدوق اود به فاذا كان هو خفيرها في ذلك المعسكر هانت النجاة عليهما فتذهب الى معسكر العرب وتخبر عبد الرحمن بما علمته من استنجاد اود لشارل (قارله) لئلا يخدع بقلة جند الافرنج فيأتيه شارل على غرة فيغلبه واذا غلب العرب هناك في وقعة واحدة حبطت مساعيهم كلها . ثم تذكرت حساناً وكيف تركته في الدير وتمنت ان يكون في خير وعافية وان يبقى في قيد الحياة حتى يرى رودريك ويعرف من هو لامر يهمه — وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة فوقفت سالمة الى النافذة تتشاغل بما يبدو من اهتمام الجند بالتقويض والتحميل ريثما يأتيها النبأ بشأنها لترى الى اين مصيرها — قضت ساعة وهي

في تلك الحال حتى رأت موكب الدوق اود وحوله الفرسان على افراس سرجوها مفضضة وعليهم الالبسة البراقة بالالوان الباهرة كالازرق والارجواني . والدوق اود في الوسط على فرس من جياد الخيل وعلى رأسه قبعة مرصعة تتلألأ حجارتها باشعة الشمس كأنها مصابيح . وعلى كتفيه طيلسان او رداء سنجابي اللون كالطيلسان مزركش بالقصب الى اردانه . وفي عنقه قلادة من الذهب يتدلى منها على صدره صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة من الالماس والياقوت . ونظرت سالمة الى سرج الجواد ولجامه فاذا هما ايضاً مرصعان والجواد تحته يتلاعب كانه يرقص تيهاً وهو اكثر تيهاً من فارسه الدوق . وكان الدوق قد اصلح من شأنه ولكن الاضطراب ما زال بادياً من خلال تلك العظمة . وربما كان السبب في ذلك ندمه على استنجاده عدوه شارل على العرب . ولعلك لو اطلعت على باطن سره لشدة ندمه يفضل ان لايجيب شارل دعوته او يحدث ما يثنيه عن عزمه فيبقى هو وحده امام العرب فاما ان يغلبهم فيبقى سيد اكيتانيا وحده او اذا خاف ان يغلبوه صالحهم فيملكوه ارضه تحت حمايتهم . واما شارل فاذا تم النصر على يده لا يقنعه غير السيادة على الافرنج كافة ويصبح هو نسياً منسياً اذا لم يقتله بعض المتزلفين لشارل . ونظنه لو تحقق بقاء حاله مع الافرنج مثلها مع العرب لفضل العرب على الافرنج لما في فطرة البشر من التحاسد بين الاقرباء اكثر مما بين الغرباء . فالانسان اذا ترك لفطرته وخيرته ان يذل نفسه لبعض ذوي قرابته او لاحد الغرباء لفضل الخضوع للغريب . ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء اسهل قياداً واقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم اناس من ابناء جلدتهم لذهاب الهيبة بين ابناء الاب الواحد لانهم يتعارفون وهم صغار ومن يعرفك صغيراً لا يحترمك كبيراً . وبهذه القاعدة نستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها كاصل الفراعنة الاولين مثلاً فالمؤرخون مختلفون في هل هم مصريون أو دخلاء . ونظراً لما نعلمه من استعبادهم اهل البلاد الاصليين نرجح انهم غرباء فاتحون للاسباب التي قدمناها. اهيك بالتحاسد بين الرئيس والمرؤوس في ابناء الوطن الواحد ويشتد الحسد

بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارها على نيلها أو تشابهت أسبابهما اليها . ولذلك كان التحاسد على اشده بين اصحاب المهنة الواحدة

فلا غرو بعد ذلك اذا تخيلنا في اود الندم على استنجاد شارل — على انه لما اقترب بموكبه من نافذة سالمة التفت نحوها فوقع نظره عليها فرنا اليها قليلا ولم يبد اشارة . ثم توارى الموكب عن سالمة ورأت الجنود تسير على الاقدام في أثره جماعات بحسب قبائلهم وبينهم الامراء والقواد والادراع والخوذ على الافراس وبين يديهم حملة الاعلام وهي كثيرة الاشكال والالوان على بعضها رسم الصليب وعلى البعض الآخر صورة العذراء تحمل طفلها أو صور ملائكة أو طيور او غيرذلك من الشارات المسيحية او الرومانية . وكانت جوقةالموسيقى قد مشت بين يدي الدوق صامتةفلما تمَّ تحرك الجند سمعت سالمة قرع الطبول والصنوج والابواق ونحوها فتحركت عواطفها وتصورت قرب انتشاب الحرب بين العرب والافرنج بعد وصول النجدة لهؤلاءفكيف تكون العاقبة لو قدرت الغلبة للافرنج وعاد العرب مدحورين فاذا تصورت ذلك اقشعر بدنها وصعد الدم الى وجهها

فلما سار الجند وكاد يتوارى عن بصرها ولم يبق في ذاك العسكر الا شرذمات قليلة من الخدم والاعوان ورأت نفسها لا تزال منفردة ولم يأت رودريك اليها بطعام ولا كلام اشتغل بالها وأوجست من تأخره شراً فتحولت عن النافذة نحو الباب لعلها ترى أحداً قادماً فاذا هي تسمع وقع أقدام بلاخفق نعال ومشية غير مشية رودريك . فقالت في نفسها من عساه أن يكون القادم . وما تم أن فتح الباب ودخل منه رجل بلباس أشبه بالبسة العرب وحالما وقع بصرها عليه رأت فيه شبهاً بالرسول الذي جاء بالكتاب الى اود وهي عنده فاستعاذت بالله وخافت ذلك القدوم ولكنها تجلدت وثبتت جأشها وابتدرت الرجل قائلة « ما الذي تريده ؟ »

الفصل الرابع والخمسون

الاحوَل

فنظر اليها وعيناه تتباعدان من شدة الحوَل وتتراقصان وقال « لا أريد شيئاً ولكن حضرة الدوق أمرني أن أكون في خدمتك » قال ذلك وهو يصلح رداءه على كتفيه وقد بان السيف من تحته

فلما رأت سالمة حوَله عرفته فانقبضت نفسها وخافت سوء العاقبة لعلمها انه من أكبر جواسيس ميمونة واعتقدت ان كل ما نالها من الشر انما كان على يده . ولكنها لم تكن تجسر على التصريح بذلك . فلم ترَ خيراً من التجاهل والتجلد فقالت « بورك فيك . . . ألعلك من أهل هذا المعسكر ؟ »

فابتسم كأنه يهزأ من جهلها وقال «لا . . ولكني من معسكر آخر . . .» وضحك ثم قال « هل تحتاجين الى خدمة أقدمها لك »

فظلت سالمة على تجاهلها ولم تكترث بما بدا منه فقالت « لا غنى لي عن خدمتك ولكن اين هو الشاب الذي كان يخدمني قبلك . . »

قال وهو يقلب شفته السفلى استخفافاً « لا أدري . ولعله سار بمهمة الى طليطلة او بلغاريا . . . او ربما اشتد حنينه الى اجداده فطار اليهم . . »

فلما سمعت تعريضه بما دار بينها وبين رودريك سراً خفق قلبها وكادت تظهر البغتة في وجهها فبالغت في التجاهل وقالت « اني اشكرك . لا احتاج الى شيء الآن » وأرادت أن ينصرف لتخلو بنفسها وتفكر في امرها

فقال لها « ألا تحتاجين الى شيء ابداً مطلقاً ؟ . . ألا تتوق نفسك الى احد في بوردو او في نهر لوار . . . »

ففهمت انه يسخر بها وانه مطلع على اسرارها ولو أجابته لسمعت من هزئه ما يؤلمها فتحولت عنه وهي تتظاهر بالسذاجة وقالت « لا . . . لا احتاج الى شيء . . . »

فقال « اذا كنت لا تحتاجين الى شيء فانا احتاج الى أشياء »

فالتفتت اليه لتستطلع غرضه فاذا هو يضحك ويستخف بها ثم قال « اني أحتاج الى حضرتك . . »

فأقطبت حاجبيها وبدا الغضب في وجهها وغلبت عليها الانفة وعزة النفس وقالت « وما هي حاجتك يا غلام . . ؟ »

قال وقد هاب منظرها « لا تغضبي يا مولاتي اني اطالبك بما امرني به حضرة الدوق . . »

قالت « وما هو ؟ »

قال « ان تتأهبي للمسير في اثر هذه الحملة فننزل حيث ينزلون »

ففهمت من صيغة الجمع في كلامه انه سائر معها فقالت « وهل نسير الان؟ »

قال « نعم في هذه الساعة وقد أعددنا لك فرساً تركبينه . . »

قالت « اني مستعدة اذ ليس عندي اثاث احمله معي »

قال « فتفضلي اذاً . . » قال ذلك واشار بيديه نحو الباب

قالت « اخرج وأنا خارجة في اثرك » فخرج

فالتفت بردائها فوق الخمار وتفقدت المحفظة وسائر ما معها وخرجت الى الدهليز ومنه الى الباحة حتى اطلت على صحن الدار فرأت هناك فرساً مسرجاً وحوله فرسان مدججون بالسلاح وفي ايديهم الحراب وعليهم الادراع كأنهم يخفرون عشرين سجيناً متمردين . فلم تعبأ سالمة بهذا المنظر فتقدمت الى فرسها فركبته وساقته فمشى الفرسان حولها في شبه الحلقة . وركب الاحول حماراً كان هناك وسار في أثرهم

سارت سالمة في ذلك الموكب وهي غارقة في بحار الهواجس تفكر في ما داهمها على غير انتظار بعد ان كادت تنجو من الخطر . وفكرت في رودريك فغلب على ظنها أنهم حبسوه أو قتلوه وانها صائرة الى مثل ما صار هو اليه ولم يكن الموت ليخيفها لولا خوفها ضياع امور تود انجازها قبل الموت — ومن الناس من تتسلط فيه معرفة الواجب حتى تنسيه حاجيات نفسه فلا يطلب البقاء الا لواجب يقوم به فاذا ادى الواجب أصبح الموت والحياة سيين عنده

قضت برهة في هذه الهواجس حتى تعبت وفرسها سائر بها الى حيث لا تعلم

ولكنها كانت ترى الحملة تارة أمامها وطوراً الى جانبهـا فعلمت انها تابعة لها . وتبينت من مسيرهم نحو الشمال انهم يقصدون تورس على نهر لوار . فلما تذكرت ذلك النهر اختلج قلبها في صـدرها وتصورت ما عليها من العهود والمواثيق المتعلقة بذلك النهر وتذكرت أشياء كثيرة زادتها انقباضاً وتعاظم عليها الامر حتى كادت تبكي ولو بكت لانشرح صدرها

وفي الغروب وصلت الحملة الى سهل حطوا أحمالهم فيه للمبيت موقتاً وفي الصباح نهضوا لمواصلة السير وسالمة لا يخاطبها أحد في شيء غير ما لا بد منه مما يتعلق بالطعام او نحوه — وكانت في اثناء الطريق تتأمل في ما يقع عليه بصرها من الدروب أو التلال او نحوها وتتفهم ما يدور بين الجند من الحديث لعلها تطلع على خبر جنـد العرب وأين هم . وكانت تتصفح الطريق الذي هم سائرون فيه عساها ان ترى أثراً يدل على اجتيازهم ذلك المكان فلم تر شيئـاً يدل على مرورهم . فترجح عندها انهم لم يصلوا الى هنـاك بعد مع انها سمعت بقيامهم من بوردو يطلبون بواتيه فنهر لوار . وكانت على يقين انهم لا يلقون في طريقهم كبير مقاومة لما مهدته لهم . وأما المعركة الكبرى فستكون على ذلك النهر — فمن غلب هناك ملك

الفصل الخامس والخمسون

تورس

وباتوا تلك الليلة ايضاً في الطريق واصبحوا مسافرين يجـدون السير . وقضوا يوماً رابعاً على هذه الصورة وهم تارة ينحدرون في واد واونة يصعدون على جبل وحيناً يمرون في سهل حتى وصلوا في اصيـل اليوم الرابع الى نهر صغير يقال له نهر شير تحف به التلال من الضفتين فضلا عن الغياض والبساتين فقطعوا النهر من ضفة اليسرى الى اليمنى ثم صعـدوا على اكمات اطلوا منها على سهل واسع ينتهي بمدينـة تورس الـكبرى ووراءها نهر لوار لانها واقعة

على ضفته اليسرى . وكان الليـل قد سدل نقابه فلم تشاهد سالمة شيئاً لبعد المدينة عنهم

بعد مسير بضعة اميال من شير اختاروا مكاناً عسكروا فيه على نية الاقامة هناك فعلمت سالمة انهم قد حطوا عصا التسيار فلبثت تنتظر ما يفعلونه بها فاذا هي بالاحول المعهود قد جاء ومعه بعض الخدم نصبوا خيمة خصوصيـة على مقربة من فسطاط الدوق اود ـ علمت ذلك من شكل الفسطاط بما فيـه من دلائل البذخ والقصف فلم يهمها الامر وقد كادت تيأس . فقضوا معظم ذلك الليل في نصب الخيم واعداد اسباب الاقامة

اما سالمة فانها دخلت خيمتها فرأت الخادم قد احضر لها الطعام فتناولتـه والتمست الراحة فنامت وهي تفكر في رودريك لانها لم تشاهده في اثناء الطريق ولا سمعت عنه شيئاً ولم تكن تجسر على ذكر اسمه خوفاً من زيادة الشبهة عليه

وافاقت في صباح اليوم التالي على صوت البوق بما لم تعهده من قبـل فنهضت واستفهمت الرجل الموكل بحراستها عن السبب فقال لها « ان الدوق يدعو الجند الى الاجتماع في الساحة الكبرى امام فسطاطه للصلاة قـداساً كاملاً على اسم القديس مرتين حامي حمى الافرنج لانه مدفون في هـذه الجهات وقبره حج للنصارى من انحاء اكيتانيا واوستراسيا »

وكانت سالمة تعرف أن القديس مرتين المذكور كان رسول النصرانية الى الغاليين في القرن الرابع للميلاد وكان اسقفاً في تورس ولما توفي دفنوه في ضاحية من ضواحيها وبنوا بجانب قبره كنيسة وديراً واصبح المكان محلة تعرف باسمه وصاروا يحجون اليه وينسبون له المعجزات

فلما رأت سالمة اجتماع الجند وكهنتهم في تلك الساحة للصلاة وقفت بباب خيمتها لتشاركهم في صلواتهم فاذا بالدوق قد خرج من فسطاطه في حاشيتـه واعوانه وكلهم بالملابس الرسمية وقد تقدمهم القسوس بالثياب الكهنوتية وبايديهم الصلبان وهم يترنمون وامامهم بعض الشمامسة يحملون صليباً على عصا طويلة حتى وقفوا في تلك الساحة على شبـه منبر ووجوههم مولاة نحو كنيسة القديس مرتين عن بعد والجند وقوف . فاقاموا قداساً طويلاً وكانت القلوب متخشعة

وملئها الآمال بالنصر على الاعداء ببركة تلك الصلاة

ـ ومن غرائب مطامع البشر وضعف طبيعتهم انهم يسنون الشرائع بتحريم القتل ويشددون النكير على القاتلين ثم يرفعون اكف الضراعة الى موحي تلك الشرائع ان يساعدهم على قتل ابناء جلدتهم وهم مع ذلك يتوقعون اجابة سؤلهم لاعتقادهم انهم انما يلتمسون نصرة الحق وتأييد الصحيح . وكل طائفة تعتقد ذلك وتفعله . ولو عقلوا وادركوا معنى التدين لطلبوا حجب الدماء وتكاتفوا على حفظ السلام . ولكنهم لا يفعلون ذلك كانهم ادركوا بالسليقة ان الحرب ضرورية للبقاء وانهم لو لم يقتلوا بعضهم بعضاً لقتلهم الجوع او الوباء لان الارض اذا مضى عليها بضعة قرون ولم تحدث فيها الحرب ضاقت بساكنيها . وقد قدروا عدد الذين قتلوا بالحروب من اول عهد التاريخ الى الآن بخمسة اضعاف سكان البسيطة كلها غير ما يترتب على بقائها من التكاثر بالتناسل المتضاعف

ومهما يكن من الامر فالحرب باقية ما بقي حب الذات وهو باق ما بقي الانسان وبناء على هذا الاعتقاد سعى بعض رجال التمدن الحديث في تخفيف ويلات الحرب مقابلة لما اخترعوه من آلات الدمار التي لم تكن في عهد التمدن القديم

وكانت سالمة لما سمعت اصوات المرتلين وشمت رائحة البخور قد تخشعت واستغرقت في الافكار وتذكرت تاريخ حياتها وما مرَّ بها من الاهوال . ولم يقف فكرها الا عند عبد الرحمن اذ تذكرت ابنتها مريم وكيف خلفتها هناك وماذا عسى ان يكون من امرها بعد انتقال العرب في طريقهم الى تورس . وتذكرت ميمونة فاختلج قلبها لذكراها خوفاً على مريم من حبائلها لما تحققته من امرها واصبحت شديدة الرغبة في اطلاع العرب على ما عرفته عنها واذا استطاعت ذلك فانها تنقذهم من مكائدها . ولما بلغت بها تصوراتها الى هذا الحد تذكرت حساناً لانه لو كان معها لانفذته في هذه المهمة ـ فاستغرقت في هذه الهواجس مدة والناس يضجون بالصلاة والقسوس يرفعون اصواتهم

بالترتيل ووجوههم متجهة نحو دير القديس مرتين

وكانت سالمة وهي واقفة لسماع القداس لا تتمالك عن ارسال بصرها الى اطراف ذلك المعسكر وما وراءه من السهول الى نهر لوار ومدينة تورس على ضفته وبازائها محلة دير القديس مرتين على انها لم تكن ترى من تلك الاماكن الا رؤوس الابنية الشامخة لبعد المسافة

وفيما هي تسرح بصرها على تلك الصورة رأت الى يسار المعسكر شبحين ظهرا من وراء الافق عن بعد . فاطل اولاً رأساهما ثم تبين بدناهما بالتدريج فاذا هما فارسان . فظل بصرها عالقاً بهما وشعرت برغبة في استطلاع حالهما ثم ما لبثت ان رأت عليهما لباس الرهبان الاسود وعلى رأسيهما القبعة . فقلت رغبتها في الاطلاع لكثرة الرهبان في تلك الاصقاع وكثرة ترداده الى المدن لابتياع حاجيات الاديار . وبعد قليل رأت الراهبين قد اختلطا بالجند ووقفا معهم للصلاة فحولت وجهها عنهما وعادت الى هواجسها فتذكرت الشاب رودريك وودت لو أنها تجتمع به هناك ولو لم يكن من ذلك الاجتماع فائدة لها ولكنها قد استأنست به

الفصل السادس والخمسون

طارقان

ثم سمعت دق الاجراس مؤذنة بالفراغ من الصلاة وتفرق الجند الى مضاربهم وعاد اود الى فسطاطه وحوله الحاشية والاعوان ودخلت سالمة خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال اود بالحراب يحرسونها ولكنها لم تر الاحول بينهم ولا رأته من ذلك الصباح . قضت بقية ذلك اليوم في الخيمة وقلبها يحدثها بامر سيحدث ويكون فيه الفرج لها وان كانت لا ترى باعثاً على هذا الامل بل هي ترى كل ما حولها ينذرها بضد ذلك ــ ولكن في صواحب الاحساس الدقيق من النساء نوعاً من الشعور لا يعبر عنه بغير الالهام فيه من الغرابة بالنظر الى الرجل . فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه وتنذر رجلها به . ولو

طالبها بالدليل لاسكتتها لانها لا تتكلم عن اقتناع بالبرهان ولكنها تشعر فتقول ما تشعر به ويغلب صدقها فيه لاسباب لا تزال مجهولة . وأما الرجل فانه لا يرتأي الا ما يرشده اليه عقله بالقياس والبرهان - فلما أحست سالمة بتلك الآمال انبسطت نفسها ولكنها كانت لتعقلها تحمل ذلك الشعور محمل الوهم لأنها ترى المصائب محدقة بها من كل ناحية

ولما أمسى المساء جلست على بساط مفروش في خيمتها وهي تشعر بارتباك وتردد فعمدت الى الصلاة لانها كانت قدتأثرت من قداس ذلك الصباح ورأت في الصلاة راحة . وبعد الصلاة توسدت وليس في خيمتها مصباح . وهي لم تطلب الرقاد نعاساً ولكنها ملت الاحتباس ومن يظلم بصره تستنره بصيرته فاستغرقت في الافكار ولم يكن يعترض مجاري افكارها غير ضجيج الخدم في ذهابهم وايابهم وصوت النفير أحياناً – وبينما هي كذلك سمعت حديثاً قريباً من خيمتها فانهضت رأسها والتفتت فرأت بصيص نور يتراءى في الخارج وراء جدار الخيمة وسمعت لغطاً لم تستطع فهمه فجلست وأصاخت بسمعها فانجلى لها الصوت فسمعت الحديث الآتي بلغة البلاد :

— لا أظنك تقدر على منعي

— بل أنا قادر حتى يأمرني الدوق بما يريد

— وما في هذه المسألة ما يستدعي مشورة الدوق

— بل لا بد من مشورته لان لهذه السجينة شأناً خصوصياً لا يقاس بشؤون سائر المسجونين وقد أوصانا حضرة الدوق بمنع اي كان عن مقابلتها

— يا للعجب أبلغت منك القحة أن تقف في سبيل الفروض الدينية . . ؟

— لا يهمني . . . وما الذي يضرك لو استأذنت الدوق في ذلك ؟

— لا يضرنا شيئاً ولكنكم تعلمون اننا كرسنا حياتنا لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب واننا نطوف السجون ونعرف المسجونين ونعظهم ونحرضهم على التوبة

— ربما كان ذلك صحيحاً ولكننا غير مأذونين بغير المنع القطعي ومع ذلك فان لنا قيماً لو كان هنا لاغنانا عن مشورة الدوق لانه مفوض من قبله بهذا الشأن

— أين هو ذلك القيم ؟
— لا ندري فقد ذهب في هذا الصباح واكد الوصاية علينا وشدد في منع اي كان من الدخول
— ارسلوا واحداً يستأذن الدوق
— نخشى أن يكون في فراشه فاجلوا المقابلة الى الغد
— الوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل لاننا ذاهبون في صباح الغد الى دير القديس مرتين . . . اذهب فاستأذن الدوق ولا تطل الجدال . . . اني لم الاق مثل هذا الوقح في طول عمري . . . واذا لم يعجبك الذهاب فاني داخل الخيمة رغم ارادتك وستلاقي جزاء وقاحتك في الغد
— (صوت آخر) لا تغضب يا حضرة الاب ان رفيقي شاب لا يعرف حقوق السادة الرهبان والقسيسين .. تفضلا وادخلا ولا حاجة الى الاستئذان لكننا نطلب اليك ان تذكرنا في صلاتك
— بورك فيك يا ابني هكذا يكون ابناء الخلاص . . . ولكنني أرغب اليكم ان تتباعدوا قليلاً عن جوانب الخيمة لئلا يصل اليكم حديث الاعتراف ولا يخفى عليكم ان الاعتراف سر من الاسرار المقدسة
— طبعاً لا . . لا شك في ذلك . . . تفضل وادخل ونحن متباعدون ولكن أرجو من قدسك أن تختصر بقدر الامكان لئلا يبلغ الامر الى حضرة الدوق فيلومنا على ادخالكم بدون اذنه

وكانت سالمة تسمع ذلك وقلبها يخفق خفقاناً متسارعاً لدهشتها واستغرابها وبذلت جهدها في معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه ولكنه اذكرها بالراهب الذي صحبها من الدير الى قرب بواتيه لانه مثل صوته . فلبثت صامتة لترى ما ينتهي اليه الجدال فلما انتهى على تلك الصورة تطاولت بعنقها لترى الداخل واذا هو بيده مصباح على شكل طائر ملتفت نحو الاعلى والنور فتيلة مضيئة بارزة من منقاره وقد امسك الراهب ذلك المصباح باحدى يديه على قبضة في أسفله بشكل الصليب وتوكأ باليد الاخرى على عكازه . فلما رأته سالمة نهضت وتفرست في وجهه فاذا هو ذلك الراهب بعينه فرحبت به وهمت بتقبيل يديه والصليب الذي

هو قابض عليه . وهي تفعل ذلك اذ رأت راهباً آخر دخل وأسرع الى يدها ليقبلها فاجفلت وتراجعت وقد خجلت ولكنها ما لبثت ان تفرست في وجهه حتى عرفت أنه خادمها حسان فبغتت وكادت تنطق باسمه لو لم تتنبه لنفسها وتخاف الفضيحة فتجلدت وأشارت الى الراهب وحسان بالقعود وقعدت هي والدهشة لا تزال بادية في وجهها وهي تتوقع أن تسمع من أحدهما ما يذهب دهشتها

فوضع الراهب المصباح على الارض وقعد وظل حسان واقفاً فاشارت اليه أن يقعد فقعد متأدباً وهو يقول بصوت منخفض «أحمد الله على وصولي اليك يا مولاتي وأرجو ان اكون قد جئتك بالفرج »

فهمت سالمة بالجواب وهي تحاذر ان يبدو منها ما تؤاخذ عليه لعلمها ان رئيس ذلك الدير شديد التعصب للافرنج ويكره العرب فلم تكن تتوقع مجيء ذلك الراهب اليها لنصرتها فقالت «وما الذي جئتني به... أليس حضرة الاب من رهبان الدير الذي بتنا فيه وبقيت أنت هناك جريحاً ؟ »

فاجابها الراهب قائلاً « بلى . . وانا اوصلتك الى بواتيه حتى اخذوك مني فرجعت وأخبرت حضرة الرئيس بما جرى ولولا ذلك لم يكن الاهتداء اليك ممكناً . . . »

فلم يزدها قوله افصاحاً عن المهمة التي هما قادمان بها فالتفتت الى حسان وتفرست في ثوبه فكاد يضحكها ما هو فيه من لباس الرهبان فقالت له «يظهر انك انتظمت في سلك الرهبنة . . »

قال « لبست هذا الثوب يا مولاتي ذريعة للوصول اليك وقد حرضني على ذلك حضرة الرئيس وأنفذ معي حضرة الاب برسالة سيبلغها اليك »

فاشتاقت لمعرفة تلك الرسالة فالتفتت نحو الراهب ولسان حالها يقول « تفضل »

الفصل السابع والخمسون

بشرى

ولما هم الراهب بالكلام تذكرت سالمة ما أصابها في المرة الماضية مع رودريك وكيف اطلع ذلك الاحوَل على حديثهما فتقدمت الى الراهب ان يتمهل وأشارت الى حسان ان يتفقد الحرس وأماكنهم . فاطل من باب الخيمة ومن ثقوب في بعض جوانبها فتحقق بعد الحراس بضعة أمتار عن الخيمة وهم جلوس يتحادثون فعاد وطمأنها وقعد . فاخذ الراهب بالحديث بصوت منخفض وسالمة متطاولة بعنقها وكلها آذان لاستيعاب كلامه فقال :

« لا يخفى على مولاتي اننا معاشر الرهبان وسائر جماعة الاكليروس قد أوقفنا حياتنا لعبادة الله وخدمة بني الانسان لا نبتغي على ذلك أجراً سوى خلاص نفوسنا . ولذلك فقد اكرم الامراء والملوك وفادتنا وساعدونا في مشروعاتنا ونحن أيضاً ساعدناهم في حمل الشعوب على الطاعة . وكثيراً ما كنا سبباً في تنصيبهم وعزلهم فاصبح الرهبان موضع ثقة اولي الامر ومحل احترامهم لا يحلون امراً دونهم ونحن نحافظ على ولائهم ونخدمهم بما في وسعنا . وكان الدوق اود (وخفت صوته) من انصارنا ونحن من انصاره الا في بعض الاحوال ولكننا على الاجمال كنا نغضي عن بعض سقطاته ونحملها منه على الضعف البشري لعلمنا اننا في حال تدعو الى جمع الكلمة في اثناء الحرب . ولو انحرفنا عنه قليلاً واظهرنا استياءنا منه امام الشعب لقضي على دولته من زمان مديد . لان الشعب العالي أهل هذه البلاد الاصليين لا يحبون الافرنج وهم مستعدون لخلع نيرهم عند أول اشارة منا . ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد في حفظ تلك السلطة لهم واظنك لحظت ذلك من رئيسنا المحترم في اثناء حديثك معه . أما الآن فقد ارتكب الدوق اود أمراً دل على ضعفه وجبنه لم يبق لنا معه صبر على هذه الحال ـ اظنك عرفت ذلك الامر »

فاطرقت سالمة واعملت فكرتها في استطلاع ذلك السبب فلم ينتظر

الراهب جوابها فقال « ان الامر الذي اراده الدوق اود اذا وفق اليه فانه يذهب بسلطانه ويضيع كرامتنا ويخرب أديارنا فتضيع الديانة ويصبح الناس فوضى »

فانتبهت سالمة لغرضه فقالت « اظنك تعني استنجاده الدوق شارل صاحب اوستراسيا »

قال « نعم هذا الذي اعنيه لان هذا الدوق من أشد الناس وطأة على رجال الله وقد اذاق اكليروس اوستراسيا مرّ العذاب فقبض على املاك الاديرة وفرقها في جنده واهان الاساقفة وارتكب في ذلك كل معصية . وقد دعاه اود لنصرته فاذا فاز بالعرب اصبحت اكيتانيا هذه في قبضته واصبحت أديرتها عرضة لمطامعه

« وكثيراً ما كان اود يهم باستنجاد شارل ونحن نرجعه ونخوفه على نفسه وعلينا فلما خاف خيول العرب وسيوفها عمد الى استنجاد ذلك الرجل — وقد وقع هذا الخبر وقعاً سيئاً عند اهل هذه البلاد كافة كهنتها وشعبها لعلمهم بما سيترتب على هذا الامر »

وكان الراهب يتكلم وقلب سالمة يطفح سروراً وتذكرت ما كانت تحدثها به نفسها في اثناء ذلك النهار واعتقدت أنها الهمت الصواب وأن الامر ابتدأ ينقلب على الافرنج من تلك الساعة ولكنها ظلت صامتة لتسمع بقية الحديث

ولم يتوقف الراهب عن الكلام الا ريثما سعل ومسح لحيته بمنديله ثم قال « وكان من أشد الناس غضباً لذلك رئيسنا المحترم لانه كان من أكثرهم ولاء لأود ودفاعاً عن مصلحته فلما علم بما ارتكبه أصبح شديد الرغبة في عرقلة مساعيه لاعتقاده أنه اذا نجح في ذلك يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته. والظاهر انه كان قد لحظ من كلامك نصرة العرب أو ربما جاءه كتاب من اسقف بوردو في هذا الشأن — لا ادري . ولكن الذي أعلمه انه بعث اليَّ ذات صباح وسألني عنك مع اني كنت قد انبأته يوم رجوعي بما جرى امام باب بواتيه ولكنه دقق عنك في البحث وسألني عن الرجال الذين اخذوك

مني . فاخبرته انهم من رجال الدوق اود فهزَّ رأسه ومص شفته وأمرني أن استقدم هذا الشيخ وكان قد أخذ في النقه من جرحه ولم اخبره بعد بخبرك لئلا اكدره . فلما امرني الرئيس باستقدامه سرت اليه وقصصت عليه خبرك فتكدر ثم اتيت به الى الرئيس . فلما وقف بين يديه أمرني فاقفلت الباب فسر الينا أمراً كلفني أن ابلغك اياه ولا ريب انه يسرك لانه سيكون طبق الغرض الذي أنت ساعية فيه .. هل اقوله ؟ »

فقالت « أتسألني ؟ قل »

قال « قد اعطاني كتاباً كتبه بخط يده الى رئيس دير القديس مرتين لا أدري فحواه ولكنه بلا شك يتضمن تحريضه على مقاومة شارل وجنده حتى لا يفوزوا على العرب أو لكي لا يحاربوهم لان رئيسنا أصبح يفضل سلطان العرب على سلطان شارل وزمرته لما تحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فنأمن بالاقل على اديرتنا وكرامتنا »

فلم تتمالك سالمة عند سماع تلك العبارة عن الابتسام من شدة الفرح ونسيت كل ما مرَّ بها من المتاعب وتحققت ان كل ما أصابها من الشرور انما كان القصد منه الوصول الى هذا الخيروان ذلك كله حدث بعناية خصوصية من مدبر هذه الكائنات — ذلك هو اعتقاد أهل الايمان من كل الاديان . والانسان من فطرته ميال الى ذلك فيحسب الدنيا وجدت لخدمته وحده فاذا زرع وامطرت السماء قال انها تمطر اكراماً له واذا جفت خفافها نكاية فيه . ولذلك فاذا أصابته مصيبة ولو كان هو الجاني بها على نفسه شكا من فاعل آخر يتتبع خطواته فاذا لم يسمه الخالق سماه الدهر او الزمان — فلما توسمت سالمة قرب نجاح مهمتها ابتسمت وقالت للراهب « وأين الكتاب ؟ »

فمد يده الى كمه واستخرج لفافة دفعها اليها فتناولتها فاذا هي مختومة فوضعتها في جيبها وهي تقول « وما هو السبيل الى دير القديس مرتين وحولي الحراس ساهرون ليلاً ونهاراً ؟ . ألا يقوم بايصال هذا الكتاب أحد بالنيابة عني ؟ . . »

فقال الراهب « لا يستطيع ذلك أحد سواك لانه عبارة عن كتاب توصية

بك وقد ترك اقتناع الرئيس لك ــ وأوصانا رئيسنا حفظه الله أن نبذل الجهد في انقاذك من هذا السجن فما الذي ترينه ؟ »

قالت « لا أدري .. وأظن حضرة الرئيس قال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضييق المحدق بي في هذا السجن وقد شاهدتم ذلك بنفسكم الآن وسمعتم أقوال الحراس فهل ترون لي حيلة . . »

الفصل الثامن والخمسون

شهامة

وكان حسان لا يزال صامتاً الى تلك الساعة فلما رأى حيرتهما قال « عليَّ تدبير هذا الامر . . »

فالتفتا اليه معاً وهما لا يتوقعان منه الاستطاعة على ذلك فاصاخا بسمعهما اليه وقالت سالمة « وما هو التدبير ؟ اذا كان من تدبير فليكن عاجلاً »

قال « عليَّ تدبير ذلك في هذه الساعة »

قالت « وكيف ؟ ... »

فوقف حسان وعمد الى جبة الرهبنة التي كانت عليه فحل حبلها من حول خصره وطوقها من حول عنقه وأخذ في نزعها وهو يقول « عليكِ بهذه الجبة فالبسيها فوق أثوابك واجعلي هذه القبعة على رأسك وهي تقفل من الجانبين فتغطي الوجه واليك هذا العكاز واخرجي مع حضرة الراهب فلا يشك أحد في انكما الراهبان اللذان دخلا الآن ومتى بعدتما عن المعسكر افعلا ما تريانه . . »

فاعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة واستغرب شهامة حسان بحيث فضل أن يلقي بنفسه الى التهلكة فداء عن مولاته ــ أما سالمة فلم تستغرب ذلك ولكنها لم تتمالك عن الثناء على حسان وقالت « لا أستغرب هذه الشهامة يا حسان فقد رأيت منك مثلها مراراً ولكني ضنينة بك لسابق تعبك وقد دنا الوقت الذي

آن لي فيه أن أكافئك على شقائك في خدمتي منذ أعوام عديدة — وخصوصاً الآن فقد كنت راغبة في لقائك لابشرك بامر يسرك كثيراً . . . ولا أقدر أن أخبرك به الا اذا كنا معاً وأخاف اذا افترقنا الآن أن لا نلتقي .. »

فتوقف حسان عن خلع الجبة وتطاول بعنقه وقال « اخبريني عن ذلك الآن قبل ان نفترق . . »

قالت « عندي أمور كثيرة أقصها عليك واستطلع رأيك فيها وسأحتاج اليك في تنفيذ بعض الشؤون . . »

قال « وهل تظنين في بقائي هنا خطراً عليّ .. ؟ كوني في راحة وثقي انكما لا تخرجان من هذا المعسكر حتى الحق بكما . . »

قالت « أظنك اذا اطلعت على ماسأقصه عليك تفضل البقاء هنا بضعة ايام »

فلم يعد حسان يستطيع صبراً عن سماع ذلك الخبر فقال « اخبريني يا مولاتي بما علمت مما يهمني سماعه او مريني بما تريدين ثم تداول قبل ذهابك بما تأمرين »

ثم انتبهت سالمة الى نفسها فرأت الاولى ان تغض النظر عن اطلاع حسان على ما يشغله أو يؤخره في ذلك المعسكر والحالة تدعو الى سرعة انفاذه الى عبد الرحمن لتخبره بما علمته من شأن ميمونة وما في معسكر الافرنج من المعدات وما كان من استنجاد اود لشارل وغير ذلك مما يأول الى نصرة العرب . فلما رأت من حسان القلق على استطلاع الخبر قالت « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك يا حسان واني افضل ان ابقى انا هنا وتذهب انت برسالة انفذها معك الى أمير العرب فان الحالة تدعو الى سرعة الذهاب والا ضاعت الفرصة وذهب سعينا هباءً منثوراً . فاطعني واذهب انت ولا بأس عليّ من البقاء هنا . . »

قال « الامر اليك يا مولاتي ولكنني لا أرى شيئاً ادعى الى العجلة من اطلاق سراحك لمقابلة رئيس دير القديس مرتين وعرقلة مساعي الدوق شارل القادم لنجدة هذا الجند ومتى تم لنا ذلك نذهب بالبشائر الى الامير عبدالرحمن دفعة واحدة »

قالت « ولكن الامر الذي اطلب ابلاغه الى عبد الرحمن الآن أهم كثيراً

من خبر دوق استراسيا . . »

فاستغرب حسان ذلك وقال « وهل اهم من خبر هذا الدوق وهو قادم لنجدة اود بجيش جرار معه العدة والسلاح فضلاً عن اشتهار شارل بالبسالة والقوة ؟ »

قالت « اني انما اخاف على جند العرب من عدو مقيم في قصر اميرهم وهم يحسبونه صديقاً وقد اكتشفت سره في أثناء اقامتي في هـذا الاسر ولم يكن استنجاد شارل الا برأيه . . . فاذا لم نبادر الى كشف سره استفحل امره . . »

الفصل التاسع والخمسون

اول الاسرار

فبغت حسان لذلك وحدق بعينيه وتطاول بعنقه وقال « من هو ذلك العدو يا مولاتي هل تخبرينني . . . قولي الان ولا تخافي من وجود حضرة الراهب معنا فانه صديق لنا مخلص في نصرتنا او تكلمي بالعربية فانه لا يفهمها . . . قولي من هو ذلك العدو »

قالت « هو ميمونة . . . او بالحري تلك المرأة الداهية التي سمت نفسها ميمونة وما هي الا ملعونة . . »

قال « ولم تكن هذه المرأة مجهولة لدينا فقد شاهدناها غير مرة فما الذي عرفته من امرها هنا . . . »

قالت « لم اكن أجهل أمرها منذ رأيتها في معسكرعبدالرحمن للمرة الاولى ولكنني اجلت كشف أمرها ريثما أعود من مهمتي هذه وخفت اذا انا بحت بشأنها ان يجر ذلك الى تصريحها بحقيقة أمري وأنت تعلم اننا لا نريد ذلك الان وان كان اطلاع عبدالرحمن على حقيقتي لا يزيده الا اكراماً لي ولكنني مقيدة بالعهود والمواثيق ان لا أطلع أحداً على شيء قبل عبور هذا النهر (وأشارت الى نهر لوار) ولو علمت ما قد يترتب على سكوتي عنها لما صبرت على كتمان

أمرها وأما الآن فلا بد من كشف سرها لعبد الرحمن على عجل . .»

قال «وما هو شأنها يا مولاتي هل يجوز لي الاطلاع على هذا السر» قال ذلك وجثا بين يدي سالمة وتطاول بعنقه وحملق بعينيه

فقالت « هل أخفي عنك سراً وأنت تعلم انك خزانة اسراري بل أنت الرجل الوحيد المطلع على حقيقة حالي غير الكونت اود صاحب هذا المعسكر فانه عرفني وهددني ثانية ولكنه اشتغل عني او اجل شأني لبعد الحرب لانه مطمئن من قبلي لاعتقاده اني سجينته حتى يشاء — فلا اخفي عنك سراً يا حسان . فاعلم ان المرأة التي يسمونها ميمونه وتعد نفسها من حظايا عبد الرحمن وتتقرب اليه بجمالها ومكرها انما هي لمباجة بنت الدوق اود صاحب هذا الجند..»

فلما سمع حسان قولها بغت ولم يتمالك عن الوقوف وقال وقد بحّ صوته من محاولة تخفيضه مع تهيج عواطفه وبغتته « بنت الدوق اود هذا ؟ . . قائد هذا المعسكر ؟ . . »

قالت « نعم هي بعينها وأظنك تعرفها أنت وقد رأيتها غير مرة وهي مع زوجها المقتول ... ألا تعرف المنيذر الافريقي الذي كان حاكماً في جبال البيرينة بين اسبانيا واكيتانيا ؟ »

قال « نعم أعرفه وبلغني ان الامير عبد الرحمن الغافقي لما قام بجنده لفتح هذه البلاد بلغه ان المنيذر هذا متواطىء مع الافرنج على العرب فسار اليه وبغته وقتله وقبض أمواله ونساءه وبعث بها الى الخليفة في دمشق » (١)

قالت « أتعلم السبب الذي بعثه على مواطأة الافرنج على العرب . . »

قال « كلا »

قالت « ان الدوق اود علم بما بين العرب والبربر من التحاسد لاسباب لا تخفى عليك وبلغه ان المنيذر البربري المذكور صاحب نفوذ كبير في قبائل البربر وانه اذا اكتسب ثقته واسترضاه يكون عوناً كبيراً له على العرب فتخابرا وأفضت المخابرة الى أن يتزوج المنيذر بلمباجة ابنة الدوق اود وقد رضي اود ان يزف ابنته الى هذا البربري على أمل أن تكون وهي عنده قابضة على زمام

---

(١) راجع تفصيل ذلك في اول هذا الكتاب

ارادته تستخدمه في ما تريده لمصلحة والدها وهي مشهورة بالجمال والدهاء. وبعد ان أقامت مع زوجها المذكور مدة وهي تدبر الحيل للذهاب بدولة العرب نهض الامير عبـد الرحمن وعرف الخطر الذي يحدق بالعرب من ذلك الامير فبغته وقتله..»

قال حسان «نعم سمعت ذلك من قبل وسمعت أيضاً ان امرأة أخذت في جملة الغنائم والاموال الى دمشق فيئاً للخليفة»

قالت «وقد اشاعوا ذلك زوراً وبهتاناً فالظاهر ان هذه الداهيـة البست بعض نسائها ثيابها واوهمت ان تلك هي لمباجة وانما هي من بعض خدمها وسيراريها لتبقى في معسكر عبد الرحمن عيناً لابيها على العرب وحركاتهم. وقد تحققت انها هي التي كتبت الى ابيها ان يستنجد شارل دوق اوستراسيا ولم يكن هو ليقدم على ذلك من تلقاء نفسـه حياءً من رجاله ورعاياه فاغرته هي بما لها من النفوذ عليه فاستنجده — ومما يخيفني من أمرها ان الامير عبد الرحمن يثق بها ويسارّها ويستشيرها. فهل من خطر على جند العرب أعظم من هذا؟»

فقال حسان «كلا يا مولاتي.. فينبغي ان اذهب بهذا الخبر الى الامير سريعاً فهل تكتبين كتاباً احمله اليه حالاً»

قالت «ولا بد قبل كل شيء ان نخرج من هذا السجن ومتى خرجنـا يهون علينا كل أمر عسير..»

الفصل الستون

الجوزة

وكان الراهب في اثناء ذلك الحديث واقفاً يتشاغل بالمشي في ارض الخيمة ويتطلع من بعض شقوقها وثقوبها الى الخارج وكأنه رأى أمراً بغتـه فاسرع الى سالمة وهي تقول ذلك وقال لها «اظننا أطلنـا الـكلام حتى قلق الحراس فاني أراهم في هرج وحركة يتسارون ويتهامسون وأخاف ان يكون من ذلك خطر علينا..»

فقال حسان « عليك بهذا الرداء يا مولاتي فالبسيه واخرجي مع حضرة الاب واطلبا خارج المعسكر وساتبعكما سريعاً والملتقى على ضفة نهر شير عند الجوزة الكبيرة التي قعدنا تحتها بالامس يا حضرة الاب » قال ذلك والبس سالمة عباءة الرهبان وجعل على رأسها القبعة وأعطاها العصا وأشار اليها بالخروج على عجل

فتنحنح الراهب وقرع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من الخيمة وسالمة في أثره . فلما اطل على الحراس تظاهر باشتغاله برسم الصليب والصلاة ثم رفع يده كانه يباركهم فحنوا رؤوسهم جميعاً ونزعوا قبعاتهم اجلالاً واحتراماً . ولم يجرأ احد على الدنو منهما لما لاحظوه من اشتغالهما بالصلاة تمتمة . وكانت سالمة تمشي وركبتاها ترتعدان ليس خوفاً على حياتها ولكنها استنكفت الفرار خلسة والتنكر بلباس الرهبان . ولما بعدا عن المعسكر واطمأنا على نفسيهما اشتغل بال سالمة على حسان وخافت وقوعه في الاسر . سارا في المعسكر وهما بزي الرهبان والحرس لا ينتبهون لهما وأكثر الجند نيام حتى خرجا من بين الخيم . وكانت سالمة تمشي وتتلفت يميناً وشمالاً ثم تلتفت الى ورائها لعلها ترى حساناً قادماً وقد ندمت في باطن سرها على تركه في تلك الخيمة لانه اقدر منها على انفاذ ما تطلبه في تلك الساعة . وكان الظلام مخيماً لا يريان مما يحيط بهما غير الروابي او الاشجار العالية اذا اعترضت بينهما وبين الافق . وكانت سالمة تمشي في اثر الراهب كيفما مشى لانها لا تعرف مكان تلك الشجرة

وبعد مسير ساعة وهما صامتان التفت الراهب الى سالمة وقال « وقد اصبحنا على مقربة من الجوزة يا مولاتي وهذه رؤوس اغصانها » واشار بيده الى الامام فالتفتت فلم تر شجراً ولكنها رأت اغصاناً متفرقة تتراءى في الافق فعلمت ان الشجرة في منخفض وانها ترى رؤوس اغصانها . ثم رأت شبحاً يظهر بجوار تلك الاغصان رويداً رويداً كانه قادم من وراء أكمة نحوها فتفرست بذلك الشبح حتى بدا كله ودنا منها فاذا هو بلباس جند الافرنج ولما اقترب منها اختلج قلبها في صدرها لعلمها انه عدلان الاحول فاستعاذت بالله منه وخافت على حسان من دهائه . اما هو فظل ماشياً لا سلام ولا كلام .

فسرت سالمة بذلك وبعد قليل وصلا الى قمة التل فشاهدت سالمة وراءه شجرة هائلة تظلل سهلاً واسعاً فانحدرا نحوها وقعدا تحتها وبين يديهما عين ماء تصب في منحدر تحته واد يجري فيه نهر شير . وكانت سالمة قد تعبت من المشي والقلق فقعدت على حجر قد تملس من كثرة ما لامسه من الايدي بكرور الادهار . وكانت تلك الشجرة منزلاً للمسافرين هناك

ولما قعدا قالت سالمة للراهب « اني خائفة على حسان ولا اظنه يستطيع الخروج من ذلك المعسكر واذا كان لم يخرج الان لم أعد ارجو خروجه »

قال « وكيف ذلك ؟ اذا لم يخرج الان يخرج بعد ساعة اوساعتين ويكون الحرس نياماً »

قالت لا أخاف عليه من الحرس ولكنني أخاف عليه هذا الرجل الذي رأيته ماراً بنا وهو الذي وشى بي حتى قبضوا عليَّ . ولو لم يكن غائباً الليلة عن المعسكر ما انطلت حيلتكم على الحرس . . . »

قضيا مدة في مثل ذلك وسالمة تعد اللحظات وتحسب الساعة يوماً من شدة القلق ثم سمعا وقع أقدام مسرعة فالتفتا فرأيا شبحاً يعدو نحوهما فلم تشك سالمة انه حسان فلما اقترب منها ارتعدت فرائصها من منظره لانه كان عاري الصدر والذراعين مكشوف الرأس وقد نبش شعره وأرسله على وجهه حتى أصبح منظره مثل مناظر الجان أو الشياطين على ما كانوا يصفونهم في ذلك العصر . ولم تكد سالمة تخاف حتى سمعت الرجل يقول « لا تخافي يا مولاتي أنا حسان » فاطمأنت فلما دنا منها صاحت فيه « ويلك ما هذا العمل ؟ »

قال « لولا هذه السحنة ما نجوت من الاسر فاني لما تحققت بعدكم عن المعسكر تعريت كما تريان ونبشت شعري وخرجت من قفا الخيمة اعدو على يدي ورجلي واصيح صياح الشياطين . فاجفل الحرس من حولي وتفرقوا لاعتقادهم اني شيطان ولم يرجع اليهم رشدهم ويفقهوا الحيلة حتى صرت خارج المعسكر . ولكنني التقيت هناك برجل اظنه عدلان البربري الأحول وقد رآني ولم يعرفني . . هل شاهدكما هنا ؟ »

قالت « رآنا ولم يعرفنا »

فقال « لا بد لنا اذاً من تغيير هذا المكان — اعطوني العباءة اولا »

فاعطته سالمة العباءة فلبسها وهو يقول « هلم بنا نذهب من هنا فان هذا البربري الشرير لا يلبث ان يصل الى المعسكر ويعرف بفرارك على يد الراهبين حتى يطلب هذا المكان بالجند ولا طاقة لنا بالحرب »

فقال الراهب « هذا هو الصواب فانمض اذاً الى دير القديس مرتين فاننا نصله قبل الصباح فنصير هناك في مأمن واذا شئت ارسال حسان بعد ذلك افعلي وربما أرسلنا معه من يهديه الى الطريق »

الفصل الحادي والستون

دير القديس مرتين

فاستحسنت الرأي ونهضت فمشوا يطلبون الدير والراهب دليلهم فوصلوه عند الفجر وقد أخذ التعب منهم مأخذاً عظيما . فاطلوا اولا على حلة أشبه ببلد صغير وفي وسط البلد بناء شامخ محاط بسور عال مثل سائر الاديار هناك ولكنه أفخمها جميعاً ومحيط السور هائل يحسبه الناظر سور مدينة لسعته وارتفاعه . وكان دير القديس مرتين مشهوراً في اكيتانيا واوستراسيا وسائر اوربا بالغنى والثروة لكثرة ما حواه من الانية الذهبية والفضية غير الاموال المذخرة في خزينته من الهبات والنذور ونحوها . وكانت سالمة تسمع بذلك الدير ولم تدخله بعد فلما أطلت عليه تركت للراهب ان يتصرف في كيفية الدخول. فاذا به تقدم الى الباب وهو كبير خلافاً لابواب سائر الاديار فامسك بحبل مدلى هناك وشده فدق الجرس دقة خصوصية وبعد هنيهة أطل بعض الرهبان من برج فوق الباب فكلمه الراهب رفيق سالمة باللاتينية فاسرع ذلك الى الباب وفتحه ورحب بالقادمين . فدخل الراهب وسالمة من باب آخر وراءه فاطلا على فناء واسع أشبه شيء بالحديقة وفي وسط الفناء بناء كبير هو الدير وبجانبه بناء آخر عرفا من قبته والصليب على قمتها أنه كنيسة القديس مرتين

وكان حسان سائراً في أثرها وهو لا يزال في شكله الغريب فامره رفيقه

الراهب ان يمكث عند الباب وأشار الى البواب ان يبقيه عنده ريثما يطلبانه . فمكث هناك وظلت سالمة والراهب سائرين والراهبان يخاطبان باللاتينية فلم تفهم سالمة من خطابهما الا قليلاً ثم تكلم راهبها بالافرنجية قائلاً « ان حضرة السيدة قادمة بكتاب الى حضرة المحترم رئيس هذا الدير فهل هو هنا ؟ »

قال «اظنه لا يزال في عبر النهر عند دوق اوستراسيا الا اذا كان قددخل الدير من بابه الآخر المشرف على هذا النهر »

قال « ومتى قطع النهر »

قال «قطعه قبل الامس على حين غفلة »

قال « وما الذي دعاه الى ذلك . . »

وكان الراهب يتكلم وهو يمشي في الحديقة بين اشجارها ويتفرس في طرقها كأنه يفتش عن أحد فلما افضى بهم الحديث الى هنا كانوا قد وصلوا الى مقعد من الحجر بجانب جدار الكنيسة فاشار الراهب اليها بالجلوس وجلس هو ونور الصبح آخذ بالاشراق وقد تطايرت العصافير وانطلق النسيم فاختلط حفيف الاشجار بتغريد الاطيار . فكان لذلك تأثير شديد على سالمة بعد ان قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليل الغابر. وأحست بالنعاس ولكنها تنبهت كل حواسها لسماع حديث الراهبين لترى الداعي الى خروج الرئيس من ديره على غرة فسمعت الراهب يقول « ان الذي دعاه الى ذلك الخروج يا اخي أمر جديد كفانا الله شره »

فقال الراهب « وما هو ذلك الامر لا سمح الله »

قال «ألا تسمع بقدوم الدوق شارل صاحب اوستراسيا بجيشه الجرار ؟»

قال « سمعت انه سيقدم فهل وصل ؟ »

قال « نعم يا اخي وصل منذ أيام وهو الآن على الضفة اليمنى وفي حال وصوله بعث الى حضرة المحترم رئيس ديرنا ان يوافيه الى هناك على عجل فلم يسعه غير الطاعة »

قال « وما الذي يبغيه منه ؟ . وليس عنده جند يجده به .. »

قال « يظهر انك تجهل حال هـذا الدوق مع رجال الله والـكنائس والاديار . . »

قال « أعرف عنه قليلاً . . »

قال « ألا تعرف طمعه في أموال الـكنائس وأرزاقها . . ؟ وهل فاتك ما أجراه من طرق الظلم مع اكليروس اوستراسيا . . »

قال « سمعت بعض الشيء . وأخاف أن يفعل مثل ذلك في كنائسنا هنا »

قال « وهذا الذي نخافه نحن . . »

وهما في ذلك سمعا قرع الجرس فبغت راهب الدير ووقف ووقف الباقون وهم يحسبون الجرس يقرع للصلاة ولـكنهم رأوا الـكنيسة لا تزال مقفلة وقد تقاطر الرهبان من كل ناحية نحو طرقة من طرقات الحديقة تؤدي الى سور الدير من جهة النهر فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقعد ينتظران ما يكون. ولم يمض قليل حتى رأيا جماعة الرهبان عائدين وفي مقدمتهم راهب بلباس خاص يمتاز عن الباقين وعلى رأسه قلنسوة خاصة فعرفت سالمة انه الرئيس وقد عاد من مهمته التي ذهب بها الى شارل فاستغربت رجوعه باكراً بهذا المقدار وتفرست به عن بعد فرأته ماشياً وحوله الرهبـان والجميع سكوت تهيباً مما في وجهه من ملامح الغضب

وكان ذلك الرئيس كهلاً كثيف اللحية قد وخطه الشيب في أواسط لحيته من مقدم الذقن ولا يزال باقياً غضاً حالـكا . وكذلك شارباه فانهما كانا غليظين كثيفين وعيناه كبيرتان براقتان فوقهما حاجبان عريضان ومنظره على الاجمال وقور مع جلال وقد زاده الغضب هيبة ووقاراً حتى ألجم الرهبان كافة عن الـكلام .فتوسمت سالمة من ذلك الغضب خيراً ولما دنا من الدير أسرع رفيقها الراهب الى يده فقبلها وهو جاث وقبلته بيده ففعلت سـالمة مثله ثم تنحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبـان وعلى وجوههم علامات الاستغراب ولا يجسر أحد على التكلم الا همساً

فظلت سالمة وراهبها يتوقعان فرصـة يدخلان بها على الرئيس . وكانت سالمة تفضل الدخول عليه وحدها ومعها الـكتاب . وبعد هنيهة جاء الراهب

الذي كان قد استقبلهم من باب السور وقال « هذا هو الرئيس قد عاد فما الذي تريدانه »

قالت سالمة « اريد أن احظى بتقبيل يديه ومعي كتاب اريد تقديمه اليه »

قال « وأين الكتاب »

فمدت يدها واستخرجته من جيبها ودفعته اليه مختوماً فتناوله ودخل ثم عاد ودعا سالمة للدخول وحدها فسرت لذلك ومشت وهي تعد في ذهنها ما ستلقيه على الرئيس لعلمها ان رئيس دير القديس مرتين يمتاز عن سائر رؤساء الاديار بعلو منزلته وغنى ديره . فدخلت في دهليز انتهت منه الى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويجيئون كأنهم في شاغل عظيم وقد تسربوا أزواجاً وأثلاثاً . فلما رأوها وسعوا لها الطريق فمشت والراهب يتقدمها حتى وصلت الى غرفة الرئيس وعلى بابها ستر شقه الراهب بيساره وأشار الى سالمة بيمينه أن تدخل فدخلت الى قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بديعة الصنعة تمثل أهم حوادث النصرانية . وفي صدر القاعة صورة القديس مرتين بالقد الطبيعي الكامل ورأت الرئيس جالساً على مقعد في صدر القاعة تحت تلك الصورة . فلما دنت منه تظاهرت بالجثو وتقبيل يده فأنهضها ودعا بكرسي اجلسها عليه والكتاب لا يزال بيده وقد تبسم ترحاباً بالقادمة والغضب لا يزال بادياً في عينيه

الفصل الثاني والستون

امل جديد

فجلست سالمة متأدبة والخمار يجلل رأسها وثوبها الاسود يزيدها كمالا ورزانة وظلت صامتة احتراماً للرئيس . اما هو فاعاد نظره الى الكتاب وتفرس فيه كأنه يقرأه ثانية ثم قال « ممن هذا الكتاب ؟ »

قالت « ان علامة صاحبه فيه »

قال « لا ارى علامة ولكنني عرفته من خطه .. هل انت سالمة ؟ »

قالت « نعم يا مولاي اني امتك سالمة »

قال « العفو يا اختي كلنا عبيد ربنا ومخلصنا . . ما الذي تريدينه مني الآن ؟ »

قالت « لا اريد الا ما تريده قدسكم وليس لي رأي بوجودكم »

فابتسم غصباً وقال « لا حاجة بنا الى التجمل والتردد .. لقد جئتني لامر يقول اخي رئيس دير . . انه يهمني ويهمه وان عليه يتوقف مستقبل الكنيسة في اكيتانيا فتفضلي بما تأمرين »

قالت « اني خاطئة لا استحق هذه العناية ولكنني كنت خاطبت كاتب هذا الكتاب في شأن دافعني فيه وانكره عليَّ ثم ما لبث ان سمع بقدوم الدوق شارل الى هذه البلاد حتى استصوب رأيي . . فهل أعجبك حضرة الدوق بمجيئه .. اصفح عن جسارتي في هذا السؤال لان عليه يتوقف حديثي »

قال «صدقت يا ابنتي ان هذا السؤال لا يجسر أحد من رهباني أن يسألني اياه ولكنك جئت في وقت اجيز لك فيه هذا السؤال وفي كلام اخي الرئيس صاحب هذا الكتاب ما يحملني على الوثوق بك .. فاقول اني وجدت الدوق شارل خطراً على الكنيسة في اكيتانيا »

قالت « وهذا الذي رآه هو واراد أن اكون الواسطة في عرض طريقة ارجو ان تعود بالنفع على الكنيسة واهلها . . »

قال « وما هي طريقتك »

قالت « هل تعد الدوق شارل مسيحياً حقاً »

قال « هو يزعم انه مسيحي ولكن انَّى له ذلك وهو يحلل ما حرمته الكنيسة . . كنا نسمع عنه أموراً لم نكن نصدقها لغرابتها حتى سمعناها من شفتيه » قال ذلك وقد تجدد غضبه ثم قال « كنا نسمع انه اخذ مال الاديار وأساء الى الاكليروس وكنا نستغرب ذلك عنه حتى دعاني بالامس اليه وبدلاً من ان أسمع منه تملقاً وتزلفاً لشدة حاجته الينا في كل شيء سمعت منه تهديداً ووعيداً »

فانشرح صدر سالمة لهذه الشكوى واستبشرت بنيل بغيتها ولكنها

اظهرت الاستغراب وقالت « تهديد ووعيد ؟ ولماذا ؟ ألعلكم عصاة ؟ »

قال « كلاّ يا ابنتي ولكنه كافني امراً لم أوافقه عليه كما أراد . . دعاني وطلب الي أن أدفع ما في صندوق هذا الدير من الاموال عاجلاً لانه يحتاج اليها في الحرب ثم عرّض بفضله علينا في هذه الساعة لانه سيدفع عنا العرب . . سامح الله الدوق اود ما أضعف قلبه . . انه سيجر علينا البلاء مضاعفاً باستنجاد هذا الرجل المستبد . . »

فاظهرت سالمة الاهتمام وقالت « بالحقيقة ان الخطأ الاكبر من الدوق اود فقد أضاع استقلاله وجرّ البلاء على الكنيسة . . . وما الذي يظنه مولاي الرئيس في هؤلاء العرب

قال « هم أعداؤنا واعداء ديننا ؟ »

فابتسمت بلطف وقالت « اسمح لي ياحضرة الرئيس المحترم ان اعترض على هذه التهمة . . هل رأيت العرب او عاشرتهم ؟ »

قال « كلاّ ولكنني سمعت عنهم شيئاً كثيراً . . سمعت انهم يعبدون الاصنام وانهم اذا نزلوا بلداً نهبوا كنائسه وسبوا نساءه وأخربوا منازل أهله . . »

قالت « ألا تصدق امرأة عاشرتهم اعواماً ؟ »

قال « هل عاشرتهم كثيراً واين ؟ . . وما هي علاقتك بهم ؟ وانت من اهل هذه البلاد على ما يظهر . . »

قالت « يسمح لي مولاي أن أجيب على اسئلته بما في الطاقة . . قد عاشرت هؤلاء العرب اعواماً فظهر لي انهم أهل ديانة مثل ديانتنا يعبدون الله مثلنا وهم أهل رفق وعدل يفون بالعهود ويحافظون على المواثيق وقد فتحوا بلاد الاسبان ومعظم اكيتانيا ولم يظهر منهم الا العدل والرفق . ترى النصارى في اسبانيا وفي بوردو وبواتيه وغيرهما من البلاد التي فتحوها متمتعين بحريتهم الدينية لا خوف على كنائسهم ولا على اموالهم ولا على شيء مما يملكون — لا يخلو ان يطمع بعضهم بنهب او سلب فاذا لم يكن محقاً فانه ينال جزاءه من اميره » ثم قصت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها في تنميق العبارة

وبسطها لعلمها اذا اقنعت رئيس دير القديس مرتين هان عليها اقناع اسقف تورس واذا لم يساعدوا العرب كفاها أن لا يساعدوا الافرنج .

الفصل الثالث والستون

الرهينة

وكان الرئيس يسمع كلامها ويتفرس في وجهها ويستطلع حقيقتها فلم تسعفه الفراسة الا قليلاً وظل مستغرباً غيرة هذه المرأة على العرب وهي غير عربية — ولكنه استحسن امتداحها العرب خصوصاً وهو في تلك الحال . فتوهم ان مجيء هذه المرأة وهو في حال نفوره من شارل وخوفه منه لا يخلو من عناية خصوصية روحانية . فمال الى مجاراة سالمة في رأيها ولكنه اعظم ان ينصاع اليها حالاً وأراد من الجهة الثانية ان يحافظ على غيرته الدينية لعلمه ان انحيازه الى العرب اذا لم يكونوا كما وصفت يغير مستقبل النصرانية في تلك البلاد ويقلب الاحوال رأساً على عقب . وكان من الجهة الثانية يرجو رجوع شارل عن مطالبه فاذا رجع لم يبق ثمة داع لعدوله عن نصرته . فظل مدة مطرقاً وهو يعبث باطراف لحيته بين اناملة ثم التفت الى سالمة وقال لها « اني شاكر لسعيك وأرجو أن تمهليني ريثما أعمل الفكرة واستخير الله واعمل بالهامه جلت قدرته »

قالت « تبصر يامولاي بالامر كما تشاء ولكنني اذكرك بما انت مسئول فيه امام الله في مصالح الرعايا وانما غرضي أن يعود سعيك بالخير على الكنيسة واهلها » قالت ذلك ووقفت فابتدرها الرئيس قائلاً « اما أنت فتبقين عندنا ريثما نرى ما يكون »

فادركت انه يريد استبقاءها عنده رهينة حتى يصدق قولها فلم تبال لاعتمادها على مواعيد عبد الرحمن فقالت « اني رهينة امرك في الذي تريده »

فصفق الرئيس فجاء احد الرهبان فقال له « انزل هذه الضيفة في غرفة خاصة بها واكرموها »

فمضت مع الراهب الى علية أعدوها في طرف الدير من جهة نهر لوار ولها نافذة مطلة على ذلك النهر فاتكأت على السرير وقد اخذ التعب منها مأخذاً عظيماً فاستلقت ونامت واستغرقت في النوم ولم تفق الا على قرع الجرس يدعو الرهبان للغذاء فنهضت والتفت بثيابها وأطلت على النهر فبغتت لما شاهدته عن بعد من السفن الصغيرة المترابطة صفوفاً كالجسور وقد أخذ الناس في العبور عليها الى هذه الضفة ومعهم الاعلام اشكالاً والواناً

فعلمت أنهم جنود شارل فوقفت تنظر الى مجرى النهر وقد رجعت بها أفكارها الى مريم والعهود التي تربطها بذلك النهر وما يتوقف على الجيشين هناك من الامر العام . وكانت كثيرة الاطلاع على احوال الافرنج وقد علمت أنهم لم يبق عندهم رجل شديد غير شارل هذا فاذا دارت الدائرة عليه فالغلبة للمسلمين على كل اوربا اذ لا يقف في طريقهم واقف بعد ذلك . واذا كانت الغلبة للافرنج فلا مقام للمسلمين هناك أبد الدهر — وأشد من ذلك وطأة عليها ان العرب اذا لم يقطعوا نهر لوار لم يبق لها ولا لابنتها عيش . فلما تذكرت ذلك مدت يدها الى جيبها وافتقدت المحفظة وفيها كل سرها واستخرجتها وقبلتها ولم تتمالك أن دمعت عيناها وأحست من تلك الساعة بشوق شديد الى مريم بعد ذلك الغياب الطويل وهي لا تدري كيف حالها على أنها لم تكن تخاف عليها أحداً لعلمها بتعقلها وعناية عبد الرحمن بها — استغرقت في تلك الهواجس وعيناها تنظران الى معبر الجند وقد استغربت كثرتهم على الضفتين وكانت تسمع صوت الطبول مع بعد المسافة لان الهواء كان يهب من الشمال والشرق والصوت يأتي معه — قضت سالمة في ذلك ساعة ولو تركت لنفسها لانقضى النهار ولم تنتبه ولكنها ما لبثت ان سمعت قرع الباب فتحولت وفتحته واذا براهب ومعه خادم يحمل خواناً عليه الاطعمة فقدماها لها وخرجا فاحست بالجوع وكانت قد نسيت نفسها فجلست ولم تزدرد اللقمة الاولى حتى تذكرت حساناً ورفيقها الراهب فصفقت فجاءها خادم فطلبت اليه ان يستقدم خادمها من عند ابواب الدير فذهب ثم عاد بحسان وهو بعباءة الرهبان وشعره لا يزال منبوشاً فدخل وتأدب فامرته ان يقفل الباب وراءه فلما خلت به دعته للجلوس فابى فقالت

« دعنا من التجمل فانك من أعز الاعزاء اليّ وأي عزيز يضحي نفسه في مصلحة صديقه او صاحبه كما فعلت فاسمح لي ان اعاملك معاملة الصديق فاجلس وكل معي »

فتراجع وقال « أما الجلوس في حضرتك فاطيعك به وأما الطعام فلا حاجة لي به لاني اكلت مع بواب الدير الساعة وقد شغل بالي لابطائك في دعوتي وخفت حبوط مسعاك فأرجو أن تبشريني ...فهل أفلحت مع رئيس الدير؟ »

قالت « أحمد الله على ذلك ولم يبق الا أن نبلغ نتيجة أعمالنا الى الامير عبد الرحمن ليعلم كيف يتصرف مع تلك الداهية . . وأين جند العرب الان يا ترى »

قال « قد علمت من حديث دار بيني وبين بعض الرهبان في هذا الصباح ان العرب اصبحوا على مقربة من هذا المكان ولكنهم قادمون من جهة الغرب وان جند شارل قادم من جهة الشرق وسيلتقي الجيشان في هذه الساحة جنوبي هذا الدير »

فبهتت وأبرقت اسرتها معاً وقالت « هل أنت واثق من ذلك يا حسان »

قال « هذا الذي سمعته يا مولاتي وهو متواتر وأظنه صحيحاً »

قالت « فعلينا الاسراع في ابلاغ الرسالة وكنت اود أن اذهب اذا أيضاً معك لولا اشتراط الرئيس بقائي هنا لغرض لا اعلمه »

قال « لا بأس من بقائك في الدير اذ تكونين هنا في مأمن من كل شر لانه فضلاً عن امتناعه بالاسوار والابراج فهو محترم من الجيشين — واتركي ما بقي من المهمات عليّ فاني أفعل ذلك ان لم يكن اكراماً لك فاكراماً لنفسي وفي فوز العرب فوزي وفي سقوطهم سقوطي »

فتذكرت سالمة ما كان من حديث رودريك . وقد فاتها أن تخبره به بالامس فقالت « بورك فيك وعندي خبر جديد يهمك اكثر من كل ذلك .. »

فقال « وما هو يا سيدتي »

قالت « ألا تذكر حفيدك سعيداً . . »

فأجفل عند سماع ذلك الاسم لطول مامر به من الايام على اغفاله وهو

يحسبه في عداد الاموات وقال « كيف لا أذكره . رحمه الله ورحم والده »

قالت « انه لم يمت يا حسان . . »

قال « من ؟ سعيد ؟ سعيد حي . . أين هو ؟ »

قالت « هو في معسكر الدوق اود واسمه عندهم رودريك » وقصت عليه بعض خبره فاطرق واستغرق كأنه في حلم ثم رفع بصره وقال « وهل هو هناك الان ؟ »

قالت « لا ادري واذا كان هناك فانه يكون مسجوناً »

قال « سأطلبه وأبحث عنه بعد ذهابي برسالتك الى الامير عبد الرحمن »

فاعجبها منه ايثار خدمته على البحث عن حفيده مع شدة قلقه عليه فلما فرغت من الطعام امرت حساناً لجاءها بمداد وتناولت منديلاً وكتبت عليه رسالة الى عبد الرحمن ولفتها ودفعتها الى حسان وقالت له « سر بحراسة الله واذا احتجتم اليَّ في شيء فاني مقيمة هنا . وأرى قبل ذهابك ان تصلح من شأنك وتتزيا بزي الرهبان لتأمن من غوائل الطرق . وأظن رفيقنا الراهب عائداً الى ديره فاصطحبه واقره السلام عني . . »

فودعها حسان وخرج

الفصل الرابع والستون

معسكر عبد الرحمن

فلنرجع الى ما كان في معسكر عبد الرحمن بعد طول سكوتنا عنه واشتغالنا بحديث سالمة — تركناهم قرب مضيق دردون بعد ان فر الافرنج من وجوههم فمكثوا هناك ينتظرون رجوع سالمة من مهمتها . وقد رأيت ما كان من مقتل بسطام وفشل ميمونة وعرف القارىء انها لمباجة بنت الدوق اود وكانت بارعة في الجمال والدهاء كما رأيت وقد وضعت نفسها موضع السبية خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ولولا سالمة لظل أمرها مكتوماً .وكانت

سالمة قد عرفتها منذ قابلتها في الخباء ولكنها خافت كشف سرها هي فاجأت الامر الى رجوعها ولو علمت حقيقة غرضها ما صبرت عن أمرها — فظلت ميمونة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون انها من وصيفات لمباجة وهي لا تدخر وسعاً في عرقلة مساعي العرب بكل سبيل . فلما فرغت يدها من واقعة دردون وتخلصت من التهمة عمدت الى أحد شياطينها فبعثت معه الى والدها كتاباً انبأته به عن مهمة سالمة والغرض الذي ذهبت من أجله الى بوردو وبواتيه وغيرهما وحرضته على القبض عليها لانه اذا حبسها فكأنه حبس نصف جيش المسلمين فلم تدركها المكيدة الا على ابواب بواتيه كما رأيت . وكانت ميمونة قد تحققت عجز والدها عن دفع ذلك الجند من العرب بعد ما شاهدته في الوقعتين الاخيرتين بفضل اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها فعمدت الى شيطانها الاحول وبعثت معه الى والدها تستحثه على استنجاد شارل لعلمها ان أباها لا قبل له بذلك وحده — ومن غريب دهائها واقتدارها انها كانت شديدة التأثير على والدها لا تكاد تشير عليه بامر الا انفذه لاعتقاده بعقلها وسعة اطلاعها وخصوصاً على احوال العرب بعد الاقامة بينهم أعواماً . ولما جاءه كتابها كان قد يئس من الفوز وخاف على نفسه فوافق رأيها مصلحته فبادر الى مخابرة شارل دوق اوستراسيا فلبي الدعوة لعلمه انه اذا انتصر على المسلمين انتصر على اود وملك فرنسا كلها

أما عبد الرحمن فلما طال غياب سالمة مل الانتظار وبعث يفتقدها في بوردو فعلم انها خرجت منها منذ ايام وكانت مريم مع اشتغالها بهانىء واستغراقها في لجج العواطف أشد الجميع قلقاً على والدها وكان هانىء يختلس الفرص في اثناء الاقامة هناك ويجتمع بمريم اما في الخباء او في الصحراء ويتحادثان ويتشاكيان في غفلة من الرقباء وعبد الرحمن يغض النظر حتى تمكنت المحبة بينهما وكادا يتناسيان الحرب وأسبابها لو لم يكن زواجهما متوقف عليها وعلى اختراق اكيتانيا الى نهر لوار . ولذلك فان هانئاً لم يكن يفتر عن تحريض عبد الرحمن على المسير قبل فوات الفرصة واستعداد الاعداء وعبد الرحمن يأخذ الامر بالتؤدة والتأني — حتى جاءهم الجواسيس ذات يوم باستنجاد اودلشارل فعقد عبد الرحمن

مجلساً من الامراء حضره هانىء فاطلعهم على الخبر فقال هانىء «وهذا ما كنت أخافه ولذلك كنت استعجل الامير في النهوض»

فقال عبد الرحمن «فالذي أراه ان نبادر حالاً الى المسير»

قال هانىء «وهذا هو رأيي»

ولبث عبد الرحمن ساكتاً ليسمع آراء سائر الامراء وفيهم امراء البربر فلم ينفه أحد منهم بكلمة نخاف ذلك السكوت وأدرك هانىء خوفه وعلم ان مطامع البرابرة منصرفة الى الغنائم والسبايا وانهم لما علموا باتحاد جيشي اكيتانيا واوستراسيا خافوا على انفسهم فوقف هانىء وهو يبتسم وقال «لا حاجة بنا الى طول البحث في هذا الشأن فان الله قد ضم جيش اوستراسيا الى جيش اكيتانيا غنيمة لنا لان عند اولئك من الاموال والتحف ما لا تقاس به تحف هذه البلاد واذا غلبنا الجيشين مرة واحدة ملكنا هذه الارض الكبيرة كلها وقطعناها حتى نذهب الى رومية والقسطنطينية فنتم فتح العالم كله وننشر الاسلام في الناس كافة ويكون الفضل في ذلك لسيوفكم وخيولكم» قال ذلك وقد مزج طلب الغنائم بالجهاد حتى لا يخجل طالب الغنائم من اجابة لانها جامعة للاثنين فما اتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد «الخيل الخيل»

فقال عبد الرحمن «بارك الله فيكم ونفع الاسلام بكم» ثم امرهم بالاستعداد للرحيل ولما انصرف الامراء بقي هانىء وعبد الرحمن ولاحظ فيه انقباضاً فقال «ما بالك منقبض النفس وقد اطاعنا هؤلاء على المسير»

قال «انت تعلم يا هانىء انهم لا يحاربون الا طمعاً بالاموال وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينوؤن تحت أثقالها فالرجل منهم يكاد لا يستطيع حمل طعامه وغنائمه فبماذا يقاتلون . . »

قال هانىء «لقد نبهتني ايها الامير الى امر ذي بال — ان تعلق هؤلاء البرابرة بالغنائم ضربة ثقيلة على هذا الجيش ليس لاستئثارهم بها دون سواهم ولكنهم يشتغلون بها عن الحرب . اذا حملوها أثقلتهم واعاقت حركتهم واذا خلفوها خلفوا قلوبهم معها فلا بد من حيلة نحتالها عليهم في ذلك»

فاطرق عبد الرحمن ثم وقف فوقف هانىء معه وتشاغل عبد الرحمن

باصلاح عمامته وهانيء باصلاح بند حسامه ثم التف عبـد الرحمن بعاءته وهو يقول «لا بد لنا من النظر في هذا الامر ـ وفي اعتقادي ان ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب الى الحرب بدونها اربح لنا جميعاً ولكن من يجسر ان يقول لهؤلاء البرابرة تخلوا عن غنائمكم . ونحن انما رغبناهم في الحرب بذكر الغنائم والاموال » فضحك هانيء وقال « اظنك لحظت ذلك من عبارتي في هـذا الشأن — وقد كان في نفسي أن أرغبهم في سرعة المسير الى تورس بذكر ديرها الغني لان بقربها ديراً يقال له دير القديس مرتين هو من أغنى الديور الافرنجية (١) ولكنني خفت اذا انا قلت لهم ذلك ان يشتغلوا بنهبه عن الحرب فنكسب عداوة الاهالي والكهنة فوق عداوة الجند »

قال عبد الرحمن « لقد احسنت بالسكوت عن ذلك والذي أراه اننا متى وصلنا ساحة الحرب ندبر تدبيراً لا يغضب أحداً فنجعل هذه الغنائم في مكان خاص فيكون أصحابها في اطمئنان لا يخافون عليها بأساً من العدو او نجعلها وراء الاخبية او بينها وبين الجند » . فمشى هانيء وهو يقول « سننظر في ذلك في حينه » وخرجا لاعداد معدات السفر

اما مريم فقد كانت لاتزال على اعتقادها بصداقة ميمونة . وهذه لم تكن تذخر وسعاً ولا تضيع فرصة لا تجتذب بها قلب مريم بالاطراء والاعجاب ومريم لسلامة نيتها وصدق محبتها كانت تثق بميمونة الثقة التامة ـ ولم يكن ذلك عن جهل او بله فيها ولكن حر الضمير يصدق الناس ويعتقد انهم يصدقونه فاذا سمع قولاً صدّقه لسلامة نيته وصدق لهجته . وفي جملة ما استخدمته ميمونة من اسباب الخداع لمريم انها كانت تحدثها بحوادث وقعت لهانيء او عبدالرحمن او غيره تزعم انها مما لا يفشى لغير الاصدقاء الاخصاء وتتوقع ان تفشي لها مريم شيئاً من سرها مع هانيء ولكن مريم كانت شديدة الحرص على اسرار الحب وميمونة تسايرها في كتمانه فيزيدها ذلك استسلاماً لها . فلما تمكنت ميمونة من مريم وقبضت على ثقتها اصبحت مريم لا تفارقها الا ساعة الرقاد او عند لقياها هانئاً او لاسباب قهرية

---

(١) رومي

الفصل الخامس والستون

ساحة القتال

وفي صباح الغد قوضوا الخيام وشالوا الاحمال على الجمال والبغال وسار الجند على ترتيب تلك الايام — المشاة حسب قبائلهم وامام كل قبيلة راية خاصة بها يحملها احد فرسانها وقد يكون للقبيلة عدة رايات تتلاعب في الهواء حتى اذا نظر ناظر الى ذلك الجند وراياته عن بعد توهم الرايات اشرعة وظن حملتها سفناً والناس بحراً ومسيرهم موجاً يتلاطم وكأن عمائمهم البيضاء وبجوانبها رؤوس الاسنة تكسر الموج على سطح البحر . وكان من جملة المشاة رجال البربر بحسب قبائلهم ومعهم سائر الموالي من غير العرب كالنبط والشوام وغيرهم وهم سائرون بازاء العرب . والبستهم تختلف عن البسة العرب بعض الشيء . وأما الفرسان فقد اصطفوا فرقةً على حدة تتقدمها الرايات بحسب الامراء وراية هانىء اكبرها جميعاً واكثر الفرسان بالادراع المتينة وعلى رؤوسهم الخوذ الفولاذ . وكان عبد الرحمن يسير تارة بجانب هانىء امام الامراء أصحاب الاخبية ومعهم النساء والعيال في هوادج الا مريم فكانت على الجواد كاحد الفرسان . وكانت ميمونة تتظاهر بالرغبة في رفقتها فتركب جواداً الى جانبها . ويجيء وراء تلك الحملة ساقة الجند وامامهم الاحمال والأثقال وكان عبد الرحمن وهانىء اذا دارا حول ذلك الجيش او نظرا اليه من أكمة اطمئنا لكثرته وتوسما النصر به

وكان المسلمون يسيرون ولا يلاقون في طريقهم الا حقولاً مهجورة وأدوات متروكة وبيوتاً خالية فيأخذون ما شاؤا ويتركون ما شاؤا حتى اذا أمسى عليهم المساء يحطون رحالهم فيأكلون وينامون ثم ينهضون . فلما وصلوا بواتيه لم يلاقوا منها كبير مقاومة لان معسكر اود كان قد بعد عنها وقل من دخل المدينة وانما كان مقصدهم مدينة تورس قاعدة تلك الناحية وعندها جند الافرنج

وأنبأهم الخبراء في ذات صباح انهم اصبحوا على مرحلة من نهر لوار فاستراحوا وأصلحوا شؤونهم وساروا وعبد الرحمن وهانىء يتقدمان الجند نحو ميل ومعهما كبير الخبراء لاستكشاف مواقع العدو قبل النزول وليختاروا مكاناً يعسكرون فيه وفي أصيل ذلك اليوم صعدا في رابية على ضفة نهر شير ووليا وجهيهما نحو الشرق فكان نهر لوار الى يسارهما عن بعد والشمس وراءهما فنظرا الى ما بين أيديهما شرقاً فأشرفا على سهل واسع مثلث الشكل قاعدته ضفة نهر لوار الى يسارهما ورأس المثلث في الجنوب . وشاهدا عنده خياماً وأعلاماً وهو معسكر الدوق اود . وبين هذا المعسكر وضفة نهر لوار مسافة ميلين سهل واسع يصلح ميداناً للقتال لخلوه من الاحزان والاغوار حتى ينتهي عند قاعدة المثلث بالابنية على ضفة النهر وأقربها اليهما مدينة تورس ثم محلة دير القديس مرتين ومع بعدها عنهما عرفاها من فخامة ديرها وقبة كنيستها . وشاهدا وراء تلك المحلة مما يلي النهر حركة وغباراً عرفا مما يتخلل ذلك من الاعلام والخيول انها حركة جند قادم من جهة النهر فأمر عبد الرحمن رجلاً في ركابه ان يمضي الى جند المسلمين فيأمرهم بالوقوف حيثهم ريثما يعود من هذا الاستكشاف . ثم التفت الى الخبير وكان من الافرنج وقد تعلم العربية وقال « اليس هذا دير القديس مرتين »

قال الخبير « بلى يا مولاي هذا هو اغنى أديار النصرانية في هذه البلاد . . »

قال « وما الذي تراه وراءه »

قال « هو جند الدوق شارل يعبر النهر من ضفته الشمالية الى الضفة الجنوبية وقد علمت من رجل لقيته في هذا الصباح قادماً من محلة هذا الدير ان الدوق المذكور أخذ منذ بضعة أيام في تعدية رجاله على جسور من السفن ولم يفرغ بعد لكثرة ما جاء به من الرجال والاحمال »

قال « ألا يعرفون عدد جنده . . »

قال « لم يحصوه ولكن لا ريب عندي ان الدوق شارل جرد كل ما يستطيع تجريده من قبائل الافرنج في اوستراسيا وما وراءها لعلمه بشدة بأس المسلمين وقوتهم ولان على حربه هذه يتوقف اما انتشار سلطانه على فرنسا

كلها او خروج اوستراسيا من يده »

فقال هانىء « وسينال الثانية باذن الله . . »

فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلاً « أليس ما نراه الى يميننا في الجنوب معسكر الدوق اود شريد مضيق دردون ؟ »

فضحك الخبير وقال « بلى يا سيدي — وهو شريد في كل حال .. لانه سواء انتصر عبد الرحمن او شارل .. فان سلطانه على اكيتانيا ذاهب من يده إما لكم وإما لشارل فحاله تستوجب الشفقة .. »

فاكتفى عبد الرحمن بما سمعه ونظر في اختيار مكان يعسكرون فيه فقال هانىء « لا أرى لنا مكاناً نعسكر فيه خيراً من النقطة التي نحن فيها فنقطع هذا النهر الصغير (شير) ونعسكر وراءه فنكون على بعد واحد تقريباً من هذين الجيشين واذا تضاما فنكون متقابلين ويكون هذا الماء وراءنا فاذا قضت الحرب ان نقتهر لا سمح الله قطعنا النهر وجعلناه خندقنا بيننا وبينهم »

فأعجب عبد الرحمن برأي هانىء وابتسم له ابتسام والد سمع من طفله عبارة تدل على الذكاء وقال « لقد رأيت الصواب وأزيد على ذلك أن نترك أثقالنا وأحمالنا ونساءنا هنا ولا يقطع النهر الا الرجال المحاربون فنكون في اطمئنان على أموالنا وأعراضنا وأرى أن نترك هنا أيضاً الغنائم التي أثقلت رجالنا فيذهبون الى الحرب خفافاً . وقد أخبرتك ان امر هذه الغنائم أقلق راحتي فاذا لم نقنع رجالنا وخصوصاً البرابرة بالتخلي عنها يوم الحرب كانت سبباً في فشلنا . وأنت تعلم ان الرجل انما يغلب بخفة حركته »

الفصل السادس والستون

مسألة الغنائم

قال « لنعقد مجلساً اذا أمرت نخابر الامراء فيه ونقنعهم في وجوب التخلي عن الغنائم ونبين لهم ما يترتب على تحمل أثقالها من الاضرار ونرى ما يكون » ـ وكان في ركاب عبد الرحمن ايضاً صاحب النفير (البوق) فامره

ان يذهب الى المعسكر فيخبر الامراء بمبيت الجند هذه الليلة حيث هم ثم يدعو الامراء الى تلك الاكمة حيث هما واقفان للمخابرة في شأن المكان الذي سيعسكرون فيه ـ فاسرع الرسول ولم تمض هنيهة حتى تقاطر الامراء على افراسهم فلما وصلوا تحول عبد الرحمن عن فرسه وهانىء عن ادهمه فتحول سائر الامراء وسلموا افراسهم الى الخدم ووقفوا على تلك الرابية فاطلوا على سهل تحف به تورس ومحلة القديس مرتين من الشمال الى يسارهم ومعسكر اود من الجنوب الى يمينهم . فقص عليهم عبد الرحمن ما خطر له بشأن المكان الذي يعسكرون فيه بحيث يكون الماء وراءهم الى ان قال « واستشيركم في امر خطر وأظن فيه خيراً لنا وهو ان لا يعبر هذ النهر منا غير الرجال المحاربين وان نخلف النساء والاحمال هنا ومعهم من يحميهم . . فما رأيكم ؟ »

فقال اثنان من امراء القيسية « لقد رأى الامير صواباً . . » فوافق سائر الامراء على ذلك

فقال عبد الرحمن وهناك أمر ذو بال طالما خفته على هذا الجند ـ وذلك ان جندنا قد أصبح من كثرة ما أفاء الله على المسلمين من الغنائم مثقلاً بالتحف والاموال حتى لقد يعسر على الرجل أن يحمل غنائمه فكيف يستطيع القتال بها ؟ .. فالذي أراه أن نجعل الغنائم المذكورة في مكان أمين في جملة ما سنخلفه هنا عند ذهابنا في الغد فنجعل تلك الذخائر والتحف في خيم خاصة يحرسها من تثقون به من رجالكم كما فعلنا بقرب بوردو »

فلم يتم عبد الرحمن كلامه حتى اعترضه شاب من أمراء البربر قائلاً « أما نحن فلا نوافق على هذا الرأي . ولا تذكرونا بما أصابنا في بوردو على أثر مثل هذا العمل . فقد أفردنا الغنائم هناك حسب أمركم فكانت النتيجة اننا خسرنا اكبر امرائنا وأشجع رجال هذا الجند »

فلما سمع عبد الرحمن تلك العبارة وما تنطوي عليه من التعريض بمقتل بسطام مع ما تدل عليه من الضغينة والحقد خاف الانقسام اذا هو أجابه أو وبخه لعلمه انه لم يجسر على هذا القول الا وهو مدفوع من جماعة . فتظاهر عبد الرحمن بالسذاجة والاسف وقال « بالحقيقة اننا خسرنا في تلك الواقعة

خسارة يصعب تعويضها لان الامير بسطاماً يندر مثاله . ولكنني لا ارى علاقة بين مقتله والغنائم » ثم التفت الى جمهور الامراء وقال « اظنكم توافقونني على تناسي ذلك الحادث والاشتغال بما هو أهم منه وقد عرضت عليكم رأياً فاذا كنتم ترون فيه خطأ بينوه لان الغرض واحد والمصلحة واحدة »

فتهامس الامراء وتداولوا ملياً ثم قال أحد امراء اليمنية « أرى الامير مصيباً في رأيه كل الاصابة لان الرجل لا يستطيع الحرب وهو مثقل بالاحمال ـ واذا خسر الانسان غنيمته وانتصر في حربه عوض أضعافها »

فوافقه على ذلك كثيرون ولحظ هانىء ان البربر لا يزالون سكوتاً نخاف الفشل فقال « وأزيد على ما قاله الامير . . . اننا اذا انتصرنا في هذه الواقعة كانت غنائمنا فوق ما تدركه العقول . لان الدوق قارله (شارل) صاحب هذا الجند (وأشار الى جند شارل) قد حمل معه كل ما في بلاده من التحف في الاديار والكنائس والقصور فاذا ظفرتم به ظفرتم بالغنى والفخر والسعادة » قال ذلك بلهجة الاخلاص وهو يبتسم ويتفرس في وجوه الامراء

فلم يجد امراء البربر ما يدفعون به قوله فتكلم شيخ من امرائهم وقال « لا مشاحة في ان الجندي لا يستطيع الحرب الا اذا كان خفيفاً ولكن من لنا بمن يقنع أفراد الجند أن يتركوا غنائمهم التي أصابوها بعد شق الانفس وهم لا يطمعون بامارة او قضاء وانما ربحهم من هذه الحرب ما يرجعون به من الغنائم . فعندي اننا بدلاً من أن نترك الغنائم هنا نحملها معنا في صباح الغد ونجعل لها مكاناً بجانب معسكرنا فان ذلك أيسر على اصحابها من أن يتركوها في مكان يحول بينهم وبينها نهر

الفصل السابع والستون

رسول امين

فلم ير عبد الرحمن بداً من الموافقة . فعادوا الى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك وأصبحوا في اليوم التالي وأخذوا في عبور النهر اما خوضاً او عوماً على قوارب نصبوها عرضاً وكان ذلك النهر جدولاً صغيراً لا يعد شيئاً بالنظر الى نهر لوار وهو يصب فيه . فعبر اولا عبد الرحمن وهانىء ليعينا أماكن الخيم فوقفا على مرتفع أطلا منه على ذلك السهل وأخذا في تعيين الاماكن والجند يشتغلون في نصب الخيم وغرس الاعلام الى قرب الاصيل . فلاحت من هانىء التفاتة وهو ينظر الى الافق فرأى شبحاً يعدو نحوهما عدواً سريعاً فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه لباس الرهبان فازداد استغراباً ثم رآه سقط على الارض وهو يشير بيديه نحو هانىء فركض هانىء فرسه حتى وقف عنده فاذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض باحدى يديه على جنبه كأنه يشكو ألماً هناك وأمسك بيده الاخرى شيئاً أومأ به نحو هانىء فترجل هانىء حالا وأراد ان يعين حساناً على الجلوس فاشار له بعينيه أن يتركه فسأله عن أمره فقال بصوت متقطع وهو يلهث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الالم « ارسلتني مولاتي سالمة برسالة الى الامير عبد الرحمن . . . من دير القديس مرتين . . . فحملتها (وأشار بيده والرسالة فيها) حتى اذا خرجت من الدير ورأيت أعلامكم عن بعد أسرعت نحوكم فما شعرت الا ونبل أصابني في جنبي من خائن أظنه عدلان الاحول . . فايقنت اني مائت . . . فاسرعت حتى أدرككم بهذه الرسالة لأنها في غاية الاهمية . . فسقطت قبل الوصول اليكم . . . فهذه هي الرسالة »

ثم انقطع صوته وتزايد لهثه وأغمض عينيه وأرخى يديه . فناداه هانىء فلم يجب وكان عبد الرحمن قد شاهدهما وأسرع اليهما وسمع كلام حسان . فلما رآه في تلك الحال أسف لحاله أسفاً شديداً وكذلك هانىء وترجح عنده انه

مائت ولكن الامل لا ينقطع من الحياة ما دام النفس فاشار عبد الرحمن الى هانىء أن يستقدم أحد الا طباء

فركب بنفسه على ادهمه وركضه نحو الجند «وصاح هاتوا طبيباً» وبعد قليل جاءه الطبيب وهو من نصارى الاندلس وقد قضى في خدمة العرب زمناً طويلا . فاسرع الى حسان وجس نبضه فاذا هو ميت لا حراك به فامر ان يدبروا غسله ودفنه فحملوه الى خيمة خاصة بذلك

اما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضه واخذ يتلوه وهانىء يسمع فاذا فيه :

الى الامير عبد الرحمن الغافقي

« اكتب اليك من دير القديس مرتين وقد وصلت اليه بعد مشقات يطول شرحها سأقصها عند اللقاء القريب ان شاء الله – وانما استعجلت هذه الرسالة لاخبرك بامر هام اطلعت عليه في اثناء سياحتي هذه . وهو ان المرأة التي تسمي نفسها ميمونة انما هي لمباجة بنت الدوق اود وقد نصبت لي الحبائل الكثيرة في أثناء هذه الرحلة — وهي التي حرضت أباها على استنجاد صاحب اوستراسيا بكتاب أرسلته مع خادمها الاحول فاحذروه وافعلوا بها ما شئتم . ثم اني ابشركم بان رئيس هذا الدير ناقم على شارل وقد وعدني بالمساعدة ولكنه استبقاني عنده رهينة . وأنا في أمن واكرام أطلب لكم النصر . وأوصيك بفلذة كبدي مريم والسلام » سالمة

فما جاء على آخر الكتاب حتى بغت فنظر الى هانىء ثم اعاد نظره الى الكتاب وقد اخذت منه الدهشة مأخذاً عظيماً فقال هانىء « لم اكن اعتقد في هذه الملعونة خيراً وكنت مع فرط جمالها أشعر بنفور من منظرها لسبب لا أعلمهُ فكأن قلبي دلني على حقيقتها وكثيراً ما كنت استغرب اكرامك لها . . . »

فقطع عبد الرحمن كلامهُ وقال « كنت أراعيها على حذر ولم اثق بها قط ولكنني كنت أتوقع منها نفعاً في اثناء حروبنا لانها من أهل هذه البلاد . . وقد قضي الامر الآ ن فيجب أن نتدبر في شأنها فما الذي ترى أن نفعله »

قال « أرى أن نقتلها حالاً ونريح انفسنا منها »

قال « سننظر في ذلك بعد الفراغ من ترتيب هذا المعسكر »

قال ذلك وركب جواده وتحوّل نحو الجند لاتمام ترتيبهم. فجعل معسكره في نحو ثلث الضلع الممتد بين تورس ومعسكر اود وجعل فسطاطه في وسط المعسكر نحو الامام وبجانبه خيمة هانئ يليهما بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة وخيمة أميرها في وسط خيمتها وراية الامير مغروسة في باب خيمته . وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة امراء وعدة رايات باعتبار البطون والافخاذ . وجمع بين القبائل المتقاربة في النسب المضرية في جانب واليمنية في جانب وجعل البرابرة في جانب آخر جنوبي المعسكر ببقعة اختاروها هم وعبد الرحمن يسايرهم لانهم اكثر فئات الجند عدداً . فترتبوا باعتبار قبائلهم وبطونهم وكذلك الامم الاخرى من الانباط والشوام وهم أقل سائر الفئات . ثم امر بالغنائم أن توضع في خيم نصبوها لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب . والبرابرة طلبوا ذلك لتكون غنائمهم أقرب الى مضاربهم كانهم خافوا أن يسطوا عليها العرب ويأخذوها منهم . ونصبوا مرابط الخيل وراء المعسكر مما يلي النهر الصغير

وكان هانئ في اثناء ذلك الترتيب يطوف المعسكر لمساعدة عبد الرحمن وهو يفكر في ما قرأه عن ميمونة وسالمة وخطر له ان مريم اذا عرفت بمقام والدتها في ذلك الدير ربما طلبت الذهاب اليها فارتاح الى ذلك الفكر لاعتقاده انها تكون هناك في مأمن على حياتها ولو قضي على العرب بالانهزام . على انه ترك الاختيار لها وان كان بالحقيقة لا يقوى على فراقها

الفصل الثامن والستون

لمباحثة

قضوا ذلك اليوم واليوم التالي في الانتقال والترتيب حتى لم يبق في الضفة الاخرى غير الاخبية والاحمال الثقيلة ونحوها وفي أصيل اليوم التالي سار

عبد الرحمن وهانىء معاً الى الاخبية لمحاكمة ميمونة سراً وكان هانىء لا يرى باعثاً على المحاكمة ولو ترك الامر له لقطع رأسها بسيفه بلا سؤال ولا جواب. اما عبد الرحمن فاراد التصرف بالحكمة والتؤدة فلما وصلا الى الخباء الاكبر ترجلا ودخلا القاعة وبعث عبد الرحمن الى القهرمانة فجاءته بخلاخلها ودمالجها وهي تترجرج في مشيتها كانها في بعض قصور طليطلة في رغد ونعيم . فلما وصلت الى عبد الرحمن حيته . فقال « اين ميمونة »

قالت « لم اشاهدها من مساء الامس وأظنها مع مريم في غرفتها »

قال « ابعثي اليها أن تأتينا وحدها »

فصفقت القهرمانة فجاءها بعض الصقالبة الخصيان فقالت « ادعي السيدة ميمونة وقل لها ان الامير عبد الرحمن يحتاج اليها . . » وقد كلمته بالفاظ عربية مشوشة على نحو ما ينطق بها غرباء اللغة اذا تعلموها التقاطاً من افواه الناس شأن اولئك الصقالبة والافرنج وأمثالهم ممن كانوا في خدمة العرب في تلك الايام

فاشار الصقلبي برأسه اشارة الطاعة وخرج ولبثوا في انتظاره وهانىء يود الانصراف ليرى مريم ويخبرها عن والدتها ويكون هو أول من يخبرها بذلك ـ وفي هذا السبق لذة يشعر بها كل انسان وخصوصاً بين المحبين ـ فان الرجل اذا سمع خبراً جديداً وهو بعيد عن امرأته او حبيبته فانه يشعر بميل شديد الى اطلاعها عليه . واذا كان ما سمعه من قبيل السر كان أشد رغبة في مكاشفتها به وكلما بالغوا في تحريضه على كتمانه ازداد رغبة في كشفه وهو يعد ذلك افشاء للسر لانه يكاشفها به سراً ويوصيها ان تكتمه . وربما كان السبب في لذة المكاشفة شعور الحبيبين بالامتزاج قلباً وروحاً بحيث لا يسوغ مع ذلك الامتزاج تكتم . وزد على ذلك ان المسارّة تزيد في توثيق عرى المودة فاذا تواد اثنان يزداد توادهما وثوقاً اذا كان بينهما سرّ لا يعلم به سواهما . ولهذا السبب كانت المحافظة على الاسرار الماسونية من أقوى أسباب ثباتها وان لم تكن تلك الاسرار مهمة فكيف اذا كانت مهمة . بل كيف اذا سمع المحب خبراً يتعلق بشخص حبيبه كما كان الحال مع هانىء فان الخبر متعلق بمريم نفسها فلا غرو اذا رأيناه

شديد الميل الى مكاشفتها

على انه كان من الجهة الاخرى يريد البقاء مع عبد الرحمن بعد مجيء ميمونة ليحرضه على قتلها فطال غياب الرسول فبعثت القهرمانة رسولا آخر وآخر . وبعد برهة عاد الرسول الاول وحده وهو يقول « بحثت عن السيدة ميمونة في كل مظانها فلم أقف لها على اثر »

فبغت عبد الرحمن وهانيء اكثر من بغتة القهرمانة لعلمهما بما لم تعلمه فقال عبد الرحمن « واين ميمونة يا خالة ؟ »

قالت « ربما كانت في شاغل ستعود منه قريباً . . »

قال « اني اريد مقابلتها الساعة اذهبي انت للتفتيش عنها . . »

فنهضت وهي تقول « لم أرها من غروب الامس وليس احد أعلم برواحها وغدوها من مريم » ثم خرجت وهي تتمايل وتتدحرج وطال غيابها . ثم عادت ومريم معها وهي تقول « لم اجدها في مكان . فهي بلا شك في غير هذه الاخبية . . »

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبها وابتسم لها عبد الرحمن رغم غضبه من ميمونة وخوفه من افلاتها بعد ظهور ذنبها. وكان في وجه مريم من المعاني والملامح ما لا يستطيع الناظر معه غير الاعجاب بها والانشراح لرؤيتها فكيف بهانيء بعد أن ملكت فؤاده واستولت على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من النسيم فاصبح عند دخولها كله آذاناً وعيوناً يراقب ما يبدو منها او من عبد الرحمن عند المقابلة . ولا مسوغ لتلك الغيرة غير الحب الشديد لان الحب يدعو الى الغيرة حتى أقرب الناس نسباً وابعدهم شبهة . وهاك لسان حال المحب الغيور يخاطب حبيبته

أغار عليك من نظري ومني ومنك ومن خيالك والزمان
ولو اني وضعتك في عيوني الى يوم القيامة ما كفاني

اما عبد الرحمن فما لبث ان ابتسم لمريم وامرها بالقعود حتى ابتدرها بالسؤال عن ميمونة فقالت لم اشاهدها من مساء الامس وقد قضيت كل ما مضى من هذا النهار وانا ابحث عنها لانها رفيقتي ومعزيتي على غياب والدتي »

فقال « وهل عرفت سبباً يدعو الى خروجها »

قالت « لم أعرف شيئاً من هذا القبيل ولكنني رأيت منها ما يدل على اضطراب بالها من اصيل الامس فلم اعبأ به ولا سألتها عن سببه . . »

قال « هل رأيت احداً جاءها بكتاب او خطاب في صباح الامس »

قالت « لم اشاهد غير بعض الخدم ممن تعودوا خدمتها . . »

قال « هل كان بينهم عدلان الاحول . . »

قالت « نعم . . وكنت قد مضى عليَّ مدّة لم اشاهده »

فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهانىء نظرتين تفاهما بهما فتحققا ان عدلان بعد أن رمى حساناً بالنبل جاء الى ميمونة وحرضها على الذهاب الى ابيها خوفاً من انكشاف امرها

الفصل التاسع والستون

هانىء ومريم

وكانت مريم تنظر الى هانىء وتتوسم في وجهه خبراً وخصوصاً بعد تلك الاسئلة وكانت القهرمانة قد خرجت ولم يبق هناك غير مريم والاميرين . فنظرت مريم الى هانىء نظرة أغنته عن خطاب طويل عريض ففهم أنها تستفهمه عما يكتمانه . فالتفت الى عبد الرحمن فرآه مستغرقاً في التفكير فقال له « الارجح ان تلك الخائنة علمت بافتضاح أمرها ففرت الى ابيها ولكنها لن تنجو من حد هذا السيف باذن الله . . »

فبغتت مريم لما سمعته لانه يناقض اعتقادها في ميمونة على خط مستقيم وظهرت البغتة في وجهها بما تصاعد اليه من الدم وأبرقت عيناها والتفتت الى هانىء . ولم تتمالك ان سألته قائلة « وما الذي حدث حتى استوجبت هذه المسكينة غضب الامير وعهدي أنها من أشد الناس غيرة وأصفاهم سريرة . . . »

فالتفت هانىء الى عبد الرحمن وقال « اتأذن لي بذلك الكتاب . . »

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانىء في طلب الكتاب لانه لم يكن ينوي

اطلاع مريم عليه خوفاً من قلقها على والدتها ولم يبد استياؤه مراعاة لاحساس هانيء ولكنه انكر الكتاب وتظاهر انه لا يعرف مكانه . فأزدادت مريم قلقاً واضطراباً وسبق الى خاطرها ان لذلك التكتم سبباً يسوءها ذكره ولم يخطر ببالها شيء غير والدتها فصاحت بلثغتها المعهودة ولم تستطع امساك عواطفها « ما الذي تكتمانه عني . . . هل أصاب والدتي شغ (شر) . . أين هي . . » قالت ذلك وأجهشت للبكاء

فاثر منظرها في هانيء فلم يتمالك ان قال « اطمئنك يا مريم ان والدتك في خير وأمان »

قالت « وأين هي .. ؟ »

قال « هي في هذا الدير » وأشار الى دير القديس مرتين

قالت « ولماذا لم تأت الى هنا ألعلها مريضة أم مسجونه أم ماذا . . ؟ »

فتظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده فدفعه اليها وهو يقول « هذا هو كتابها وفي قراءته جواب كاف »

فتناولته بلهفة فلم تستطع رؤية الاحرف مما يغشي عينيها من دموع البغتة والخوف والامل والفرح معاً . فمسحت عينيها بكمها وقرأت الكتاب حتى أتت على آخره ولما وصلت الى قولها « وأوصيك بفلذة كبدي مريم » صاحت « اماه » وقد خنقتها العبرات ثم اعادت النظر الى ما ذكرته عن ميمونة فبهتت وحسبت نفسها في حلم ثم رفعت رأسها الى عبدالرحمن وقد تحول حنانها النسائي الى غضب وقالت « قبح الله تلك الخائنة . . . . قد فهمت الان سبب اختلائها بذلك البربري الاحول في مساء الامس... ولكنها ستذوق جزاء تلك الخيانة ان شاء الله » ثم سألته عمن حمل ذلك الكتاب لكي تواجهه وتستزيده من اخبار والدتها . فقص عليها هانيء ما كان من امره وانه مات ودفنوه فأسفت عليه كثيراً حتى بكت ولولا اشتغال خاطرها بخيانة ميمونة والشوق الى والدتها لندبته كثيراً لانه رباها منذ طفولتها وكان ضنيناً بها حريصاً على راحتها وراحة والدتها — ولكنها كانت في قلق عظيم على والدتها واصبحت لا تصبر عن رؤيتها فنظرت الى عبد الرحمن بعينين يغشاها الدمع وتوسلت اليه بصوت

يمازجه ذل السؤال وقالت « ألا يسمح لي الامير بالمسير الى والدتي لاشاهدها واقبل يدها ثم أعود ؟ »

فتأثر عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه الا الاجابة فقال « لا أمنعك من الذهاب اليها ولكنني أحب المحافظة على وصيتها وقد رأيت انها ختمت هذا الكتاب بك . . »

فقالت « لا بأس عليَّ باذن الله والطريق سهل والمكان قريب وكأني أرى الدير من هنا فاركب اليه سريعاً . . »

فقال هانىء «لا نخاف عليك بأساً بعدما شاهدناه منك في مضيق دردون ولكنني أرى أن اسير في ركابك حتى اوصلك الى باب الدير وأعود » قال ذلك بنغمة التصميم القطعي فاستحسن عبد الرحمن رأيه فقال « اذا كان لا بد من الذهاب فانهضا الآن حتى تصلا قبل الغروب . . . هل يحتاج هانىء الى استحثاث لسرعة الرجوع . . . ؟ أما مريم فلا بأس من بقائها هناك بل هو آمن عليها . . »

ففرح هانىء بتلك المهمة فنهض وأمر بفرس لمريم فلبست ثوبها والتفت بعباءتها وركبت وركب هانىء أدهمه والتف بعباءته وأصلح عمامته وساقا الجوادين سوقاً حثيثاً وقطعا النهر الصغير على جسر مما نصبوه بالامس وسارا شرقاً شمالياً يلتمسان دير مرتين. فبعد ان ركضا جواديهما برهة أمسكاهما ومشيا متحاذيين وقد حلت لهما تلك الخلوة فاراد هانىء مداعبة مريم فقال لها «أتعلمين ما وراء هذه الابنية »

قالت « النهغ الكبيغ (النهر الكبير) »

قال « وما اسمه . . »

قالت « نهرلوار» بلفظ الراء غيناً ولم تكد تنطق بهذين اللفظين حتى فطنت للموعد المضروب لاقترانهما هناك فخجلت وحولت وجهها الى عرض البر وأرادت تغيير الحديث فقالت « وكأني أرى جند الدوق شارل آتياً نحونا »

فبغت هانىء وتفرس في الغبار المتصاعد وراء محلة الدير وقال « لا شك

انك ترين معسكر الدوق شارل وأما الغبار المتصاعد فوقه فليس غبار المسير ولكنهم يلاعبون خيولهم على سبيل التمرين . . . » قال ذلك واخذ يفكر في ما يتوقعه من القتال الهائل في تلك الساحة ولكنه كان شديد العزم قوي القلب لانه لم ينكسر في قتال بعد ولذلك فاول ما يسبق الى ذهنه عز الانتصار

الفصل السبعون

سالمة في الدير

وبينما هو يفكر في ذلك سمع جرساً يقرع فاصاخ بسمعه فابتدرته مريم قائلة « هذا جرس الدير لاننا على مقربة منه » وكانت الشمس قد دنت من المغيب ولو التفتا اليها لرأيا شكلها يجسم وجرمها يتعاظم وحدتها تنفثىء حتى يخيل لها اذا لمساها انها لا تلذع — ولكنهما كانا في شاغل عن ذلك بغبار رأوه يتصاعد في بعض السهل من جهة الجنوب قرب معسكرا ودكأن خيالة يسوقون أفراسهم . فحملا ذلك على ما شاهدوه في معسكر شارل . ووصلا في الغروب تماماً الى باب الدير فقرعه هانىء فاطل الراهب البواب فخاطبته مريم بالافرنجية انها تسأل عن ضيفة هناك . فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب لباس هانىء وخصوصاً عمامته لانه لم يكن رأى عربياً قط وان كان قد سمع بمجيء العرب للحرب . فترجلت مريم وهمَّ هانىء بوداعها للرجوع وقلبه لا يطاوعه على ذلك الفراق وكانت هي في مثل حاله فلما أراد وداعها نظرت اليه نظرة خرقت أدراعه الى احشائه فوافقت رأيه فتحول عن أدهمه وهو يقول «أرى أن اوصلك الى والدتك واطمئن عليها وعليك ثم أعود » فاستحسنت انتباهه لغرضها وابتسمت ومشت فمشى هو بعد ان أشار الى بعض خدم الدير أن يمسك الجوادين فاخذها البواب الى الاسطبل . ولما دخلا من الباب الثاني استقبلهما راهب آخر وسألهما عما يطلبانه فقالت مريم « عندكم نزيلة اسمها سالمة ؟ »

فابتسم الراهب وقال « نعم » وأشار اليهما فتبعاه حتى دخلوا الدير وصعد بهما الى علية سالمة . وكانت سالمة لا تزال بعد ارسال حسان منفردة في تلك

العلية تارة تطل منها الى النهر وطوراً تقعد على الارض تفكر في مزيم وقد ذاب قلبها لفراقها وكانت لم تفارقها قبل هذه المرة قط - ثم تنتقل بافكارها الى ما تكتمه في صدرها ولم يأن وقت كشفه وتخاف أن يطول وقته او تحول الاقدار دون ذلك فتذهب مساعيها ادراج الرياح - ونهضت في صباح ذلك اليوم منقبضة النفس فنزلت الى الكنيسة لاستماع الصلاة وتخشعت في صلاتها كثيراً ودعت لابنتها بالسلامة ثم صعدت الى عليتها فاحست كانها في سجن مع انها في أحسن غرف الدير واكثرها انطلاقاً . ولكن السجن سجن الارادة فقد يحبس الانسان نفسه بارادته اياماً في مكان مظلم وهو يعد نفسه مطلقاً فاذا حكم عليه بالانحباس يوماً واحد ولو في افخم القصور فانه يعد نفسه سجيناً

ولما عادت من الصلاة وصعدت في السلم حدثتها نفسها ان تطل على سهل تورس لعلها ترى رسولاً قادماً او تتنسم ريح ابنتها اذا رأت معسكر العرب عن بعد فمشت حتى أطلت من سطح الدير على ذلك السهل وعرفت مكان كل من العرب والافرنج فخفق قلبها لما تتوقعه من القتال الهائل هناك . ثم عادت الى عليتها وهواجسها تتزايد بالخلوة - فلما كان الغروب احست بزيادة الانقباض وشعرت بضيق وقنوط . وساعة الغروب أثقل ساعات اليوم على الانسان وهو حر مطلق فكيف اذا كان سجيناً - فهمت بالخروج للصلاة فسمعت وقد اقدام على السطح فخفق قلبها فوقفت لترى ما يكون فلما سمعت الخطوات تقترب نحوها تزايد خفقان قلبها واخيراً سمعت قرع الباب فكانهم قرعوا صدرها . فنهضت وركبتاها ترتجفان وفتحت الباب فاستقبلها الراهب وأشار بيده الى رفيقيه . فلما رأت ابنتها صاحت «مريم» والقت نفسها عليها وجعلت تقبلها وتشمها والدموع تتساقط من عينيها حتى كاد يغمى عليها ومريم تقبلها وتقبل يدها ودموعها تتساقط بهدو. ثم دخلتا العلية وهانىء لا يزال بالباب فقالت مريم « هذا الامير هانىء قد جاء ليوصلني ويراك ثم يعود »

فرحبت به واثنت عليه ودعته للدخول فقال « لا بد لي من سرعة الرجوع لاننا في حال تدعو الى التيقظ . كيف انت . ؟ قد وصلنا كتابك وشكرنا فضلك واهتمامك . . »

فقالت « وماذا فعلتم بتلك الخائنة »

قال « لم نجدها في المعسكر مع انها كانت فيه الى الامس فالظاهر انها علمت بكتابك ففرت الى ابيها »

فلطمت سالمة كفاً بكف وصاحت « نجت هذا الملعونة . الظاهر ان شيطانها الاحول اخبرها بخبرنا فايقنت بكشف امرها فهربت »

فقالت مريم « قبح الله ذلك الاحول فانه أصل شرور كثيرة ولو علمت ما فعله هذا الشيطان لحزنت »

قالت « ما الذي فعله ؟ »

قالت « انه رمى حساناً بنبل وهو ذاهب من عندك فاصاب جنبه فحمل ذلك المسكين جرحه واسرع حتى ادرك معسكر العرب وهو على آخر رمق من الحياة فبلغ الرسالة ومات . . »

فصاحت « مات ؟ حسان مات ؟ . . »

قالت « نعم يا اماه مات اشرف ميتة . . مات شريفاً اميناً صادقاً وقد قاموا بواجب غسله ودفنه رحمه الله . . »

فاطرقت سالمة وسكتت ثم هزت رأسها وهي تقول بصوت منخفض « مسكين حسان . . مات ولم يشاهد حفيده بعد ان علم ببقائه حياً ولا شاهد نتيجة انتظارنا الطويل لهذه الواقعة المهولة . . »

الفصل الحادي والسبعون

دعوة خطرة

وكان هانىء قد دخل الغرفة وذهب الراهب فاتاهم بالشمع فاضاؤه وغرسوه في مشمعة ناتئة من الحائط وعاد الراهب . وكانت مريم في شاغل داخلي يتعلق بهانىء لأنها احبته ووالدتها لاتعلم . وقد اوصلها الى أمها وسيرجع قريباً ولا طاقة لها بفراقه وهي تريد ان تستطلع والدتها بشأنه فاذا لم توافقها على حبه كانت المصيبة كبيرة عليها . وارادت من الجهة الثانية ان تشغلها عن حديث حسان فقالت « ألا تعرفين الامير هانئاً يا أماه ؟ »

فابتسمت وقالت « كيف لا أعرفه ؟ أليس هو الذي أنقذنا من ذلك الامير البربري ؟ »

قالت « بلى . وهو اكبر امراء جند العرب بعد الامير عبد الرحمن . والامير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لانه امير الفرسان ويده اليمنى في تدبير الجيش »

فخجل هانىء من هذا الاطراء وأحب ان يعترض ليغطي خجله فلم تمهله سالمة فقالت « لم يخف عليّ شيء من شأن هذا الامير وقد صحبته في مهمة الى اسقف بوردو. ألا تذكرين ذلك ؟ »

فانشرح صدر مريم واطمأن بالها وهمت بالتطرق الى ماوراء ذلك فسمعت دبدبة وضوضاء فتوقفت وانصتوا جميعاً ثم سمع هانىء جواده يصهل صهيلاً متواصلاً كانه يطلب النزال فوقف هانىء وهو يقول « أرى جوادي يدعوني الى النزال وهو ينبهني الى سرعة الرجوع . . . ؟ »

وما اتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح ثم فتح الباب ودخل الراهب رفيق حسان وكانت سالمة تحسبه سافر معه فلما دخل رحبت به ودعته للجلوس فاذا هو يهم بالكلام والبغتة ظاهرة في وجهه وكأنه أراد التكلم فارتج عليه ففطنت امسك حياء من الحضور فقالت له بالافرنجية « تفضل يا حضرة الاب اخبرنا بما عندك وليس هنا احد غريب »

فقال ولسانه يتلجلج « كافني رئيس هذا الدير ان ابلغك امراً يعزّ عليّ ان أكون الرسول فيه . . . »

فخفق قلب سالمة ومريم واما هانىء فلم يفهم شيئاً لانه لا يعرف الافرنجية ولكنه لحظ من تغير الوجوه ما اقلقه — فقالت سالمة « قل يا حضرة الاب . . . »

قال « ان الدوق اود بعث بكوكبة من الفرسان بالعدة والسلاح وقد وصلوا الدير ومعهم رسول يحمل كتاباً الى حضرة الرئيس يطلب منه فيه ان يبعث بك اليه . ونظراً لما يعلمه الرئيس من دالتي عليك بعث اليّ واطلعني على ذلك الكتاب وشاورني في شأنه فحسنت له ان يمتنع عن تسليمك فاظهر انه

يود ذلك من صميم فؤاده ولكنه يخاف العاقبة وهو لا يدري لمن تكون الغلبة في الحرب القادمة وواجباته تقضي عليه ان يكون نصيراً للافرنج — ثم كلفني ان اكون انا برفقتك من قبله لاوصي الدوق اود برعايتك واذا شئت اخذنا من الرئيس كتاب توصية بشأنك ايضاً »

وكان الراهب يتكلم ولسانه يكاد يتلعثم والتأثر باد في كل حركة من حركاته وكانت سالمة ومريم تتطاولان بعنقيهما وقد شخص بصرهما في الراهب كأنهما اصيبتا بالجمود فلما فرغ من قوله قف شعرهما وخصوصاً مريم وكان هانىء ينظر اليهما ويقرأ تلك العواطف في وجهيهما فلما فرغ الراهب من الكلام قال هانىء « ما الخبر »

قالت مريم « ان الدوق اود بعث الى رئيس هذا الدير يطلب والدتي منه »

قال « وماذا يريد منها ؟ »

قالت « يطلبها اليه لغرض لا نعلمه »

قال « لا تذهب . . »

فقالت سالمة « بل أرى أن اذهب لاني لو أبيت الذهاب لاخذوني قهراً . . »

فصاح هانىء « قهراً ؟ . . يأخذونك قهراً وهانىء معك ؟ ذلك لا يكون » ووقف ويده على قبضة حسامه وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً

ففرحت مريم بما أبداه هانىء من الحمية بشأن والدتها ولم تكن هي أقل حمية منه فقالت « كيف نسمح يا أماه أن يأخذوك أسيرة ولو كانوا الوفاً فاننا ندافع عنك الى الموت . . »

فقالت « اعلم ذلك ولكن شروط الحرب تقضي علينا أن لا نعرض أمير فرسان العرب وعمدة امرائهم لشرذمة من الافرنج ربما أصابه أحدهم بنبل كما أصابوا حساناً بالامس فيذهب الامير هانىء رخيصاً لا سمح الله وهو معول جند العرب وقائدهم وواسطة عقدهم فكاننا عرضنا الجند للخطر . . . فاذا كنتما تحبانني اطيعاني في ما أقول ولا تخافا عليّ بأساً لاني سأسير مكرمة وسيكون معي حضرة الراهب وسأحمل من رئيس الدير كتاب توصية او نحوه بحيث

لا أخشى شراً — بل أرجو أن أخدم العرب وأنا هناك ما لا استطيعه وانا معهم ومع كل ذلك فلا حيلة في قضاء الله .. »

فقال هانيء « انك تحاولين محالا — اكون حاضراً وتساقين أنت أسيرة ؟ » ذلك لا يكون أبداً . . والله لاعمل السيف في الافرنج ولو كانوا الوفاً . . . . »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « اذا فعلت غير ما أقوله فانك تكدرني وأنا أعلم انك لا تريد كدري — ان الدوق اود يعرف عني اكثر مما تعرف أنت او تعرفه ابنتي هذه — وهو لا يطلبني اليه ليسوءني ولو كان ذلك غرضه لفعله وأنا سجينة عنده الى الامس . دعنا الآن من هذا البحث وأتقدم اليك بشرف العرب وعز الاسلام ان تطيعني في ذلك وقد آن لي الآن أن اطلعكما على شيء جديد حفظته منذ أعوام . . » ثم التفتت الى الراهب وقالت « قل لحضرة الرئيس اني أتأهب للخروج حسب أمره بعد ساعة أو ساعتين لغرض لي مع ابنتي هذه قبل سفري »

فحنى الراهب رأسه وخرج

الفصل الثاني والسبعون

سر جديد

وبعد خروجه نهضت سالمة وأصلحت رداءها كأنها تستعد للخروج وجعلت تخطر في أرض الغرفة ذهاباً واياباً ثم وقفت الى النافذة وأطلت على النهر ولبثت صامتة ومريم وهانيء ينتظران أمرها ويعجبان لتلك الحركة وذلك السكوت ثم تحولت عن النافذة وأقبلت اليهما وقد تغيرت سحنتها وأقطبت اسرتها وبدا الاهتمام في عينيها وذهب ما كان في محياها من الابتسام الطبيعي وتحول الى هيبة وغضب . فلما رآها هانيء على تلك الحال تهيب والتفت الى مريم فرآها اكثر اهتماماً منه ولكنهما ألجما عن الكلام وأصابهما ذهول — أما سالمة فنظرت الى مريم وخاطبتها قائلة « أتعرفين من هو والدك يا مريم ؟ »

فقالت « كلا يا أماه » وتوردت وجنتاها من الخجل وبغتت لذلك السؤال على غير انتظار ولم يكن هانيء اقل استغراباً منها ولكنه ظل صامتاً ليرى ما يكون

قالت سالمة « أتعرفين من هي والدتك ؟ »

فازدادت مريم استغراباً وقالت « نعم هي انت . . »

ثم التفتت الى هانيء وقالت « اعلم يا بني اني اؤتمنت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة على ان لا ابوح به الا لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ولكن قضت الاحوال ان ابوح ببعضه قبل ذلك الحين لامير هو على ما اعلم يتلو القائد الاكبر وللضرورة احكام — لقد ضاق صدري عن كتمان هذا السر بعد هذا الزمن الطويل وقد استخرت روح ذلك العزيز صاحب هذا السر ان اكشفه في هذه الساعة لابنتي ولك يا هانيء على شرط أن تحتفظا به حتى تبلغاه الى الامير عبد الرحمن بعد هذه الواقعة — وليس قبلها . فاصغيا . . »

وكانت سالمة تتكلم وهانيء شاخص ببصره ومريم تكاد يجمد الدم في عروقها لفرط تأثرها من منظر امها وما شاهدته في سحنتها من المعاني التي لم ترها فيها من قبل

فقعدت سالمة وأصلحت ثوبها وأخذت في قص حديثها فقالت وهي توجه خطابها لمريم « انت تعلمين يا مريم ان والدتك سالمة ولكنك لا تعلمين من سالمة هذه . وقد سألتك عن والدك فقلت انك لا تعرفينه لانه توفي وانت طفلة ولم اذكره لك قط ولم يكن احدٌ يعرف نسبك غير ذلك الشيخ المسكين حسان وقد قتل ولو اصبت انا بنبلة لذهب هذا السر ادراج الرياح ولذلك عجلت في كشفه لصاحبه ــ فاعلمي يا مريم ان امك التي تسمينها سالمة هي اجيلا امرأة رودريك ملك الاسبان الذي قتله العرب في واقعة خص شريش منذ بضع وعشرين سنة لما جاء طارق لفتحها . وبعد ان قتل رودريك المسكين جاء موسى بن نصير فاتم الفتح حتى بلغ الى طليطلة عاصمة اسبانيا في ذلك الحين وكنت انا هناك فصالحت على نفسي بعد فاة زوجي واقمت مكرمة وعشت في هناء ورغد كما كنت في ايامه وكانوا يسمونني ام عاصم ولم يمسني احد بسوء .

لان موسى رحمه الله كان عادلا رفيقاً يعلم كيف يفتح البلاد . ولكن مدة حكمه لم تزد على بضع سنين فوشى به الواشون فاستقدمه الخليفة الى الشام وسجنه . وكان نصب عينيّ موسى بعد ان فتح الاندلس وجمع غنائمها ان يوصل الفتح وما وراءها حتى يأتي القسطنطينية ويقطع منها الى الشام ويفتح ما في طريقه من البلاد (١) حتى يصير البحر الابيض محاطاً بالمسلمين من كل جهاته ولو فعل ذلك يومئذ لكان هيناً على المسلمين لان البلاد كانت في ضعف والحكام في انقسام

« فلما أخذ موسى الى الشام استخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى (قالت ذلك وتنهدت) وكان عاقلا حكيما عادلا وقد اطلعه ابوه على ما كان في عزمه من فتح هذه البلاد التي يسميها العرب الارض الكبيرة . وكنت انا لا أزال في طليطلة فلما تولى عبد العزيز ورآني ورأيته أحبني وأحببته فطلب الاقتران بي ولم أكن أطمع برجل أرفع منه مقاماً . فقبلت على ان ابقى على النصرانية فرضي ولكنه علمني الاسلام فوجدته كثير الشبه بمذهب أجدادنا القوط (الايوسية) . ثم انتقل بي الى اشبيلية فاقمنا هناك بضع سنوات كان في اثنائها مثال التعقل والحزم وقد أسرَّ اليّ اموراً كثيرة كان عازماً على اجرائها خدمة للعرب والمسلمين اهمها فتح هذه الارض الكبيرة (أوربا) وقد كان ذلك هيناً كما قدمت وخصوصاً لعبد العزيز لانه رحمه الله كان يعامل أهل البلاد بالعدل والمحاسنة والرفق فأصبح الناس على اختلاف طوائفهم يحبونه . وشاع ذلك عنه الى أقصى بلاد النصرانية ولو طال مقامه لفتح هذه البلاد على أهون سبيل لان أهلها كانوا في انتظار من يخولهم حقوقهم وحريتهم ولا فرق في مذهبه عندهم . كثيراً ما كان عبدالعزيز يبين لي رغبته في ذلك الفتح وأنا أحرضه على اكرام الاهالي والاحسان اليهم وهو يطيعني لما يترتب على ذلك الاحسان من الكسب العظيم . وقد بذل جهده من الجهة الاخرى في جمع كلمة المسلمين من العرب والبربر وغيرهم لأنه بغير هذا الاتحاد لايستطيع عملا

(١) نفح الطيب ١١٠ ج ١

« وانه لفي هذه الآمال اذ وشي به الحساد كما وشوا بابيه واتهموه بانه طامع في الملك لنفسه وقد بنوا ادلتهم على محاسنته أهل البلادوقالوا اني غلبت على عقله حتى حملته على ان يأخذ اصحابه ورعيته بالسجود له اذا دخلوا عليه كما كان يفعل زوجي رودريك على زعمهم . ومن مفترياتهم أني جعلته يفتح باباً قصيراً في مجلسه الذي يجلس فيه حتى اذا دخل احدهم منه طأطأ رأسه كالراكع (١) والله يعلم انهم افتروا عليَّ ذلك افتراء ولم يفقهوا سر الامر . ولما نفذت الوشاية به عند الخليفة لم يستوفدوه اليه كما فعلوا بابيه ولكنهم دسوا له من قتله وهو في المسجد (٢) والهفي عليه »

ولما بلغت الى هنا شرقت بريقها ووقفت عن الكلام وهانئ ومريم كانهما في حلم ولا يتجرآن على التلفظ لئلا يقطعا كلامها . فقالت وهي تنظر الى مريم وتحاول الابتسام « وكنت قد ولدتك منه وبلغت السنة الثالثة وكان يحبك حباً لا مزيد عليه خلافاً لمن ولد له من النساء الاخريات وكان لا يهنأ له عيش الا اذا قبلك وضمك الى صدره صباحاً ومساء واذا رجع من مجلسه وأتى قصره جعل يلاعبك ويبذل جهده في ما يرضيك حتى نسيني من اجلك . فلما علم بما نصبوه له من الحبائل وتحقق وقوع القضاء دعاني ليلة مقتله قبل نزوله الى المسجد فاتيته وانت على ذراعيَّ فتناولك وجعلك في حجره وطفق يقبلك ويبكي بكاء مراً وهو يشهق شهيق الطفل فلم أتمالك عن البكاء معه لاني احببته حباً كثيراً لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن مقصده وبعد ان بكي وودعك نادى حساناً وأوصاه بي وبك ثم التفت اليَّ وقال (قد ابى هؤلاء القوم الا ان يضيعوا تعبي ويفسدوا ما دبرته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به . اما موتي فبقضاء الله وقدره فلا اطالبهم به بل انا اشفق على ما اضاعوه وسيضيعونه بقتلي مما دبرته لهم لاني لا أظنهم سيوفقون الى رجل آخر يغار على الاسلام غيري ويوفق له ما وفق لي من الاحوال المساعدة على الفتح وهي ارضاء الاهالي وجمع كلمة المسلمين وتوفر الاسباب الاخرى المؤدية الى ذلك)

---

(١) ابن الاثير ج ٥ (٢) جاء في مكان آخر من هذه الرواية أنهم قتلوه في طليطلة والصواب في اشبيلية

ثم أشار اليك وقال (لو كانت هذه الحبيبة غلاماً لاوصيتك بتربيته لهذه الغاية . سأموت في الغد آسفاً على الفرصة التي اضاعوها بجهالتهم ولكنني اوصيك أن تربي ابنتنا هذه تربية عربية وتعلميها ركوب الخيل ولا تخبريها من هو أبوها ولا تجعلي عربياً يعرف بها الا من توسمت فيه الغرض الذي ذكرته وتوفرت فيه الاسباب المساعدة عليه . فاذا رأيت قائداً عربياً نهض للفتح وقد ادرك العوامل المساعدة على ذلك فان هذه الفتاة له زوجة أو ابنة او كما يشاء)

« ولما قال ذلك أخرج من جيبه هذه المحفظة (واستخرجت هي المحفظة من جيبها) ودفعها اليّ وهو يقول (واذا وفق المسلمون الى ذلك الرجل فانه فاتح هذه البلاد لامحالة فاذا تمكن من الفتح حتى بلغ نهر لوار قصي عليه خبري واطلعيه على وصيتي وسلمي هذه الابنة له ومعها هذه المحفظة فان فيها ما ينفعه وينفع المسلمين فاخذت المحفظة وحفظتها معي من ذلك الحين ولم تفارقني يوماً واحداً ولا ساعة واحدة وانا لا أعلم ما فيها. فلما قتلوه تلك القتلة الشنيعة سامحهم الله لم يبق لي عيش في الاندلس فبرحتها ومعي حسان وعنده كل اسراري وقد كان خادم الامير مخلصاً رحمه الله

« وقد تولى الاندلس بعد عبد العزيز عدة امراء واكثرهم تحفزوا للفتح ولكنهم لم يظفروا به لطيشهم وعتوهم وطمعهم . حتى اذا سمعت بعبد الرحمن وما أتاه قبل النهوض للفتح من طوافه باسبانيا وتعهده احكامها وعزل الضعفاء واهل المطامع ومحاسنة اهلها وسعيه في جمع كلمة الجند من العرب والموالي قلت هذا هو الرجل المنتظر . وصبرت حتى اتى بوردو وفتحها وكان ما كان مما تعرفينه » ثم وجهت كلامها الى هانىء وقالت «فالذي أراه ان الامير عبد الرحمن هو الرجل الذي عناه الامير عبد العزيز . فمريم له وهذه المحفظة (ودفعتها الى مريم) معها أيضاً . ولكن بالطبع لا يكون له شيء من ذلك الا بعد قطع النهر » فتناولت مريم المحفظة وخبأتها بين اثوابها

الفصل الثالث والسبعون

الوداع

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصبب من جبينها ويتسرب على خديها حتى يقطر على ثيابها وقد احمرت عيناها وتوردت وجنتاها من شدة التأثر. اما مريم فانها نهضت مبهوتة وقبلت والدتها وهي تقول « انت والدتي والحمد لله فقد اقلقت بالي بسؤالك اذا كنت اعرف والدتي فخفت ان اكون ابنة سواك — فاذاً أنا عربية ووالدي امير عربي وأمي ملكة الاسبان . . »

فقطع هانىء كلامها وقد غلب عليه الغرام وسره تفويض امر مريم الى عبد الرحمن لسهولة نيله اياها على يده وقال «لا شك انك عربية الاصل عريقة في الحسب والنسب » والتفت الى سالمة وقال لها « ان حديثك يا سيدتي قد نقش على صفحات قلبي وأراك فقت العرب بحفظ الوداد ووفاء العهود وتفضلت عليهم بالحب المتين لرجلك ونصرتهم بسعيك وفديتهم بنفسك فبورك فيك . والله لو كان في رجالنا عشرة مثلك اومثل ابنتك هذه لفتحنا العالم لا محالة . ولكننا محاطون بجماعة لا يجمعهم الا الجشع وقلَّ فيهم من يفهم معنى الفتح والنصر وانما يفهمون الغنائم والسبايا . ونحن في كل يوم نقاسي العذاب في سبيل التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم ولو كان اميرنا غير عبد الرحمن ما استطعنا الوصول الى هنا . فنطلب اليه تعالى أن يأخذ بناصرنا حتى نقطع هذا النهر واذا قطعناه هان علينا كل عسير » والتفت الى مريم وضحك ففهمت انه يشير الى زواجها ولكن قلقها لفراق والدتها شغلها عن الخجل

وكانت سالمة في اثناء ذلك مشتغلة بمسح العرق عن وجهها وكأنها أحست بحمل نزل عن صدرها بعد كشف ذلك السر لكنها انتبهت للمحفظة فقالت لمريم اوصيك بتلك المحفظة اعتني بها ولا تسلميها الا لعبد الرحمن الغافقي بعد عبور هذا النهر »

فقالت مريم « والآن لا بد من ذهابك الى الدوق اود ؟ »

قالت « نعم ولا بأس عليَّ منه كوني في راحة واعلمي انك في كفالة

الامير عبد الرحمن فقد اوصيته بذلك من قبل »

فتنسمت من هذه التوصيـة ان والدتها لا ترجو اللقاء بعد هذا الفراق وأحست سالمة انها تريد مراجعتها فنهضت وهي تقول « لقد آن لي أجابة طلب الدوق » قالت ذلك وضمت مريم الى صدرها وأخذت في تقبيلهـا تكراراً وكلاهما تبكي وهما متعانقتان متماسكتان كأنهما لا تريدان الفراق فاثر منظرهما في هانىء حتى كاد يبكي ثم خاف عليهما فتقدم وفرق بينهما فرأى عيني سالمة حمراوين من شدة البكاء وهي مع ذلك تنظر الى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها « قلت ان هانئاً لا يجب التفريط به لحاجة الجند اليه وانا ما الفائدة مني دعيني أسـير حيثما تسيرين »

فقطع هانىء كلامهما قائلاً « ان الجند لا ينفع شيئاً بدونك »

ففهمت ان هانئاً لا يريد فراقها وتذكرت شدة حبه لها فهان عليها فراق والدتها وسمعته سالمة يقول ذلك فلحظت أنه يحبها ولـكنها كانت تثق بشهامته وتعلم منزلته عند عبد الرحمن وازدادت وثوقاً به لما رأت عبد الرحمن أذن له ان يرافق مريم الى هذا الدير

ولما استعديت للخروج قالت لهانىء « اذهب ايهـا الامير بمريم قبل ذهابي . . . »

قال « العفو ايتها الملـكة الجليلة . . . اني لا اخطو خطوة قبل ان اراك ذاهبة باكرام ورعاية والا فلا يأخذونك وفيّ عرق ينبض . . . »

قالت « ثق اني سأذهب مكرمة وساقيم هنـاك لا أقول مكرمة ولـكني لا أخاف بأساً لان اود يعرف من انا وأرجو ان يكون مكثي في معسكر اود هذه المرة مثمراً مثل مكثي المرة الماضية فقد كشفت فيه سراً كشف عنـا شراً عظيما »

قال « ربما كان ذلك ولـكنني استحي من نفسي ان اخرج من هذا الدير وحوله الجند يطلبونك فاذا كنت لا تسمحين ان امنعهم من اخذك أفلا تأذنين لي ان أراك ذاهبة معهم ؟ »

قالت مريم « ان هانئاً مصيب برأيه »

قالت سالمة « فلاذهب اذاً لرئيس الدير لوداعه فانتظراني في الحديقة . . »
قالت ذلك وخرجت فتبعاها فتحولت هي الى غرفة الرئيس ونزلا هما الى الحديقة وكانت مضيئة بالاقباس . وطلب هانئ من البواب ان يستحضر الجوادين فامر فجيء بهما فدفع هانئ اليه صرة فيها دنانير فاستأنس البواب بذلك الكرم وامر الخادم ان يحسن العناية بالجوادين فوقف بهما وجواد هانئ يتجلى كالعروس بما عليه من العدة المتقنة وفي عنقه من القلائد والعقود . وما على عدته من الحجارة الكريمة وخصوصاً اللؤلؤة الكبيرة المصوغة على شكل النجمة فوق جبهته ناهيك بلجامه المذهب وما على صدره من سلاسل الفضة وهو أدهم شديد السواد فاصبح كانه ليل تتلالأ فيه النجوم وكان هانئ واقفاً الى جانبه ينظر اليه نظرة والى مريم نظرة اخرى . ولم يبق أحد من أهل الدير في تلك الحديقة اوبقرب الباب الا وقد جاء ينظر الى الادهم والى صاحبه وكلاهما غريب عندهم . وكأن الادهم ادرك اعجاب الناس فازداد دلالاً واخذ يضرب الارض بيمناه ويصهل ويشخر كأنه يطلب النزال او كأنه فهم من صهيل الخيول حول سور الدير انهم أعداء صاحبه فاخذ يهددهم به . اما مريم فقد كادت تنسى فراق والدتها قبل ذهابها لاشتغال خاطرها بحب هانئ وخصوصاً بعد هذه السفرة وقد تحققت انها عربية الاب ملوكية الحسب فتذكرت المحفظة فافتقدتها ــ وعادت الى هواجسها

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدير ثم خرج بعض الخدم يحملون الشموع ووراءهم جماعة من الرهبان يسيرون بين يدي سالمة ورفيقها الراهب وساروا بهما الى باب السور فمروا بهانئ ومريم فحيتهما سالمة ومشت حتى خرجت من الباب وكانوا قد أعدوا لها جواداً ركبته وركب الراهب جواداً آخر ونفخ البوق فاجتمع الفرسان الافرنج ومشوا الى جانبهما وبعضهم الى ورائهما برعاية واكرام وهانئ ومريم ينظران . واحست مريم في تلك اللحظة ان امها اقتلعت من قلبها فغلب عليها البكاء ولكنها كتمت بكاءها

الفصل الرابع والسبعون

ضوء القمر

اما هانىء فبعد ان سار الركب بسلامة ركب ادهمه واشار الى مريم فركبت جوادها فخرجا وتحولا نحو المعسكر فلما بعدا عن الدير احسا بالانفراد. وكان الليل مقمراً وقد صفا الجو وهدأت العناصر وسكن الهواء كأن الطبيعة شاركتهما في التهيب والاعتبار. فلم يسمعا الا وقع حوافر الجوادين على التراب. وكأن الجوادين احسا بما يتقد على ظهريهما من لواعج الغرام فاعتبرا وطأطأ ومشيا مشية الاحترام والحب سلطان تطأطىء له الهام — وظل الحبيبان مدة صامتين تهيباً من منظر الطبيعة وتفكيراً بما رأياه وسمعاه تلك الليلة من الامور الهامة وقد اعجبهما الاطلاع على ذلك السر فاصبح ارتباطهما بعده أوثق منه قبله. وقد علما انهما أقرب نسباً وأوثق عهداً واحست مريم أنها مطالبة بنصرة العرب عملاً بوصية والدها

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه ولم تكن تظهر لهم عن بعد لتغلب ضوء القمر فاسف هانىء لوصوله الى المعسكر قبل ان يخاطب مريم بشيء بعد ما عرفه من أمرها فامسك شكيمة جواده ليسير الهوينا فاقتدت به مريم وهي تتوقع ان تسمع منه شيئاً فاذا هو يقول على سبيل المداعبة « اراك صامتة يامريم ألعل ما علمته من شرف أصلك خفف شيئاً من حبك ؟ »

فأوقفت جوادها بغتة ونظرت اليه كأنها تستطلع قصده من تلك العبارة فلما رأته يبتسم علمت انه يمازحها ولكنها قالت « اذا سلمت بشرف أصلي فلا فضل لي بشرف ورثته من الاجداد وأنما الشريف من نال الشرف بحد حسامه كما ناله الامير هانىء » . فقال وقد هاجت عواطفه وهو يمسك الجواد عن المسير والجواد لايطيعه « فانت اذا صاحبة الشرف طارفا وتليداً فقد رأيت منك في واقعة دردون مايعجز عنه اعاظم الفرسان فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء »

فقطعت كلامه وقالت « اني لم افعل شيئاً يا هانىء واذا ساعدتني الاقدار

ساقفانى في انفاذ وصية أبي ولو لم اكن ذكراً كما قال فان الشجاعة لم تختص بالذكور دون الاناث آه ياهانىء . . . » وسكتت كأنها تكتم أمراً

فنظر اليها هانىء والقمر تجاه وجهها وقد وقعت اشعته على محياها وحوله النقاب الاسود . فلو رآها شاعر عربي لقال تقابل القمران . والحقيقة ان القمر ليس له ما في وجوه الملاح من المعاني الجاذبة والخالبة . وخصوصاً فتاتنا العربية سلالة الملكين فقد كان في وجهها فضلاً عن الجمال ملامح الهيبة والذكاء وجاءها الحب فزادها رونقاً وزاد المحب افتتاناً — فنظر هانىء الى وجهها وقد اطرقت كأنها تكتم امراً يمنعها الحياء من افشائه وتشاغلت باصلاح الشعر على عنق جوادها . والجواد مستأنس بمرور اناملها على عنقه . واراد هانىء ان يسألها عما تكتمه فاذا هو بفارس قادم عليهما من جهة دير مرتين ينهب الارض نهباً فامسك هانىء جواده وتفرس في القادم فما لبث ان علم من قيافته انه افرنجي ورأى معه علماً ابيض فتحقق انه رسول من شارل . ولم يكن هانىء يعرف الافرنجية فلما دنا الفارس منهما امسك شكيمة جواده ومشى الهوينا فخاطبته مريم بالافرنجية قائلة « من الرجل ؟ »

فقال « اني رسول من الدوق شارل الى الامير عبد الرحمن فاين هي خيمته ؟ »

فافهمت هانئاً ما قاله فقال « انها رسالة ذات بال والاحسن ان نسير به لنرى ما سيكون »

فقالت مريم للرسول « نحن ذاهبون اليه تعال في أثرنا » ومشيا وقد انصرف خاطرهما الى ما يهدد هذا الجند من الامر العظيم وتذكرت مريم حساناً لانها كثيراً ما كانت تراه قادماً بمثل هذه المهمة فما تمالكت ان قالت « مسكين يا حسان » وكان هانىء كله آذان لسماع اية كلمة تخرج من فم مريم فلما سمعها تذكر حساناً تذكر عبارة قالتها سالمة في ذلك النهار عند سماعها مقتل حسان فقال هانىء « سمعت والدتك تقول لما علمت بمقتل حسان انه مات ولم ير حفيده — فمن هو حفيده ؟ »

قالت « علمت من بعض ما كان يدور قديماً بين حسان ووالدتي انه كان

له ابن سار في حرب لا ادري ما هي وكان لابنه غلام فقده في تلك الحرب ضياعاً وهو حفيده وكان حسان كثيراً ما يتحسّر لضياع ذلك الغلام ولانه لا يعرف مقره. فلما قالت والدتي تلك العبارة ظلت في خاطري وسألتها تفسيرها بعدئذ فقالت انها عثرت على الغلام المذكور في معسكر اود وقد صار شاباً والافرنج يحسبونه منهم ويسمونه رودريك وانها تركته في معسكر اود عند فرارها ولم تعد تعلم مقره » . وكان هانىء انما اراد مباسطتها للتلذذ بالفاظها ولثغتها ولم يكن يهمه امر حسان كثيراً . لكنه ما لبث ان سمع حكايته حتى اسف لفقده

فلما اقتربوا من المعسكر امسك هانىء شكيمة جواده ونظر الى مريم فادركت انه يريد ان تنصرف الى الاخبية حيث تقوم النساء فقالت « هل اذهب الى الخباء ؟ »

قال « نعم يا حبيبتي لتكوني هناك في مأمن حتى يقضي لنا الله بالنصر ونذهب معاً الى نهر لوار وارجو ان يكون ذلك قريباً .. »

قالت « اما اذا خيرتني فاني افضل البقاء هنا لامر اراني مسئولة عنه مثل سؤالك أو سؤال الامير الكبير ولكن الطاعة واجبة — فالآن لا ينبغي ان ننسى السر الذي عهد الينا بحفظه ولا بد من كتمانه الى حينه » قالت ذلك وافتقدت المحفظة فوجدتها »

فقال هانىء « أأرسل معك بعض الخفر لا أقول لحراستك لانك في غنى عن ذلك وانما ارسلهم لخدمتك ... »

فقطعت كلامه وقالت « لا حاجة لي بالخدم يا هانىء وانا سائرة في ظلك وأنت معي اينما توجهت » قالت ذلك وأومأت برأسها للوداع وادارت شكيمة الجواد وانصرفت نحو الاخبية . فلما توارت عنه عاد الى الفارس وسارا معاً حتى دخلا المعسكر ولم يعترضهما الخفر لأنهم عرفوا الامير هانئاً من ادهمه . حتى اذا وصلا فسطاط الامير ترجل هانىء وهو يستفهم من الحاجب هل عند الامير احد فقال « كان الامراء عنده منذ هنيهة وانصرفوا »

الفصل الخامس والسبعون

التراسل

فدخل هانیء واشار الى الرسول بالبقاء خارجاً وكان عبد الرحمن جالساً وقد سمع صوت هانىء قبل دخوله فصاح فيه صيحة الوالد بولده « ما الذي اعاقك يا هانیء لقد شغلت بالنا . . »

فقص عليه ما جرى لهما بعد وصولها الدير وكيف بعث اود جنداً اخذوا سالمة اليه وكيف أراد انقاذها وهي لم ترض . ولكنه لم يذكر شيئاً عن السر. واخبره ان مريم رجعت معه وقد توجهت الى الاخبية الى ان قال « وقد اتيتك برسول من قارله (شارل) قائد جند الافرنج اظنه يحمل اليك كتاباً وهو بالباب الآن . هل يدخل ؟ »

فصفق عبد الرحمن فدخل بعض الحجاب من غلمانه فقال له « ادع لنا أحد المترجمين فاذا جاء ادخله مع الرسول » فخرج الغلام وظل عبد الرحمن صامتاً كأنه بغت لخبر جديد ولم يكن هناك شيء جديد ولكنه تنسم رائحة القتال وتصور له عظم الامر الذي هو قادم عليه . وأدرك هانیء اهتمامه فتهيب وظل ساكتاً حتى عاد الغلام ومعه الترجمان وهو من يهود اشبيلية وكان يعرف عدة لغات وللمسلمين ثقة كبرى فيه مثل ثقتهم بسائر يهود الاندلس لانهم كانوا عوناً كبيراً لهم في فتح تلك البلاد . ثم دخل الرسول وتأدب في موقفه فسأله عبد الرحمن بواسطة الترجمان عن غرضه فقال انه قادم برسالة من الدوق شارل صاحب اوستراسيا . فقال عبد الرحمن « واين الرسالة ؟ »

فمد الرسول يده الى شبه خرج معلق تحت ابطه واستخرج منه لوحاً ملفوفاً بمنديل من الحرير الاحمر وقد شد حول المنديل بشريط من الحرير الازرق . فتناول عبد الرحمن الرسالة واشار الى الرسول فخرج . ثم حل الشريط وفتح المنديل واستخرج ما فيه وهو عبارة عن لوح من الخشب الرقيق مكسو بالشمع وقد كتب عليه حفراً في ذلك الشمع على جاري العادة

في مكاتبات تلك الايام في اوربا . فلما ظهر اللوح علم عبد الرحمن انه رسالة افرنجية بدون أن يقرأها لعلمه ان العرب يكتبون على الجلد او القرطاس او النسيج . فدفع اللوح الى الترجمان فقرأه وهاك ترجمته :

« بسم الاب والابن والروح القدس

« من الدوق شارل قائد جند الافرنج وصاحب اوستراسيا الى الامير عبد الرحمن قائد جند العرب — أما بعد فان اخي الدوق اود صاحب اكيتانيا اخبرني بما تعمدتموه من الايغال في بلاده لغير سبب يدعو الى الحرب بيننا وبينكم فانتم انما تطلبون الفتح التماساً للكسب وقد اطمعكم في ذلك ما رأيتموه من ضعف الذين واقفوكم من جند هذه البلاد الى اليوم . وقد بلغني ما أنت عليه من الشجاعة والتعقل وعلو الهمة فرأيت ان انصحك لترجع عن قصدك بدون سفك الدماء . ولا اكلفك تسليماً بل اطلب اليك الانسحاب من هذه البلاد بما تحمله من الغنائم الى حدود اسبانيا على الاقل اذ لا قبل لكم بالوقوف امامنا . هذه نصيحتي لكم واذا لم تقبلوها فموعدنا في النزال قريب والسلام »

فلما فهم عبد الرحمن فحوى الكتاب بما فيه من التهديد ظهر الغضب في وجهه لكنه امسك نفسه ونظر الى هانىء كأنه يستشيره فقال هانىء « يظهر ان الرجل مغرور بنفسه فارى ان يكون جوابنا السيف »

فتبسم عبد الرحمن وصفق فجاء الغلام فقال له « ادع الامراء للمفاوضة» فادرك هانئ انه لا يقضي أمراً الا بالشورى خوفاً من العتب او الفشل . وبعد ساعة جاء الامراء فتلي الكتاب عليهم ففوضوا الى عبد الرحمن الجواب عليه فاشار الى الترجمان ان يكتب »

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الرحمن الغافقي قائد جند المسلمين في اكيتانيا الى الدوق قارله قائد جند الافرنج . أما بعد فقد قرأت كتابك وساءني اغترارك بنفسك مع ما بلغني من علو همتك وبسالتك . ايها الدوق اننا لم نجرد هذا الجند لفتح اكيتانيا وحدها ولكننا نهضنا لفتح هذه الارض الكبيرة . ولو لم تأت أنت لملاقاتنا هنا لالتقينا في بلدك ثم نحمل على رومية فالقسطنطينية حتى يدين لنا

العالم كله كما وعدنا نبينا — فننصح لك ان تعتبر بما أصاب أخاك صاحب اكيتانيا والا فلومك على نفسك والسلام »

ولف الكتاب وختمه وأرجعه الى الرسول فحمله وعاد وانصرف الامراء الا هانئاً فظل عند عبد الرحمن وقد توسط الليل فقضيا ساعة في المداولة ثم انصرفا الى المنام

وقضيا اليوم التالي في التأهب وتدبير الشؤون . وكانا في أصيل اليوم الثالث يطوفان بفرسيهما جناح الجند الايسر اذ جاءهما بعض الطلائع بانه شاهد غباراً يتصاعد في عرض الافق بجوار دير القديس مرتين فادركا أن شارل لما وصله الجواب زحف بجنده للقتال . فصعدا الى اكمة أطلا منها فرأيا غباراً يتصاعد ايضاً من جهة الجنوب حيث معسكر اود فعلما ان الجيشين متحدان عليهم فقال عبد الرحمن « لقد آن العمل ياهانىء وهذه جنود الافرنج قادمة فينبغي لنا ان نتيقظ ونتأهب لئلا يهاجمونا على غرة فامض الى فرسانك واجعلهم على اهبة النهوض وانا ماض الى تحذير سائر الامراء » قال ذلك وتحول فتحول هانىء في اثره ونفسه تشتاق الى النزال

على ان الجيشين لم يواصلا الزحف على العرب ولكنهما عسكرا تجاه معسكرهم وما بينهما وبينه الا ساحة القتال . فلما رأى عبد الرحمن نزول الافرنج علم انهم لا ينوون الهجوم في ذلك اليوم فبعث الى هانىء سراً وبعد صلاة العشاء خرجا من المعسكر ماشيين الى اكمة قريبة كان عبد الرحمن قد عاينها بنفسه في الامس فصعدا اليها ونظرا الى ما بين ايديهما وقد طلع القمر وارسل اشعته في الفضاء فوق ذلك السهل فكشفت عن معسكرين معسكر شارل في الشرق ومعسكر اود بازائه نحو الجنوب تجاه معسكر العرب . ونظر عبد الرحمن الى مضارب ذينك الجيشين وأمعن نظره ليقدر عددهم فوجدهم كثاراً يزيدون على جند المسلمين وود لو انه يلتقي بمن ينبئه عن قوة الجيشين ومعداتهما وسائر أحوالهما

وكان يفكر في ذلك ويمشط لحيته باناملة وهانىء واقف بجانبه يفكر في نحو ذلك الامر وقد تبادر الى ذهنه ان حساناً لو كان حيا لكان احسن

وسيلة للاستطلاع لانه يعرف لغة البلاد وعادات اهلها وهو حسن الاسلوب ذكي مخلص . فاراد ان يخاطب عبد الرحمن في هذا الشأن على سبيل فتح الحديث فرآه يتفرس في عرض الافق كأنه يرى شيئاً جديداً فالتفت هو الى هناك فرأى شبحاً كأنه رجل يعدو من جهة معسكر الدوق شارل وعليه لباس الافرنج ولكنه لا يحمل راية ولا يظهر من قيافته انه رسول فقال هانىء « ما رأيك بهذا القادم أيها الامير »

قال « لا أظنه رسولاً فربما كان جاسوساً او صديقاً

وما أتم كلامه حتى أصبح الرجل على بضعة عشر متراً منهما فتباطأ في مشيته حتى اقترب وهما لا يكلمانه فلما دنا منهما قال بلفظ عربي مكسر « أين الامير عبد الرحمن

فقال له هانىء « وما الذي تريده منه »

فاومأ باصبعه الى لسانه مع اشارة النفي أي انه لا يعرف العربية ثم اومأ انه قادم من معسكر اود بامر خاص بالامير عبد الرحمن

الفصل السادس والسبعون

معسكر شارل

فالتفت عبد الرحمن الى هانىء وقال « لو قلنا له اني الامير عبد الرحمن لا يصدقنا فالافضل ان ندله على خيمتي ثم ندخلها من باب آخر ونوهمه اننا كنا هناك » فاشار هانىء بيده الى فسطاط الامير وأمامه النار ومشى وتبعه الرجل ومضى عبد الرحمن من جهة اخرى حتى دخل خيمته من باب سري ثم دخل هانىء وبعد قليل جاءه الحاجب ان شاباً افرنجياً بالباب فأمره عبد الرحمن بادخاله فأدخله وعاد لاستقدام الترجمان وخيمته بقرب خيمة الامير . فلما دخل الشاب نظر اليه عبد الرحمن فاذا هو في مقتبل العمر عليه قيافة الافرنج وملامح العرب اسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين من حداثة فلما جاء الترجمان أمره عبد الرحمن ان يسأله عن غرضه فسأله فقال الشاب

« اني لا أخاطب أحداً غير الامير عبد الرحمن واذا كان غائباً فالامير هانىء »

فلما سمع هانىء اسمه تعجب فقال عبد الرحمن بواسطة الترجمان « انك في حضرة الاميرين معاً » . قال « اني رسول من سالمة »

فلما سمعا ذلك الاسم توسما خيراً فقال عبد الرحمن « واين هي الان ومن أنت »

قال « هي في معسكر الدوق أود وأما أنا فاني رجل عربي الاصل انتهى بي الامر الى الانتظام في جنـد الدوق اود ولي حديث طويل قصصته على سالمة منـذ برهة وجيزة وقد قبض علينا اود وقد سجن كلا منـا في مكان ثم افترقنـا ففرت هي من سجنها وظللت أنا في المعسكر ثم اطلق الدوق سراحي وأحسن الظن بي وأعاذني الى خدمتـه . ثم علم اود من عدلان الاحول أنها في دير مرتين فبعث فرساناً لاستقدامها كنت أنا في جملتهم »

فقال هانىء « ألعلك رودريك ؟ »

فبغت الشاب والتفت الى هانىء وابتسم وقد استأنس بذلك السؤال وقال « نعم يا سيدي هذا هو اسمي »

وكان عبد الرحمن يسمع ذلك ويتعجب ونظر الى هانىء نظرة الاستفهام فقال هانىء بصوت منخفض « ان هذا المسكين حفيد حسان وله قصة تعرفها مريم »

فالتفت عبد الرحمن الى رودريك وقال « فاقصص علينا سبب مجيئك »

قال « لما رجعنا من الدير المذكور ومعنـا سالمة ذهبنا بها الى خيمة باتت فيها تلك الليلة وفي الصباح التالي جاؤا بها الى مجلس الدوق وكنت في جملة الحرس الواقفين ببابه ورأيت عنده امرأة جميلة كانت جالسة بجانبه عرفت بعد ذلك أنها ابنته لمباجة وانها كانت في معسكر العرب وفرت الى أبيها في تلك الليلة — فلما دخلت سالمة خفتُ عليها من غضب الدوق ولـكنني رأيت من اجلاله اياها واحترامه لها ما كاد يذهب برشدي وسمعتها تخاطبه بجسارة وقوة وهو يحمل منها ويستعطفها كما يستعطف المحب حبيبـه . وقد سمعته يسميها بغير اسمها ويعاتبها وأخيراً أمر بارجاعها الى خيمتها . وكانت قد لاحت منها

التفاتة وهي خارجة فرأتني وعرفتني فاومأت اليَّ خلسة ان اقابلها . فاحتلت في مقابلتها تلك الليلة . فلما رأتني قالت « أنك عربي وأولى بنصرة العرب مني .. فامض الى معسكر الدوق شارل فاستطلع أحواله وأخبر أمير جند العرب بذلك لانهم اذا عرفوا قوة عدوهم هان عليهم حربه » وألحت عليَّ بسرعة الذهاب فخرجت في تلك الساعة والمعسكران متقاربان وبتُّ في معسكر شارل وقضيت طول الامس واليوم في الاستقصاء ولما أمسى المساء فررت اليكم كما رأيتموني »

فاعجب الاميران بشهامة سالمة وتذكر هانئ قولها انها ستكون في معسكر اود أنفع لهم مما في معسكر العرب فقال عبد الرحمن « ما الذي عرفته من أحوال ذلك الجند »

فقال « اعلم يا مولاي أن قائد هذا الجند رجل شديد اسمه شارل (قارله) ابن بين وهو رئيس حاشية ملك نوستريا من العائلة الميروفيجيانية ونظراً لضعف ذلك الملك كان حظ شارل من تلك المملكة دوقية اوستراسيا وراء نهر لوار لكنه لم يقنع بالدوقية بل طمع بلبس التاج ولذلك كان اود هذا من أكبر منافسيه ولم يستنجده على العرب الا بعد اليأس الشديد . فلما استنجده جرد ما استطيع جمعه من قبائل الافرنج وما يمكن حمله من العدة والسلاح واستقر في هذا المعسكر .. »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً « كم هو عدد جنده ؟ »

قال « لم أستطع معرفة عدده تماماً ولكنني علمت أنه كثير ربما زاد على ضعفي جيشكم على أنني تحققت أنه مؤلف من عدة قبائل تختلف لغاتها وعاداتها وأخلاقها وان كانت تعدُّ على الاجمال من الافرنج أو الاوربيين (١) ولكنها عند التخصيص تراها مؤلفة من شعوب عديدة من جملتهم الاوستراسيون أهل البلاد الاصليون والاتوريون والبروكتيون والطونجيون والهيسيون وغيرهم وعليهم الادراع من الجلد وعلى صدور خيولهم أدراع من الحديد الثقيل . أسلحتهم السيوف الطويلة المعتدلة ذات الحدين والفؤوس الحادة والرماح

(١) يزيدور

المستطيلة والدبابيس الثقيلة في رؤوسها حسك الحديد . والجند مؤلف من المشاة والفرسان أما الفرسان فانهم قليلون وهم وحدهم يرمون النبال . . » (١)

وكان رودريك يتكلم باهتمام وعبد الرحمن وهانئ مصغيان لكل كلمة يقولها فلما بلغ الى هنا ابتسم هانئ، والتفت الى عبد الرحمن وقال « نحن بلا ريب غالبون لان فرساننا كثيرون وقد عرفت بسالتهم وخبرت مهارتهم وفيهم الرماة وحملة السيوف والفارس العربي يعادل ثلاثة من الفرسان الافرنج ولان مشاتنا فيهم الرماحة والرماة والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء . . »

والتفت عبد الرحمن الى رودريك فرآه يتحفز للنهوض فقال له « وهل عندك خبر آخر »

قال « كلا يا مولاي ولكنني عائد الى معسكر اود بامر سالمة فهل من جواب ؟ »

قال « هي امرتك بالرجوع ؟ »

قال « نعم لعلها تطلع على امر يهمكم من هذا القبيل فتبعثني به »

فقال عبد الرحمن « اهدها سلامنا وقل لها اننا حافظون لها هذا الفضل »

فنهض رودريك واستأذن وخرج ثم خرج الترجمان ومكث عبد الرحمن وهانئ برهة يتداولان في أمر الجيش فاقرا على الاسراع في الهجوم ما امكن قبل ان يستعد الافرنج للدفاع وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر نفخ في النفير فاجتمعت جيوش المسلمين فجعل عبد الرحمن المشاة في الوسط والفرسان في الجناحين وجمع الامراء على اختلاف قبائلهم فجاؤا على خيولهم وعلى رؤوسهم العمائم مكان الخوذ وقد تقلدوا السيوف. فوقف عبد الرحمن امامهم موقف الخطيب وقال « اعلموا أيها الامراء اننا قطعنا اكيتانيا كلها والظفر خادم لنا ولما يئس عدونا من الفوز استنجد عدوه صاحب اوستراسيا وقد جاءنا بجنده وكفانا مؤونة الذهاب اليه وهذا معسكره وفيه كل قواته والذي نصرنا على صاحب اكيتانيا سينصرنا عليه وقد علمنا انه أضعف منا عدداً وعدداً والنصر موقوف على الصبر فاصبروا وتكاتفوا ينصركم الله فتفتحون بلاداً طالما تشوق المسلمون لفتحها

(١) رومي ج ٣

ويتم على يدكم ما وعد الله نبيه من فتح العالم فيكون لكم الفخر ويخلد لكم الذكر مدى الدهر وانا واثق انكم فاعلون باذن الله والله مع الصابرين »

ولما فرغ من كلامه تقدم هانىء على ادهمه وعلى وجهه امارات البشر وقال وهو يبتسم « ان هذا اليوم يوم الموعد العظيم سننـاله بالصبر والجلد . يكفينا سعادة اننا وفقنا الى امر طالما تحسر أسلافنا على الوصول اليه وسيحسدنا عليه الذين سيخلفوننا ويتمنون لو شاركونا فيه بدمائهم وأعناقهم — وسترونني وانا اضعفكم عزيمة وأقلكم بسالة باذلاً نفسي في سبيل الله فاذا فزنا فتحنا عالماً جديداً واذا منحنا الشهادة في الجهاد فذلك خير لنا عند الله . . » قال ذلك والعرق يتصبب من تحت عمامته والحماس باد في كل جارحة من جوارحه

ثم قال عبد الرحمن « فعليكم أيها الامراء أن تستحثوا رجالكم وتوصوهم بالصبر والثبات وأخبروهم بالفخر الذي سينالونه بحد سيوفهم فضلاً عن الغنائم فانها اضعاف ما نالوه حتى الآن » ثم تلا من آيات القرآن ما يزيدهم حماساً وشجاعة . فتقدم كبير امراء البرابرة وقد تحمس خصوصاً بعد ان سمع بكثرة الغنائم وقال « لا يخفى على مولانا الامير ان جند البربر من أشد جنود المسلمين بطشاً واكثرهم ثباتاً في ساحة الحرب وكلهم من الرماة الماهرين فاجعلوهم في المقدمة . . »

فأراد عبد الرحمن تشجيعهم فقال « نفعل ذلك » وأمر ان يتقدم البربر باقواسهم وبعدهم العرب والفرسان في الجناحين

وكان شارل من الجهة الثانية يتأهب لمهاجمة المسلمين والمخابرات جارية بينه وبين اود في كيفية التعاون على ذلك ولكنه لم يكن يتوقع هذه السرعة . فلما اخبرته الطلائع باصطفاف المسلمين للحرب رتب جنوده صفوفاً متلازة بشكل الكتائب فأصبحوا كأنهم سور من الرجال واكثرهم من الجنود المحنكة وقد حاربوا تحت راية شارل غير مرة فوقفوا موقف الدفاع والرماح ناتئة من بينهم صوفاً بعضها فوق بعض لتمنع العرب من اختراق ذلك السور المتين

الفصل السابع والسبعون

الحرب

قف معي هنيهة قبل الهجوم وانظر الى ذينك الجيشين وهما يختلفان جنساً ولغة ودينا ويتباينان مطعما ومشرباً وملبساً ويتباعدان خلقاً وأدباً . اجتمع أحدهما من اقاصي اسيا وافريقيا من امم شتى لا يجمعهم غير الاسلام الى بلاد لم يطأوها من قبل وأقليم لم يتعودوا برده ومطره . وقد رأوا أمامهم رجالا أدراعهم من الجلود وعلى رؤوسهم خوذ من الجلود وراياتهم مستطيلة وعليها اشارات النصرانية. وجاء الآخر من شمالي اوربا وهم قبائل مختلفة وقد قضوا زمناً في القيام بعضهم على بعض وانما اجتمعوا الآن لدفع عـدو غريب جاءهم بدين جديد وشكل جديد وقد دهشوا لغرابة ما بدا لهم من اصطفاف تلك العمائم المتراصة في تلك الساحة الرحبة كأنها بحر يتلاطم بالامواج ينتأ من بينها رايات متشابهة عليها كتابة لا يستطيعون قراءتها . ولو تفحصت ما يجول في خواطر ذينك الجيشين لرأيتهما متضاغنين متشاحنين يتضرع كل منهما الى ربه أن ينصره على الآخر تأييداً للحق . فاذا اعتبرت الاسباب التي دعت الى ذلك القتال لما رأيت سبباً غير الجشع الذي خص به الانسان دون سائر أصناف الحيوان . فاننا لم نسمع بسرب من الحيوان يجتمع لقتال سرب آخر من نوعه . واذا تنازع حيوانان فانما يتنازعان على لقمة يلتمس كل منهما سد جوعه بها فهما معذوران على الخصام. وأما الانسان فانه يقتل أخاه على شيء لا يعبر عنـه بغير الوهم بل هو لا يقدم على قتله الا على شبع . وانما يطلب وهماً يعبر عنه بالسيادة أو الشهرة وكلاهما لا تسدان جوعاً ولا ترويان عطشاً

طلعت شمس ذلك النهار وهو على تقديرهم سبت من سبوت شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ للميلاد [(١)] فبدأ العرب بالهجوم وأمطروا على الافرنج عارضاً من النبال وانقضوا عليهم انقضاض الصاعقة فتلقاهم هؤلاء بالثبات والحزم ولم

(١) رومي ج ٣

يتزحزحوا من أماكنهم . فانقضى النهار ولم يلتحم الفريقان الا سطحياً . وقد تقابلا وتناديا وتصايحا ولكنهما لم يتفاهما لان كلا منهما يعد لغة الآخر رطانة وطمطمانية — وربما كان التفاهم أقرب فيما بين خيولهم مما بينهم — ولكنهم تعارفوا بالوجوه ولم ينفعهم التعارف لانه لم يزدهم الا ضغينة وحقداً . ثم افترقوا على أن يعيدوا الكرة في الغد

رجع هانىء وهو منقبض النفس وامر فرسانه أن يعودوا الى مضاربهم وتحول بادهمه مجانباً الساحة ليطل عليها من اكمة . واذا هو بفارس ملتف بعباءة قد ساق جواده نحوه فامسك شكيمة الادهم وتفرس فيه . ولا تسل عن دهشته لما رأى مريم على ذلك الجواد فخفق قلبه وصاح فيها « مريم ! ما الذي جاء بك الى هنا ؟

فقالت « جئت لاشاهد حبيبي هانئاً يبدد الكتائب ويفلّ الجيوش . . »

فاحس عند سماعه قولها كأنها طعنته بحربة في صدره وحمل كلامها محمل التوبيخ لرجوعه بلا طائل وبدا التأثر في وجهه . وادركت مريم ذلك فاستدركت قائلة « لقد رأيتك تصول صولة الاسد ولكن الحرب سجال . على اني كنت اتوقع النصر لكم لو لم تجعلوا اولئك البرابرة في مقدمة الجند فهم لا يستطيعون اختراق صفوف الافرنج ولن يستطيع اختراقها الا الفرسان . فلو قدمتم فرسانك وانت معهم لبددتم شملهم لان خيالة الافرنج ضعيفة »

فرأى في قولها حكمة لانه كان يرى رأيها وقد همَّ بعرضه على عبد الرحمن فابتسم ونظر اليها نظر الحب والاعجاب وقال « بورك في بطن حملك فقد عهدت فيك لطف النساء وبسالة الرجال ولكنني لم أكن أعرف فيك مهارة القواد . اننا عاملون برأيك في الغد باذن الله وهو رأيي أيضاً . ولكننا قدمنا البرابرة مسايرة لهم كما تعلمين حالنا معهم . . ولماذا عرضت نفسك للنبال ؟ . . فقد كنت وانا اجول في ساحة الوغى أتصورك في الخباء تتوقعين رجوعي ظافراً . فلما رجعنا كما ترين انقبضت نفسي . . ولو رأيتك بجانبي لكانت النتيجة غير ذلك . . . »

فادركت انعلمه بوجودها يزيده بسالة ونشاطا فقالت « فموعدنا الغد »

فقال « لا . لا تعرضي نفسك للخطر فاني اخاف عليك الهباء فكيف النبال . . »

فقالت « ألعلي لا اخاف عليك ذلك ? وهل اذا أصيب هانىء بسوء ابقى أنا ? دعنا من هذا الآن وغداً لناظره قريب » وكانا يتكلمان وفرساهما يسيران حتى أصبحا بجانب المعسكر فهمزت جوادها نحو الخباء وهي تقول « استودعك الله الى الغد »

فما زال ينظر اليها وهي تسوق فرسها حتى توارت والظلام يتكاثف فتحول حتى اتى خيمة عبد الرحمن واطلعه على رأيه فوافقه عليه وبعث الى الامراء ففاوضهم في الامر فوافقوه على هذا الرأي

قضى عبد الرحمن ليله قلقاً وهو يقدر العواقب ويحسب المخاوف تجنباً للفشل وأزمع أخيراً انه اذا خاف على جنده من التقهقر طلب قائد الافرنج للنزال فاذا غلبه تشدد العرب واذا غُلب فالموت خير من الحياة . وأما هانىء فقد كان أوسع أملاً واوثق بالنصر مع انه لم يجهل شأناً من شؤون الجند يعرفه عبد الرحمن — ولكن للشبيبة آمالاً تسهل الصعاب

وأصبح الصباح فاجتمع المسلمون للصلاة وتلاوة آيات القرآن ورتبوا الجند فجعلوا الفرسان في المقدمة والمشاة في الجناحين البربر في الجناح الايمن والعرب في الايسر وعبدالرحمن وهانىء وسائر الحاشية في القلب . ومشت تلك الحملة نحو الافرنج وكانوا قد اصطفوا اصطفاف الامس وفرسانهم في الجناحين واخذوا في رمي النبال على العرب بسرعة وكثرة حتى كادت تحجب أشعة الشمس دون الغبار . ولكن العرب ظلوا سائرين وهم لا يبالون حتى اذا دنوا من صفوف الافرنج صاح هانىء في فرسانه واطلقوا الاعنة لخيولهم واستحثوها وهو على ادهمه في مقدمتهم وقد شرع سيفه . فلم يستطع الافرنج الوقوف في وجه ذلك السيل فتضعضعوا وأمراؤهم يحرضونهم ويستحثونهم . والتحم الجيشان وقد رجحت كفة النصر للعرب وهانىء يزداد حماساً وبسالة حتى خيل له لما آنسه من ضعف الافرنج وتقهقرهم انه يطارد اغناماً

وهو في ذلك سمع صوتاً خرق احشائه واستلفت كل جوارحه وقائلاً

يقول « لله درك ايها الامير » . فعلم من غنة الصوت واللثغة انه صوت مريم فالتفت فرآها على جوادها وقد التفت بعباءتها واعتمت على رأسها فوق الخمار ولم يبق ظاهراً من وجهها غير عينيها وحاجبيها وانفها وفمها وقد تجلت الحماسة في تينك العينين فأبرقتا . وأخرجت يمناها من العباءة وفيها سيف مسلول وأخرجت اليسرى وفيها درقة لطيفة من الجلد وأغارت بجانب هانىء وخلفه والناس يفرون من بين يديها كأنها قضاء نازل . فاحس هانىء لما رآها في تلك الحال ان قوته تضاعفت وايقن بالفوز ولكنه خاف على مريم من نبل تصيبها في مقتل . على انه أصبح بعد ماشاهده من تباشير النصر لايخاف خطراً — والانسان اذا سالمته الحوادث يظن الاقدار ابرمت معه عهداً ان لا ترميه بسوء — وظل هانىء هاجماً وهو يستحث رجاله ويمنيهم بالظفر . وكأن ادهمه أحس بالنصر فتحمس وازداد صهيلا وهو يشخر ويلهث والعرق يتصبب من عنقه على صدره وقد تحلب الرغاء من فيه وتساقط على رغاء العرق تحت ضرام صدره وهانىء كلما سمع صهيل جواده ازداد حماساً . ثم رأى أن يختم أسباب النصر بمبارزة شارل فطلبه بين يديه فلم يجده فجعل يلتفت للبحث عنه وهو يمتاز عن سائر الجند بقيافته ورايته والصليب على خوذته فلمحه عن بعد كأنه بجانب الامير عبد الرحمن فاراد أن يحول شكيمة الادهم الى هناك فسمع مريم تصيح فيه « احذر ايها الامير . احذر . التفت »

فالتفت وهو يحسبها تحذره من فارس يحاول اغتياله من الوراء فلم يرى احداً غير بعض العبيد أو الخدم من سعاة العرب الذين يطوفون ساحة القتال في أثناء المعركة لالتقاط النبال المتساقطة واعطائها الى الرماة او لاسعاف فارس سقط سيفه اوقوسه يلتقطونه له وقد تعودوا المرور بين قوائم الخيل مرور السهام — فالتفت هانىء الى مريم ليستطلع سبب ندائها فرآها تسوق جوادها في اثر احد اولئك السعاة وهو يعدو امامها وفي يده خنجر يقطر دماً وماعتمت أن ادركته خارج المعركة فاطارت رأسه بحسامها فوقع يتخبط بدمه ورجعت وهانىء دهش مما رآه فسمعها تقول له « تحول عن جوادك فانه مقتول وخذ هذا الجواد » قالت ذلك وهي تتحول عن جوادها

فلم يفهم هانيء قصدها ولكنه التفت الى فرسه فرأى الدم ينسكب من احشائه انسكاب الماء من القرّبة فانقبضت نفسه فتحول عنه وجاءه أحد فرسانه بفرس ركبه وأشار الى مريم ان تعود الى فرسها فعادت وهي تقول « قبح الله ذلك الاحول فقد خلصنا منه » ففهم هانيء ان الاحول تزيا بزي السعاة واغتال الجواد . ثم التفت هانيء الى الادهم فرآه قد سقط فاسف على موته أسفاً شديداً وتشاءم من سقوطه على ان امله بالنصر انساه الجواد فعاد الى الهجوم حالا لئلا يتضعضع رجاله

اما عبدالرحمن فكان يراقب الجند من القلب فلما رأى تغلب الفرسان انشرح صدره وأخذ يتنقل بفرسه على أمراء القبائل يستحثهم ويحرضهم ويبشرهم ويمنيهم وخصوصاً قبائل البربر لعلمه بشدتهم وشجاعتهم اذا هجموا فلا يقف في طريقهم سور ولا خندق ولا سيل

وكان شارل قد اسرّ في ضميره مثل ما أسره عبدالرحمن فلما رأى تضعضع جنده وقد مالت الشمس الى الاصيل اخذ يبحث عن أمير جند العرب ليبارزه فلما رآه عبد الرحمن عرفه من الراية التي كانت الى جانبه . فاقبل شارل على جواده كانه جبل ماشي وعليه درع من الفولاذ بشكل الحراشف المتراكمة تغطي صدره وكتفيه وذراعيه وتسترسل على فخذيه ومقدم ساقيه الى القدمين حتى الركابين . وعلى رأسه خوذة في قمتها صليب وقد استرسل من جانبي الخوذة وقفاها نسيج من زرد الفولاذ يغطي خديه وقفا رأسه . وعلى صدر جواده صفيحة من الحديد بشكل الدرع معلقة بمقدم السرج وقد رفع بيمناه دبوساً من حديد بشكل الصليب . وامسك بيسراه راية عليها رسم الصليب رسم السيد المسيح مصلوباً . وقد اسند قناة الراية الى الركاب الايسر

واما عبد الرحمن فكانت خوذته العمامة مثل سائر العرب وهي مع خفتها ولينها تقي الرأس كما تقيه الخوذة وعلى صدره الدرع تحت العباءة وقد تقلد السيف والخنجر . وكان بالاجمال أخف حملاً وأسرع حركة من شارل . وقلما كان يختلف في قيافته وشكله عن سائر فرسانه . أما شارل فقد كان ممتازاً بخوذته ودرعه ورايته وجواده فعرفه عبد الرحمن عن بعد فصاح فيه صيحة

أجفل لها جواده وأغار عليه وسيفه مشهر بيده فتلقى شارل الضربة بدبوسه وأخلى منها وتقهقر لا عن فرار فتبعه عبد الرحمن ثم خاف ان يكون في ذلك التقهقر مكيدة . فتراجع على ان يتأهب لطعنه اذا عاد اليه . واذا هو بالصياح قد علا في الجناح الايمن من معسكره بين البرابرة وعلت الضوضاء وهم يصيحون « ذهبت غنائمنا ضاعت أتعابنا . . . » فالتفت فرآهم يتقهقرون ويتحولون الى الوراء فرساناً ومشاة. ورأى جيش اود هاجماً على مخازن الغنائم في الخيام(١) فاستعاذ بالله وجعل يصيح في البرابرة ان يثبتوا في مواقفهم وان غنائمهم لا تغني عنهم شيئاً فلم يلتفت أحد الى قوله وبعد ان كان جند العرب فائزاً تضعضع . واغتنم الافرنج ذلك التضعضع فاعادوا الكرة ولولا هانىء وفرسانه لانكسر العرب شر كسرة



شارل مارتل وعبد الرحمن

ولكن هانئاً لما علم بما أصاب البرابرة بذل جهده في تثبيت رجاله ومريم معه وقد نزعت العمامة والخمار عن رأسها والقت العباءة عنها وظهرت بثوبها

(١) رومي ج ٣

النسائي الاسود وقد استرسل شعرها على كتفيها وخديها وهجمت والسيف مشهر بيدها وقد انحسر كمها عن زندها وهي تقول « عارٌ على العرب ان يفروا كما فر البربر . ان هؤلاء يطلبون الغنائم وأما أنتم فتطلبون الجهاد وغنيمتكم الفخر والنصر والحسنى في الدنيا والآخرة »

وكان الفرسان يحسبونها رجلاً فلما رأوها فتاة وشاهدوا جمالها وهيبتها مع تلك البسالة والغيرة خيل لهم انها ملاك نزل لنصرتهم من السماء فتحمسوا وثبتوا في هجومهم وصمموا على التفاني اجابة لندائها ونداء هانىء . ولكن الظلام فصل بين الجيشين فنفخ في الابواق فتراجع كل منهما الى معسكره

الفصل الثامن والسبعون

بعد المعركة

فلما تراجع الجيشان طلب هانىء مكان عبد الرحمن فلم يجده فسأل عنه فلم ينبئه أحد بخبره فاركض فرسه للبحث عنه هنا وهناك فلم يقف له على أثر . فامر فرسانه بالرجوع الى اماكنهم وترجل هو ومريم عن فرسيهما وجعلا يطوفان المعركة يتفحصان القتلى على نور الشفق . ثم طلع القمر فاضاء تلك البقعة المغطاة بجثث الناس وفيهم المائت والميت والجريح والعاجز وبينهم الافراس في نحو ذلك بين صهيل وشخير وانين وزحير . فتفقدا كل مكان فلم يجدا عبد الرحمن — واذا هما بصهيل يشبه صهيل فرسه عن بعد فاجفلا واستبشرا فالتفتا الى أطراف تلك الساحة فرأيا في بعض جوانبها مما يلي الجنوب فرساً واقفاً وهو يصهل ويفحص الارض فصاح هانىء « هذا فرس الامير » وأسرع اليه ومريم تتبعه حتى أتى الجواد فرآه واقفاً وامامه شبح ملقى عرفا حالاً انه عبد الرحمن . فاسرع هانىء الى يده يجسه فاذا هو جثة هامدة وقد استلقى على ظهره وبسط ذراعيه وعيناه شاخصتان نحو الشرق كأنهما تستقبلان نور القمر عند طلوعه . وشاهدا سهماً مغروساً في عنقه فعلما انه سبب وفاته . فجثا هانىء عند رأسه وصاح « وا اسفاه عليك يا اميري ووالدي ويا اخي

ويا نصيري بل يا نصير المسلمين . ولكنك فزت بجنات النعيم لانك قتلت مجاهداً فعسى ان ألحق بك عاجلاً »

وكانت مريم واقفة تنظر الى تلك الجثة وتأسف لقتل ذلك القائد لكنها كانت تتعزى ببقاء هانىء حياً وهي ترجو له النصر فاذا فاز بالفتح أصبح اكبر قواد ذلك الجند . وقد نفر سمعها من تمنيه اللحاق عاجلاً بعبد الرحمن فقالت « دعنا من الندب فانه اليق بالنساء وهلم بنا الى المعسكر ندبر شؤون الجند قبل الفشل واذا فزنا في واقعة الغد ونحن فائزون ان شاء الله ففي ذلك تعزية عن كل خسارة » فاستصوب هانىء قولها وقال « فلا بدَّ لنا من دفنه »

قالت « متى وصلنا المعسكر أرسلنا من يأتي بالجثة ثم تصلون عليها وتدفنوها » قالت ذلك ومشت وهي لا تزال مسترسلة الشعر مكشوفة الذراعين لا تبالي بما يرافق صفاء ذلك الليل من برد الخريف . ومشى هانىء والسيف يجر وراءه وقلبه في شاغل تتنازعه عوامل الفشل والاسف والامل وتظلله غياهب الحب والوجد ومريم تسير الى جانبه وهي في مثل حاله وقد وليا وجهيهما نحو المعسكر وساحة المعركة الى يمينهما ومعسكر اود الى يسارها وليس في تلك الساحة أنيس ولا يسمعان بها غير الانين والزحير وربما شاهدا بعض العبيد يجثون في الجثث يلتقطون ما بينها من سلاح أو آنية أو حلي . ولاحت من هانىء لفتة الى جثة بين يديه عليها لباس الافرنج كاد يعثر بها فاراد أن يعرج عنها فرأى في وجهها شيئاً يعرفه فتفرس فيها فاذا هي جثة رودريك فبغت وقال « ألا تعرفين هذا الوجه يا مريم »

فنظرت اليه وقالت « كلا »

قال « هذا هو رودريك حفيد حسان وكان قد حمل الينا بالامس رسالة من والدتك أنبأتنا بها بامور كثيرة عن أحوال هذا الجند ساعدتنا على حربهم اليوم . واخبرنا أنها عند أود في خير واكرام . ثم عاد مسرعاً اليها لعلها تحتاج اليه في مهمة اخرى . فما الذي جاء به الى هنا يا ترى حتى قتل ؟ »

فصاحت مريم « أرى في يده شيئاً كالكتاب أظنه رسالة من والدتي »

قالت ذلك ومدت يدها لاستخراج الكتاب من قبضته فلم تستطع كأنه قابض عليه بقوة فارتعشت جوارحها لانها تصورت الرجل حياً . فتقدم هانىء واخرج الكتاب بعنف وهو يقول « « يظهر انه مائت من هذا الصباح » وناول الكتاب لمريم وهو لفافة من جلد فصاحت « رسالة . رسالة من والدتي فلنقرأها » فوقف هانى الى جانبها وأخذت تقرأ في ضوء القمر : —

« الى الامير عبد الرحمن سلام — أما بعد فاني اكتب هـذا الكتاب اليك عند الفجر والناس نيام وقد بت بالامس قريرة العين بما شاهدته من شجاعة العرب وتجددت امالي بالنصر . ثم بلغني تدبير دبرته تلك المرأة المسماة ميمونة اذا وفقت الى اتمامه كانت العاقبة وخيمة لا سمح الله — وذلك أنها اجتمعت في هذا الليل بوالدها وأخبرته بما عليه رجال البربر من ضعف الاسلام والتعلق بالغنائم وأشارت عليه اذا انتشبت الحرب في هذا اليوم وخاف تقهقر الافرنج أن يبعث بشرذمة من رجاله يسطون على مستودعات الغنائم في معسكركم وأن يبعث أناساً عليهم لباس العرب يصيحون في جندكم أن الغنائم قد أخذت وسيتولى ذلك عدلان البربري الاحول لانه يستطيع التنكر بمظاهر العرب وتكفل قبحه الله بقتل ادهم الامير هانىء ليتضعضع الفرسان وهم اقوى جنودكم — علمت بهذا التدبير بواسطة الشاب رودريك وسأرسل هذا الكتاب معه ولكنني أتوجس خيفة عليه من عدلان لئلا يفعل به كما فعل بجده أوربما أصابه نبل في أثناء ذهابه . ولا حيلة لي في ملافاة ذلك اذ لا بد من ابلاغ هذا التدبير اليكم بالوسائل الممكنة — فاذا ادرككم كتابي هذا في حينه ونفذكم ما فيه فاني ضامنة لكم النصر باذن الله . والا فاني أخاف عليكم العاقبة . واذا أخفق هذا المسعى لا سمح الله وقدر النصر للافرنج فلن تقوم للعرب قائمة في هذه البلاد . أما انا فقد اتممت المهمة التي انتدبت لها واستودعك مريم فانها في حياطتك — وان كنت لا ارضى لها البقاء اذا انكسر العرب ولا هي ترضاه لنفسها — اذا فشل العرب ولم يقطعوا نهر لوار فلاقيمة للحياة . ولذلك فلا تطلبوني فانكم لا تجدونني في مكان . والملتقى في الدار الآخرة فانها تجمع شتات المحبين والسلام »

وما أتت مريم على آخر الكتاب حتى قفّ شعرها وارتعشت اناملها وغشي الدمع عينيها والتفتت الى هانئ فاذا هو مطرق يفكر ثم رفع بصره اليها وقال « قد علمت الان سر الانقلاب الذي أصاب جندنا بعد أن كدنا نهزم الاعداء »

فقالت « لعن الله لمباجة وعدلانها اذ لولاهما لكنا الان في معسكر شارل وفي الصباح نقطع ذلك النهر .. »

فقال « العيب يامريم مرجعه الى جندنا فانه متفرق الكلمة متباين الاغراض وخصوصاً اولئك البربر فانهم لا يفهمون من الحرب غير السلب والنهب ولولا دراية الامير عبد الرحمن رحمه الله وحسن أسلوبه وسعة صدره ما استطعنا الوصول الى هنا . وقد مات عبد الرحمن الآن ولا نعلم ما يصير اليه امرنا بعد . . . . »

فقالت « نعم ان مقتل هذا الامير خسارة كبرى ولكننا لاينبغي أن ننوء تحت هذا العبء واني أقدم نفسي لما تنتدبني اليه في هذه الحرب »

قال « يكفي منك تحريض الامراء على الاتحاد والصبر فقد رأيت من تأثير أقوالك في واقعة اليوم ما أدهشني . . »

قالت « لك عليّ ذلك . . لاني ان لم يفز هذا الجند ليس لي بقاء .. تلك هي وصية والدتي في هذا الكتاب . . »

فقال « وأنا هل أبقى وحدي ؟ . . ولكنني أرجو أن لانحتاج الى هذه الاخطار . هلم بنا الى المعسكر . . » قال ذلك ومشى فمشيت مريم وهي لاتزال حاسرة الرأس مسترسلة الشعر لاتنتبه لنفسها . حتى اذا دنوا من المعسكر فلم يسمعا جعير الجمال ولا صهيل الخيل ولا رأيا ناراً ولا حركة ولا شيئاً يدل على الجند مع ان الخيام لا تزال باقية كما هي فاسرع الى فسطاط الامير الكبير فاذا هو خال خاو . فخرجا منه الى ما يجاوره وطلبا خيمة الامير هانئ فوجداها خالية . وبالجملة فقد كان معسكر العرب كأنه خيام منصوبة في الصحراء لا انسان فيها ولا دابة حتى ولا حشرة

فقضيا برهة يتمشيان وهما صامتان من الدهشة والاستغراب ثم تكلم هانئ

قائلاً « ما الذي أراه ؟ . . اين ذهب الجنـد اين الخدم أتظنينهم ذهبوا نحو الاخبية ليجعلوا هذا النهر الصغير ترساً لهم في الدفاع . . »

قالت « ربما فعلوا ذلك . هل نذهب الى الاخبية ؟ »

قال « نذهب . . » وخرجا من بين الخيام كأنهما خارجان من خربة حتى عديا النهر الصغيرالى الاخبية فلم يجدا فيها انيساً . فقال هانىء « اذا فرضنا ان البربر جبنوا وفروا فأين العرب بل أين النساء والاولاد ؟ . ما أسرع نهوضهم وفرارهم ! يظهر ان وجود عبد الرحمن وحده كان جامعاً لهم . . فلما مات ماتت قلوبهم . . »

ثم أطرق حيناً لايتكلم وقلبه يكاد يتقطع حنقاً ويأساً لايدري ماذا يقول وقد حدثته نفسه بامور كثيرة اكبر ان يذكرها . وكانت مريم تسير بجانبه لا تقول شيئاً وهي تكتم أمراً اخرت التصريح به حتى تسمع رأيه قبلاً . وبعد المسير مدة على هـذه الصورة بين الاخبية والخيام وكل منهما غارق في أفكاره يتعثر بالاطناب والاوتاد قال هانىء « يجب علينا قبل كل شيء ان نواري جثة أميرنا رحمه الله لئلا تذهب فريسة العقبان او يمثل بها الاعداء » قال ذلك وتحولا نحو ساحة المعركة فعرفا مكان الجثة من صهيل الجواد فتعاونا في حملها على الفرس الى حفرة في مكان منفرد وضعاها فيه وغطياها بالتراب ولم يفه احد منهما بكلمة . فكان لذلك الدفن على بساطته هيبة ووقار بما كان يضطرم في قلبيهما من نيران الحزن والاسف الصحيحين غير نيران الحب ولواعج الغرام

الفصل التاسع والسبعون

اللقاء الدائم

فرغا من الدفن وهما صامتان وكان القمر قد تكبد السماء وأصبح نوره مثل نور النهار فقالت مريم « وما العمل يا هانىء ؟ »

فتنهد وقال « لوكان معي خمسون رجلاً لهاجمت بهم هذين المعسكرين . . على أن وحدتي لا تمنعني من الهجوم ولو كان فيه فنائي ولكنني اخاف على

مريم اذا انا قتلت يلحق بها عار أو اهانة .. »

فالتفتت اليه وقالت « هل تبقى مريم بعدك ؟ ذلك لا يكون وقد قرأت وصية والدتي (وتنهدت) فانها تحبب اليّ اللحاق بها الى دار الآخرة ولا أشك بانها هناك الآن .. فاذا كنت تحب مريم وتريد أن تطمئن على حياتها وعزها اسمح لي أن ألحق بوالدتي اذ لا فائدة من بقائي . وأما انت فان الاسلام يحتاج اليك والملة تفتقر الى سيفك وذراعك . . »

فلما سمع كلامها هاج فيه غرامه حتى انساه موقفه فقال « ان الملة مفتقرة الى مثلك أكثر من افتقارها الى مثلي . انك ابنة الملكين فقد حزت فضائل الجنسين . . ووالله لو صبر اولئك الجبناء الى الغد وكنت انت رائدهم في حومة الوغى لفازوا وقطعنا نهر لوار . . . آه من هذا النهر . . . لقد امتنع علينا عبوره فامتنع اجتماعنا . . . أتطيعينني يا مريم ؟ »

قالت « اني اطوع لك من بنانك — الا اذا أردت بقائي بعدك »

قال « لقد فشل جندنا وفرّ من بقي منه حياً وفي الفرار بقاء ترتاح له نفس الجبان . وقد اجتمعنا الآن ولا رقيب علينا وكل منا يود البقاء ولا بقاء الا بالفرار ونفسي تأبى ذلك . ولا يخفى عليك يا منيتي ان فؤادينا قد ذابا تطلعاً الى اليوم الذي نقطع فيه ذلك النهر لان في قطعه اجتماعنا فما الذي يمنعنا من الاجتماع فيه الآن ؟ . . »

فقطعت كلامه قائلة « في جوفه . . »

فقال « بل في قاعه — واذا كنا معاً فلا ابالي أين نكون ولا كيف نكون »

قال ذلك ووثب حتى ركب جواد عبد الرحمن وأمسك بيدها فأردفها وراءه واركض الفرس وهي ممسكة بعباءته واتجها نحو نهر لوار خارج مدينة تورس حتى وصلا الى ضفة من الرمال تتكسر عليها مياه النهر بعد تموج ضعيف وسطح النهر يتلألأ في ضوء القمر ويتلون فتحولا عن الفرس واطلقا له العنان فعاد الى المعسكر . وظلا هناك منفردين والجو هادئ ساكن لا يسمع فيه غير خرير الماء ونقيق الضفادع . فخلعا نعالهما ومشيا على الرمل المرطب بالماء ونزع هانئ عمامته وعباءته فأصبح حاسر الرأس والذراعين مثل مريم وله ضفيرة

كانت العمامة تغطيها فاسترسلت مثل ضفائر مريم . فمشيا على الرمل حتى أصبح تكسر المياه يضيب كعبيهما فوقفا هناك ومد هانيء يديه الى مريم قبض بهما على عناها . فاحس ببرودتها ولينها ولم يشعر بقشعريرتها لاشتغاله بقشعريرته . فضغط على يدها بكلتا يديه فارتعدت فرائصهما جميعاً . ولم تعد مريم تستطيع الوقوف لاصطكاك ركبتيها فأسندت رأسها بيسراها على كتف هانيء فأسكرتها رائحة عرقه كما اسكرته رائحة طيبها ولامس شعرها وجهه واشتبك بشعر لحيته فاحس بقشعريرة دبت في جسمه دبيب النمل بين اللحم والعظم . وخاف لشدة تأثره ان تخونه قدماه فيقع فأبقى يسراه قابضة على عناها وأدار يمناه الى كتفها وتساندا وهما صامتان والهوى يتكلم . ثم رفعت رأسها عن كتفه ونظرت في وجهه وعيناها قد ذبلتا من شدة التأثر وغشيهما الدمع وقالت بصوت مختنق « أتحبني يا هانيء . . ؟ »

فأعاد يده الاخرى فأمسك يمناها بيديه وادناها الى صدره وقد غلب عليه الحب ونسي مواقف القتال وقال « نعم احبك . احبك »

قالت « آه ما ألطف الحب وألذه »

قال « لا لذة له بغير الاجتماع — هل في الدنيا اثنان يتمتعان بالذ مما نحن فيه الآن ؟ ضميني يامريم ياحبيبتي . . ضميني الى صدرك . . . ألا تشعرين بخفقان قلبي ؟ . أني اشعر بدقات قلبك » قال ذلك واحدى يديه فوق كتفها والاخرى قابض بها على يدها

اما هي فرفعت بصرها الى السماء فرأت القمر مشرقاً اشراقاً باهراً وعلى وجهه رسمٌ يشبه رأسين متقاربين كانهما حبيبان يتعانقان فقالت « أني أرى صورتنا ارتسمت على وجه القمر . . انظر ياهانيء ألا ترى وجهين مثل وجهينا هناك ؟ »

قال « لا أرى في الدنيا من يشبهنا ولا من حاله تشبه حالنا . . »

وكانت مريم قد جفت دمعتها فلما سمعت قوله تذكرت حالها فقالت وهي تغص بريقها « ان حالنا عجيبة ياهانيء . . . تمنينا الاجتماع وسعينا فيه فامتنع علينا فلما التقينا ساءنا الاجتماع خوفاً من الفراق »

فأجابها وبصره شاخص في وجهها وقال « اني لا أرى ما يشفي غليلي بعد طول التحسر الا أن نجتمع اجتماعاً متواصلا لا يتخلله فراق . . ولا يكون ذلك الا بالموت معاً . هل تموتين معي يا مريم ؟ »

فالتفتت اليه ويدها ملتفة بيده الى الكتف وعيناها ذابلتان ولو لم تتكلم هي لتكلمنا ثم قالت « الموت معك حياة ياحبيبي . . ياحبيبي . آه ما ألذ هذا اللفظ بفمي وكم كنت اتلذذ بتكراره في خلوتي واتحسر على سماعه من فيك . . . »

قال « صدقت ... ولا يعرف لذة هذا اللفظ غير المحبين . وقد كفانا من حبنا المتبادل التمتع بهذا اللفظ لاننا مقيدان بعهود لا تجيز لنا ما وراءه ولو كتب لنا النصر وقطعنا هـذا النهر لـكان اجتماعنا اطول ودائرة ملذاتنا اوسع . . على اننا لم نكن مع ذلك نأمن من الفراق ونكد العيش والدنيا تأتي بالعجب العجاب .. اما الآن فاذا متنا متعانقين فكأننا عشنا الدهر معاً ولم ينغص عيشنا فراق »

قالت « عجل اذاً ولا تطل بنا الوقوف لئلا يحدث ما يحرمنـا هذه السعادة » قالت ذلك ومدت يدها الى جيبها واستخرجت المحفظة ونظرت اليها ثم قبلتها وضمتها الى صدرها وبكت وهي تقول « اماه .. يا اماه .. والهفي عليك ما كان أشقاك .. قضيت العمر في التكتم والتستر والتحذر . ثم ذهبت قتيلة ذلك السر محافظة على عهد حبيبك واكراماً لوصيتـه . ولو عرفت ذلك من قبل لاستغربت منك هذا التعلق .. وأما الان فقد ذقت طعم الحب فلا الومك . بل انا فاعلة مثل فعلك . وها أني عاملة بوصيتك »

ثم اعادت المحفظة الى جيبها وهي تقول « هـذا سرك ذاهب معنا الى غياهب الابدية »

وكان هانىء يسمع كلامها وهو يراعي حركات شفتيها وعينيها ويشاركها بكل جارحة من جوارحه . فلما فرغت من قولها أشار بعينيه الى جسمها الغض وقال لها « أليس غبناً أن تذهب هذه الاعضاء طعاماً لاسماك البحر ؟ »

فقطعت كلامه قائلة « ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين

يسمون أنفسهم بني الانسان .. عجل يا هانىء قبل ان يغلب علينا حب البقاء ... »

فمد يديه ومدت يديها وتخاصرا من جانب وتماسكا من الجانب الاخر ومشيا على الرمل حتى غرقت اقدامها في الماء فاحسا ببرده وبانزلاق الرمل تحت الاخمصين · وكانا كلما تعمقا في الماء ازدادا تعانقاً بملء الاذرع وازدادا تجاذباً حتى اصبحا جسماً واحداً وغطسا في الماء وكل منهما يتلذذ بذكر اسم الاخر · وبعد دقيقة عاما فبدا بعض الرأسين والشعر سابح على سطح الماء ثم غطسا الى قاع النهر ولم يعد يعلم مصيرها الا الله

اما جيش الافرنج فانهم أصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون هجوم العرب عليهم فرأوا الارض قفراً والخيام خاليـة فاستولوا على ما كان باقياً فيها من الغنائم (١) وكان ذلك آخر عهدهم بالعرب هناك على ما دونه التاريخ



(١) وومي ورينو